من وحى السماء

روائع جديدة من مقالات
ومحاضرات الشيخ محمد الغزالى

فهرسة أثناء النشر / إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية، إدارة الشئون الفنية

محمد، صلاح عبد الفتاح
من وحى السماء روائع جديدة من مقالات ومحاضرات الشيخ محمد الغزالى
نيوبوك للنشر والتوزيع
17 × 24 سم
تدمك: 9789779960265
رقم الإيداع: 20893/2019
1 ـ الإسلام ـ مقالات ـ محاضرات
أ ـ العنوان

دار النشـــر:	نيوبوك للنشر والتوزيع
عنوان الكتاب:	من وحى السماء روائع جديدة من مقالات ومحاضرات الشيخ محمد الغزالى
الـكـاتـب:	صلاح عبد الفتاح محمد
رقم الطبعة:	الأولى
تاريخ الطبع:	2020

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة للناشر

ويحظر طبع، أو تصوير، أو ترجمة، أو إعادة تنضيد للكتاب كاملًا أو جزئيًا، أو تسجيله على أشرطة كاسيت، أو إدخاله على الكمبيوتر، أو برمجته على أسطوانات ضوئية، إلا بموافقة الناشر الخطية الموثقة

نيوبوك للنشر والتوزيع
6 عمارات الدفاع الوطنى ـ حدائق القبة ـ القاهرة
تليفون: 01092673274
newbooknb@gmail.com

ديوان روائع المقالات
الموسوعة الثالثة
موسوعة روائع مقالات وبحوث
علماء الأزهر الشريف
(١) مقالات الشيخ محمد الغزالى

من وحى السماء

روائع جديدة من مقالات ومحاضرات الشيخ محمد الغزالى

تقديم الأستاذ الدكتور
محمد عمارة

جمع وإعداد
صلاح عبد الفتاح محمد
باحث فى الفكر الإسلامى المعاصر

NEW BOOK
نيو بوك للنشر و التوزيع

المحتويات

تقديم ٩
ترجمة القائم على جمع وإعداد الموسوعة ١٥
الإنتاج العلمى ١٥
كتب وتحقيقات تحت الاعداد والنشر ١٦
مقالات وصوتيات ومرئيات ٢٠
بين يدى الموسوعة ٢١
تمهيد ٢١
تعريف بالموسوعة ٢٢
أهداف الموسوعة ٢٥
منهج العمل فى الموسوعة ٢٦
منهج النشر ٢٩
مقدمة كتاب من وحى السماء ٣١
محمد الغزالى السيرة والمسيرة ٣٩
دراسته ٤٠
الوظائف ٤٠
دراسات عن الشيخ: محمد الغزالى ٤٤
المطلب الثانى: الشيخ محمد الغزالى (المسيرة العلمية) ٤٦

مواجهة ونقد سلبيات الحضارة الغربية ٥٢
المقبول من الحضارة الغربية ٥٣
مكانة القرآن عند الشيخ الغزالى ٥٣
منهج الغزالى فى التعامل مع القرآن ٥٤
محورية مقاصد القرآن الكريم فى فكر الشيخ محمد الغزالى ٥٦
هل حالة التخلف فى العالم الإسلامى قضاء وقدر من الله؟ ٦٥
علاج قضية التخلف من خلال سنة التدافع ٦٧
مصادر المعرفة ٦٨
مقام العقل وحدودة ٧٠
العقلانية فى التعامل الفقهى ٧١
الاهتمام بالروح ٧٤
وفى الختام ٧٥
من وحى السماء ٧٧
١ ـ فى محيط الدعوات (١) ٧٩
تحليل ومقارنة ٧٩
٢ ـ فى محيط الدعوات (٢) ٨٥
٣ ـ الكلمة الأخيرة ٩١
٤ ـ نظرة فى الإعجاز البيانى القرآنى ٩٣
٥ ـ الإمام البشير الإبراهيمي ١٠٩
٦ ـ الهجرة شىء لا يعرفه عبيد أنفسهم! ١١٤
٧ ـ كلمة المؤتمر العالمى الرابع والعشرون لتوجيه الدعوة
وإعداد الدعاة بالمملكة العربية السعودية ١١٩

٨ ـ الإسلام والثقافة العربية ١٢٤
كلمة فضيلة الإمام الشيخ/ محمد الغزالى ١٢٧
٩ ـ التربية الإسلامية ١٤٧
١٠ ـ كلمة الغزالى فى ملتقى السنة ١٥٩
١١ ـ تعليق الأستاذ الشيخ محمد الغزالى على قصيدة الأستاذة مها غريب ١٦٣
تعليق الشيخ محمد الغزالى ١٧٣
١٢ ـ الإسلام والدولة المدنية مناظرة مصر بين الدولة الدينية والمدنية ١٧٥
شريعة الأهواء ١٧٥
لا اجتهاد مع النص ١٧٦
مبادئ نظام الحكم فى الإسلام ١٧٧
تعقيب الشيخ محمد الغزالى ١٧٩
١٣ ـ نحن مهزومون فى هذا العصر؟ ١٨٥
مفهوم إسلامى ومفهوم ديمقراطى ١٨٨
علمانى كفور ١٩١
المهم.... الغاية لا الوسيلة ١٩٣
الإسلام..... حياة كاملة ١٩٥
التاريخ القديم يتدخل ١٩٦
شعب طائفى..... وليس فتنة ١٩٧
أيها الحاكم ٢٠٢
١٤ ـ حوار بين الشيخ محمد الغزالى وصهره الأستاذ إحسان عبد القدوس ٢٠٣

تقديم

بقلم المفكـر الإسـلامى الكـبير
الأستاذ الدكتور / محمد عمارة

فى تاريخنا الوسيط، وفى العصر العباسى، برز قرن العصبية العرقية ـ التى كان الكلام قد هذبها فى عهد النبوة، ووصفها ووصمها «بالجاهلية.. والمنتنة».. فقام التناقص بين «الشعوبية الفارسية» وبين العصبية العربية.. ويومئذ خيل للخليفة العباسى المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧ هـ ٨٢٢ ـ ٨٤٢ م) أن عزل الفريقين ـ العرب والفرس ـ عن جيش الدولة يمكن أن يكون سبيلا لحفظ وحدتها، وتحجيم النفوذ السياسى لهذه العصبيات العرقية، فاستجلب المماليك من أواسط آسيا، وكون منهم جيش الدولة، وجعل لهم معسكرا فى (سامراء) بالقرب من بغداد.

● لكن هذه المؤسسة العسكرية المملوكية، الغريبة عن روح الحضارة العربية، سرعان ما تضخمت، وتحولت من أداة بيد الخلافة إلى حيث أصبحت الخلافة لعبة فى يدها، حتى لهذا أصبحت (سامراء) هى العاصمة بدلا من بغداد!

ولقد وصف الشاعر هذا الانقلاب فى موازين القوى، فقال:

خليفة فى قفص.. بين (وصيف) و(بغا)

يقول ما قالا له.. كما يقول الببغا!

فبدأ بذلك التحول ـ فى تدرج بطىء ـ عصر التراجع فى تاريخنا الحضارى الوسيط.

● ولأن حجم «الدولة» ـ التى حدث فيها هذا التحول ـ كان محدودا، بسبب قيام «الحسبة والمحتسب» بأغلب وظائف «الدولة» وبسبب تحويل «الأوقاف» أغلب وظائف الدولة وصناعة الحضارة.. ولانحياز جمهور العلماء إلى «الأمة»، لم تحدث «كارثة الانقطاع الحضارى» فى عالم الإسلام.. فظلت «العافية الحضارية» فاعلة ـ نسبيا ـ فى فضاء «الأمة» و«الحضارة»، رغم طول المدى بالعسكرة التى أصبحت «ضرورة» لمواجهة المخاطر الخارجية التى هددت الوجود الإسلامى ـ مخاطر الغزوة الصليبية (٤٨٩ ـ ٦٩٠ هـ ١٩٠٦ ـ ١٢٩١ م).. والغزوة التترية (٦٥٦ ـ ٦٥٩ هـ ١٢٥٨ ـ ١٢٦١ م).

● ولأن سنة التجديد حاكمة لمسار الحضارة والتاريخ، فلقد استنفرت مخاطر الغزوة الغربية الحديثة ـ التى بدأتها الحملة الفرنسية (١٢١٣ هـ ١٧٩٨ م) ـ استنفرت المعدن النفيس لهذه الأمة، فبدأت دورة الإحياء والتجديد عندما أعلن الشيخ حسن العطار (١١٨٠ ـ ١٢٥٠ هـ ١٧٦٦ ـ ١٨٣٥ م): إن بلادنا لابد أن تتغير، ويتجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها.. وعلى دربه سار المجددون: رفاعة رافع الطهطاوى (١٢١٦ ـ ١٢٩٠ هـ ١٨٠١ ـ ١٨٧٣ م) وجمال الدين الأفغانى (١٢٥٤ ـ ١٣١٤ هـ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧ م) والإمام محمد عبده (١٢٦٦ ـ ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥ م) وعبد الرحمن الكواكبى (١٢٣٠ ـ ١٣٢٠هـ١٨٥٤ ـ ١٩٠٢م) وغيرهم كثيرون... ومع هذا التجديد الفكرى قامت الثورات التى واجهت وحاربت الغزو الاستعمارى والتخلف الموروث.

* * *

وعقب الحرب الاستعمارية العالمية الثانية.. وعندما ورثت الإمبريالية الأمريكية الإمبراطوريات الإنجليزية والفرنسية، حدثت تحولات نوعية فى أدوات الهيمنة الإمبريالية.. فأقام الكيان الصهيونى قاعدة استعمارية عنصرية للإمبريالية الغربية فى وطن العروبة والإسلام، ليكون قوة ضارية لإجهاض مشاريع التحرر واليقظة والتجديد.. وليمثل الصورة الجديدة للكيانات الاستيطانية الصليبية القديمة..

وساد ـ بالانقلابات التى رعتها الإمبريالية الأمريكية ـ «حكم العضلات» بديلا

عن «حكم العقل المستنير» الأمر الذى أحدث «تجريفًا» جفف ميادين الفكر والعلم والثقافة فى معظم الفضاءات.. حتى لقد أصبحنا أمام «أجيال يتيمة» تتقاذفها الجهالات، نضبت من حياتها معالم الفكر والعلم والثقافة على نحو مخيف..

ففى البلد الذى قامت فيه إمارة الشعر لا تجد شاعرا.. وحيث ترعرع فكر الإحياء والتجديد، حل الفراغ فى ميادين الفكر الدينى والمدنى فى الثقافة والفنون والآداب والإعلام..

الأمر الذى يجعل «فريضة الوقت والحال» هى استدعاء فكر أعلام اليقظة والإحياء والتجديد ـ الذى أخرج الأمة من ظلمات العصور المملوكية ـ ليخرج «أجيالنا اليتيمة» من جهالات «حكم العضلات»..

وهذه الفريضة هى التى ينهض بها هذا المشروع «الرائد.. العملاق»: نشر المقالات التى تمثل «خلاصات الأفكار ورحيقها» لرواد اليقظة والإحياء والتجديد..

إنه «ديوان روائع المقالات» نقدمه لأجيالنا الحاضرة «رافعة ثقافية»، تستعيد بها الأمة «العافية الفكرية» التى تواصل بها مسيرتها الحضارية، التى صاغها وميزها الإسلام عبر تاريخنا المجيد..

* * *

وهذا المشروع العلمى الرائد (ديوان روائع المقالات) ينقسم إلى (٦) موسوعات؛ كل موسوعة منها تقدم رؤية فكرية متكاملة فى جانب من جوانب الفكر. وهذه الموسوعات هى:

١ ـ الموسوعة الأولى: موسوعة روائع مقالات وبحوث الدكتور محمد عمارة وتصدر فى (١٥) مجلد تقريبا.

وتصدر فى عدة مجموعات كل مجموعة تحت عنوان خاص وكل مجموعة تتكون من عدة أجزاء لكل جزء منها عنوان خاص كالآتى:

المجموعة الأولى: جهاد قلم

المجموعة الثانية: صيحة الحق

المجموعة الثالثة: محاضرات فى الفكر الإسلامى

المجموعة الرابعة: حوارات ومناظرات

المجموعة الخامسة: حراس الإسلام

المجموعة السادسة: أشواق الروح

وربما يكون هناك مجموعات أخرى فى هذه الموسوعة حسب ما يتوفر من مقالات.

٢ ـ الموسوعة الثانية: موسوعة روائع مقالات وبحوث الشيخ: محمد رشيد رضا فى مدرسة المنار وتصدر فى (٢٠) مجلد تقريبًا.

٣ ـ الموسوعة الثالثة: موسوعة روائع مقالات وبحوث علماء الأزهر الشريف وتشمل روائع مقالات وبحوث أكثر من (مائة) عالم من العلماء وتصدر فى (٣٠) مجلد تقريبا.

٤ ـ الموسوعة الرابعة: موسوعة روائع مقالات وبحوث أعلام الفكر الإسلامى وتشمل روائع مقالات وبحوث أكثر من (مائة) مفكر وتصدر فى (٧٠) مجلد تقريبا.

٥ ـ الموسوعة الخامسة: موسوعة روائع مقالات وبحوث أعلام الفلسفة الإسلامية وتشمل روائع مقالات وبحوث أكثر من (ستين) فيلسوف وتصدر فى (٤٠) مجلد تقريبا.

٦ ـ الموسوعة السادسة: موسوعة روائع مقالات وبحوث أعلام الأدب الإسلامى وتشمل روائع مقالات وبحوث أكثر من (ثلاثين) أديب وتصدر فى (٤٠) مجلد تقريبا.

* * *

إن هذا العمل العلمى الكبير ـ الذى أسعد بتقديمه ـ قد نهض به باحثان لهما قدمٌ راسخةٌ فى ميدان البحث العلمى هما الشيخ الدكتور: على عبد العظيم على، والشيخ: صلاح عبد الفتاح محمد خليفة.

والعمل فى مشروع (ديوان روائع المقالات) له خطة عمل منظمة فهو مستقل ومشترك فى آن واحد:

ـ فهناك موسوعات ومقالات اشترك فى جمعها وإعدادها كلا الباحثين معا.

ـ وهناك موسوعات ومقالات قام على جمعها وإعدادها أحد الباحِثَيْنِ بشكل منفرد وسوف يتبين هذا للقارئ بعد النشر ومن خلال غلاف الكتاب أو الموسوعة.

ـ وهناك شخصيات من العلماء يتم النشر لهم فى أكثر من موسوعة فمثلا: نجد (عباس العقاد) له مقالات فى (موسوعة الفكر) وله مقالات أخرى فى (موسوعة الأدب) وكذلك غيره من العلماء منهم على سبيل المثال: (بنت الشاطئ ـ طه حسين ـ محمد رجب البيومى).

ـ وهناك شخصيات من العلماء قد يشترك فيها الباحثين معا كلا على حدة بمفرده فيقوم أحد الباحثين بجمع مقالات لأحد العلماء فى (موسوعة أعلام الفكر) ويقوم الآخر بجمع مقالات لنفس الشخص فى (موسوعة أعلام الأدب).

* * *

■ وبين يدى القارئ الكريم كتاب: (من وحى السماء) والذى يضم (روائع جديدة من مقالات ومحاضرات الشيخ محمد الغزالى) (١٣٣٥-١٤١٦ هـ = ١٩١٧-١٩٩٦ م) والذى تم التعريف بسيرته ومسيرته العلمية فى صدر المقالات.

■ وهو الكتاب رقم (١) من (موسوعة روائع مقالات وبحوث علماء الأزهر الشريف) والتى تحتوى على خلاصة مقالات الفكر الأزهرى للمجددين من علماء الأزهر الشريف، رواد التنوير والعقلانية والتجديد والأصالة والبعث الإسلامى، والذين يمثلون الفكر الأزهرى المستنير، والذى لم ينجرف إلى الركود والجمود، أو الانحراف والشطط، أو التبعية والتغريب، بل كان هؤلاء العلماء من المجددين ومن المؤسسين للفكر الأزهرى المستنير عبر تاريخه المديد.

■ و(موسوعة روائع مقالات وبحوث علماء الأزهر الشريف) هى (الموسوعة الثالثة) من (ديوان روائع المقالات) ذلك المشروع «الرائد.. العملاق»: والذى ينشر المقالات التى تمثل «خلاصات الأفكار ورحيقها» لرواد اليقظة والإحياء والتجديد.

* * *

والله نسأل أن يسدد خطى القائِمَينِ على هذا المشروع ـ روائع المقالات.. وأن ينفع به.. إنه ـ سبحانه وتعالى ـ خير مسئول وأكرم مجيب.

محمد عماره فى ٢١ شوال ١٤٤٠هـ ـ ٢٥ يونيو ٢٠١٩م

* * *

تعريف القائم على جمع وإعداد الموسوعة

الاسم: صلاح عبد الفتاح محمد خليفة

الميلاد: ١/ ١/ ١٩٧٩ العمارية الغربية ـ مركز ديرمواس ـ محافظة المنيا ـ مصر.

الاقامة: القاهرة ـ مصر.

المؤهلات: خريج كلية الدعوة والثقافة الإسلامية جامعة الأزهر الشريف بالقاهرة بتقدير عام جيد جدًّا ٢٠٠٢.

الإنتاج العلمى

كتب وتحقيقات منشورة:

١ ـ التصور الإسلامى لنهاية العالم (٢٠٠٨ دار سلسبيل).

٢ ـ تيسير التفسير للشيخ الدكتور عبد الجليل عيسى أبو النصر (٣ مجلد ـ تحقيق مشارك) الناشر: دار حكماء لجنة تحقيق التراث بالأزهر الشريف ٢٠١٩ تقديم الأستاذ الدكتور / محمد عمارة حفظه الله تعالى.

٣ ـ صفوة صحيح البخارى للشيخ عبد الجليل عيسى أبو النصر (٣ مجلد ـ تحقيق مشارك) الناشر: هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف ٢٠١٩ تقديم الأستاذ الدكتور / محمد عمارة ـ حفظه الله تعالى.

كتب وتحقيقات تحت الاعداد والنشر

١ ـ الأعمال الكاملة للشيخ عبد المجيد سليم ـ شيخ الأزهر الأسبق (جمع ودراسة وتحقيق) تقديم الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة حفظه الله تعالى.

٢ ـ الأعمال الكاملة للشيخ عبد الرحمن بيصار ـ شيخ الأزهر الأسبق (جمع ودراسة وتحقيق) تقديم الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة حفظه الله تعالى.

٣ ـ الأعمال الكاملة للشيخ محمد الفحام ـ شيخ الأزهر الأسبق (جمع ودراسة وتحقيق) تقديم الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة حفظه الله تعالى

٤ ـ الأعمال الكاملة للشيخ سليم البشرى ـ شيخ الأزهر الأسبق (وجمع ودراسة وتحقيق) تقديم الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة حفظه الله تعالى.

٥ ـ الأعمال الكاملة للشيخ حسن مأمون ـ شيخ الأزهر الأسبق (جمع ودراسة وتحقيق) تقديم الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة حفظه الله تعالى.

٦ ـ الأعمال الكاملة للشيخ محمد الأحمدى الظواهرى ـ شيخ الأزهر الأسبق (جمع ودراسة وتحقيق) تقديم الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة حفظه الله تعالى.

٧ ـ الأعمال الكاملة للشيخ محمد مأمون الشناوى ـ شيخ الأزهر الأسبق (جمع ودراسة وتحقيق) تقديم الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة حفظه الله تعالى.

٨ ـ الأعمال الكاملة للشيخ عبد الرحمن تاج ـ شيخ الأزهر الأسبق (جمع ودراسة وتحقيق) تقديم الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة حفظه الله تعالى

٩ ـ الأعمال الكاملة للشيخ محمد مصطفى المراغى ـ شيخ الأزهر الأسبق (جمع ودراسة وتحقيق) تقديم الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة حفظه الله تعالى.

١٠ ـ الأعمال الكاملة للشيخ جاد الحق على جاد الحق ـ شيخ الأزهر الأسبق (جمع ودراسة وتحقيق) تقديم الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة حفظه الله تعالى.

١١ ـ الأعمال الكاملة للشيخ محمود شلتوت ـ شيخ الأزهر الأسبق (جمع ودراسة وتحقيق) تقديم الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة حفظه الله تعالى.

١٢ ـ الأعمال الكاملة للشيخ عبد الحليم محمود ـ شيخ الأزهر الأسبق (جمع ودراسة وتحقيق) تقديم الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة حفظه الله تعالى.

١٣ ـ الأعمال الكاملة للمفكر عبد الرحمن عزام ـ وزير الأوقاف الأسبق (جمع ودراسة وتحقيق) تقديم الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة حفظه الله تعالى.

١٤ ـ الأعمال الكاملة للشيخ أحمد حسن الباقورى ـ وزير الأوقاف الأسبق (جمع ودراسة وتحقيق) تقديم الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة حفظه الله تعالى.

١٥ ـ الأعمال الكاملة للشيخ عبد المنعم النمر ـ وزير الأوقاف الأسبق (جمع ودراسة وتحقيق) تقديم الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة حفظه الله تعالى.

١٦ ـ الأعمال الكاملة للشيخ محمد حسين الذهبى ـ وزير الأوقاف الأسبق (جمع ودراسة وتحقيق) تقديم الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة حفظه الله تعالى.

١٧ ـ الأعمال الكاملة للشيخ محمد البهى ـ وزير الأوقاف الأسبق (جمع ودراسة وتحقيق) تقديم الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة حفظه الله تعالى.

١٨ ـ الأعمال الكاملة للشيخ يوسف الدجوى ـ من كبار علماء الأزهر الشريف (جمع ودراسة وتحقيق) تقديم الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة حفظه الله تعالى.

١٩ ـ الأعمال الكاملة للشيخ محمد أبو زهرة ـ من كبار علماء الأزهر الشريف (جمع ودراسة وتحقيق) تقديم الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة حفظه الله تعالى.

٢٠ ـ الأعمال الكاملة للشيخ محمد الصادق عرجون ـ من كبار علماء الأزهر الشريف (جمع ودراسة وتحقيق) تقديم الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة حفظه الله تعالى.

٢١ ـ الأعمال الكاملة للشيخ محمد محمد أبوشهبة ـ من كبار علماء الأزهر الشريف (جمع ودراسة وتحقيق) تقديم الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة حفظه الله تعالى.

٢٢ ـ الأعمال الكاملة للشيخ عبد المتعال الجبرى ـ مفكر وفيلسوف إسلامى (جمع ودراسة وتحقيق) تقديم الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة حفظه الله تعالى.

٢٣ ـ الأعمال الكاملة للدكتور عبد الصبور شاهين ـ مفكر وفيلسوف إسلامى (جمع ودراسة وتحقيق) تقديم الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة حفظه الله تعالى.

٢٤ ـ الأعمال الكاملة للدكتور سليمان دنيا ـ مفكر وفيلسوف إسلامى (جمع ودراسة وتحقيق) تقديم الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة حفظه الله تعالى.

٢٥ ـ الأعمال الكاملة للدكتور محمد يوسف موسى ـ مفكر وفيلسوف إسلامى (جمع ودراسة وتحقيق) تقديم الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة حفظه الله تعالى.

٢٦ ـ الأعمال الكاملة للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى ـ مفكر وفيلسوف إسلامى (جمع ودراسة وتحقيق) تقديم الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة حفظه الله تعالى.

٢٧ ـ الأعمال الكاملة للشيخ عبد الجليل عيسى ـ من كبار علماء الأزهر الشريف (جمع ودراسة وتحقيق ـ مشارك) تقديم الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة حفظه الله تعالى.

٢٨ ـ الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبد الله دراز ـ من كبار علماء الأزهر الشريف (جمع ودراسة وتحقيق) تقديم الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة حفظه الله تعالى.

٢٩ ـ مع الأزهرى التقدمى للشيخ عبد المتعال الصعيدى (تحقيق ـ مخطوط ينشر لأول مرة).

٣٠ ـ فى الحدود الإسلامية للشيخ عبد المتعال الصعيدى (تحقيق ـ مخطوط ينشر لأول مرة).

٣١ ـ أضواء على فلسفة ابن خلدون للشيخ عبد المتعال الصعيدى (تحقيق ـ مخطوط ينشر لأول مرة).

٣٢ ـ مع الأزهرى التقدمى للشيخ عبد المتعال الصعيدى (تحقيق ـ مخطوط ينشر لأول مرة).

٣٣ ـ فى ميدان التجديد ج١ للشيخ عبد المتعال الصعيدى (تحقيق ـ مخطوط ينشر لأول مرة).

٣٤ ـ فى ميدان التجديد ج٢ للشيخ عبد المتعال الصعيدى (تحقيق ـ مخطوط ينشر لأول مرة).

٣٥ ـ موسوعة روائع مقالات الدكتور محمد عمارة (١٥ مجلد ـ عمل مشارك) تقديم الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة حفظه الله تعالى.

٣٦ ـ موسوعة روائع مقالات الشيخ محمد رشيد رضا (عمل مشارك) تقديم الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة حفظه الله تعالى.

٣٧ـ موسوعة روائع مقالات وبحوث علماء الأزهر الشريف (١٠٠ عالم ـ ٢٠ مجلد) تقديم الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة حفظه الله تعالى.

٣٨ـ موسوعة روائع مقالات وبحوث أعلام الفكر الإسلامى (١٠٠ مفكر ـ ٦٠ مجلد تقريبا) تقديم الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة حفظه الله تعالى.

٣٩ـ موسوعة روائع مقالات وبحوث أعلام الفلسفة الإسلامية (٦٠ فيلسوف ٤٠ مجلد تقريبا) تقديم الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة حفظه الله تعالى.

٤٠ـ موسوعة روائع مقالات وبحوث أعلام الأدب الإسلامى (٣٠ أديب ـ ٣٠ مجلد) تقديم الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة حفظه الله تعالى.

٤١ـ سلسلة عودة الخلافة الإسلامية متى وكيف وأين (١٥ جزء).

٤٢ـ سلسلة نقد الاسلاميين (١٥ جزء).

٤٣ـ سلسلة نقد غير الاسلاميين (١٠ أجزاء).

٤٤ـ سلسلة خطب المنبر (٥ أجزاء).

٤٥ـ منظومة القيم الإسلامية (خطاب وعظى).

٤٦ـ موسوعة السلام فى الإسلام (المبادئ ـ المفاهيم ـ التطبيقات).

٤٧ـ شيوخ التنوير من علماء الأزهر الشريف.

٤٨ـ تجديد قراءة السيرة النبوية (قراءة حضارية فى ضوء الحضارة ومعطيات العصر الحديث).

٤٩ـ حفريات فلسفية معاصرة فى خطاب ابن رشد.

٥٠ـ وجوب حجاب المرأة المسلمة عند المفسرين والمحدثين والفقهاء.

٥١ـ براءة الإسلام من تهمة الارهاب وتكفير الحكام.

٥٢ـ الرايات السود (الرد على تنظيم ولاية سيناء).

٥٣ـ دفاع عن صحيح البخارى ضد منتقديه.

٥٤ـ قضية مساواة المرأة فى الميراث (رؤية منظومية شاملة فى ضوء الحقوق والواجبات).

٥٥ ـ منظومة الفكر النهضوى الإسلامى عند الشيخ محمد الغزالى.

٥٦ ـ العقل الإسلامى: البنية والتكوين عند الشيخ محمد الغزالى.

مقالات وصوتيات ومرئيات

١ ـ العديد من المقالات والخطب المكتوبة و المنشورة على موقع المؤلف على الإنترنت:

رابط الموقع: http: //www. ibnrushdcenter. com/

رابط المدونة: http: //ibnrushdcenter. blogspot. com. eg

٢ ـ العديد من الخطب والدروس المصورة والمحاضرات الفكرية والدعوية (٤٠٠ حلقة) على قناة المؤلف على اليوتيوب (قناة مركز ابن رشد للبحوث والدراسات ـ صلاح عبد الفتاح محمد).

٣ ـ العديد من الخطب والدروس الصوتية (٣٠٠ خطبة ومحاضرة) منشورة على صفحة المؤلف على موقع الشبكة الإسلامية: (صفحة المحاضر: صلاح عبد الفتاح محمد).

٤ ـ بعض اللقاءات التليفزيونية المذاعة فى التلفيزيون المصرى والموجودة على قناة المؤلف على اليوتيوب.

٥ ـ جارى إنشاء مركز أبحاث (مركز ابن رشد للبحوث والدراسات) بشكل قانونى وفق النظم الأمنية والقانونية وقواعد إتحاد الناشرين.

صلاح عبد الفتاح محمد

باحث فى الفكر الإسلامى المعاصر

موبايل: ٠١١١١١٩٤٩١٦ - ٠١٠٩٩٠٨١٧٧٥

Sallah20034@gmail. com

بين يدى الموسوعة

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

والأزهر الشريف عامر ـ على مر التاريخ ـ بالرجال والعلماء المجددين، ذوى الانتاج العلمى الوفير والرأى الثاقب المستنير، فى القضايا والمشكلات التى تواجه العالم الإسلامى.

وعلماء الأزهر على أزهريتهم إلا أن مشاربهم متعددة، ومناهجهم متعددة لكن مناهجهم الأزهرية فى النهاية هى الضابطة والحاكمة لمشاربهم وتوجهاتهم.

علماء الأزهر ليسو نصيون جامدون بعيدون عن الواقع كما يشاع عنهم، ولكن فيهم الكثير من أهل الرأى والفكر والاجتهاد والعقل والفلسفة ونظريات التجديد ـ وما من مجيب ـ واللذين كرثوا حياتهم ووظفوا أقلامهم وقدحوا زناد عقولهم لمواجهة العلمانية والتغريب والجمود والتخلف والبدع والإلحاد، والدعوة إلى إعمال العقل والاجتهاد والمعاصرة والتجديد والإحياء، وفى ذات الوقت يحافظون على هوية الأمة وأصالتها وخصوصيتها ويدافعون عن ثوابت الإسلام والسنة النبوية المباركة.

ومن هنا كان الانطلاق فى اختيار هذه الموسوعة، التى تحتوى على روائع ما جادت به قرائح هؤلاء العلماء والشيوخ الأزهريين المخلصين الأجلاء المجددين فى

الفكر الإسلامى بشكل عام والفكر الأزهرى بشكل خاص، والمجددين من علماء الأزهر أصحاب دعوات الاحياء والتجديد والإصلاح والنهوض والوحدة العربية والإسلامية بشكل أخص.

* * *

تعريف بالموسوعة

بين يدى القارئ الكريم والباحث المسلم والمثقف العربى (**موسوعة روائع مقالات وبحوث علماء الأزهر الشريف**) وهى:

■ الموسوعة رقم (٣) من (ديوان روائع المقالات) والذى يتكون من (٦) موسوعات كبرى تضم بين دفتيها روائع مقالات العلماء والمفكرين والأدباء والفلاسفة والمصلحين وعلماء الأزهر الشريف تحت إشراف وتقديم الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة حفظه الله وأطال فى عمره.

■ وهذا المشروع العلمى (ديوان روائع المقالات) والذى هو من جمع وإعداد: الشيخ: صلاح عبد الفتاح محمد خليفة ـ باحث فى الفكر الإسلامى المعاصر، والشيخ الدكتور: على عبد العظيم على ـ دكتوراه فى الدعوة والثقافة الإسلامية، ينقسم إلى عدة موسوعات (٦ موسوعات) كل موسوعة منها تعد مشروعا فكريا متكاملا يقدم رؤية فكرية متكاملة فى جانب من جوانب الفكر وهذه الموسوعات هى:

١ ـ الموسوعة الأولى: موسوعة روائع مقالات محمد عمارة وتصدر فى (١٥) مجلد تقريبا.

وتصدر فى عدة مجموعات كل مجموعة تحت عنوان خاص وكل مجموعة تتكون من عدة أجزاء لكل جزء منها عنوان خاص كالآتى:

المجموعة الأولى: جهاد قلم.

المجموعة الثانية: صيحة الحق.

المجموعة الثالثة: محاضرات فى الفكر الإسلامى.

المجموعة الرابعة: حوارات ومناظرات.

المجموعة الخامسة: حراس الإسلام.

المجموعة السادسة: أشواق الروح.

وربما يكون هناك مجموعات أخرى فى هذه الموسوعة حسب ما يتوفر من مقالات.

٢ ـ الموسوعة الثانية: موسوعة روائع مقالات وبحوث الشيخ: محمد رشيد رضا فى مدرسة المنار وتصدر فى (٢٠) مجلد تقريبا.

٣ ـ الموسوعة الثالثة: موسوعة روائع مقالات وبحوث علماء الأزهر الشريف وتشمل روائع مقالات وبحوث أكثر من (مائة) عالم من العلماء وتصدر فى (٣٠) مجلد تقريبا.

٤ ـ الموسوعة الرابعة: موسوعة روائع مقالات وبحوث أعلام الفكر الإسلامى وتشمل روائع مقالات وبحوث أكثر من (مائة) مفكر وتصدر فى (٧٠) مجلد تقريبا.

٥ ـ الموسوعة الخامسة: موسوعة روائع مقالات وبحوث أعلام الفلسفة الإسلامية وتشمل روائع مقالات وبحوث أكثر من (ستين) فيلسوف وتصدر فى (٤٠) مجلد تقريبا.

٦ ـ الموسوعة السادسة: موسوعة روائع مقالات وبحوث أعلام الأدب الإسلامى وتشمل روائع مقالات وبحوث أكثر من (ثلاثين) أديب وتصدر فى (٤٠) مجلد تقريبا.

■ موسوعة قدم لها وأشرف عليها المفكر الإسلامى الكبير الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة حفظة الله وأطال فى عمرة ونفعنا بعلمه، وقام على جمعها وتنسيقها وإعدادها الفقير إلى الله/ صلاح عبد الفتاح محمد خليفة ـ باحث فى الفكر الإسلامى المعاصر.

■ قد يقدم بعض العلماء والمفكرين الكبار المعاصرين اللذين على قيد الحياة لمقالاتهم وبحوثهم بأنفسهم وأقلامهم؛ وفق تعليمات وما سمح به الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة؛ وليس أحد آخر غيرهم ـ لبعض الأجزاء من هذه الموسوعة على حسب ما يتناسب مع شخصية وموضوع المقالات والبحوث التى تم جمعها.

■ هذه الموسوعة هى موسوعة من (٦) موسوعات كبرى يشرف عليها ويقدم لها المفكر الإسلامى الكبير الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة ـ حفظة الله، ويقوم على جمعها وإعدادها الفقير إلى الله / صلاح عبد الفتاح محمد ـ الباحث فى الفكر الإسلامى المعاصر.

■ تم عرض (أسماء العلماء والشيوخ) اللذين سوف ينشر لهم فى هذه الموسوعة على الأستاذ الدكتور محمد عمارة وأبدى إعجابه الشديد بهم وأثنى عليهم خيرا.

■ موسوعة تحتوى على خلاصة أفكار علماء الأزهر الشريف من خلال مقالاتهم وبحوثهم.

■ موسوعة تحتوى على مقالات وبحوث كبار علماء الأزهر، واللذين لهم بصمات فى التجديد والفكر، وآراء فى التراث والعقلانية والتحديث، والحفاظ على الهوية الإسلامية والتوجه الإسلامى، والحفاظ على السنة النبوية ومواجهة التغريب والاستشراق والتنصير والعلمانية ـ فالاختيار لم يكن عشوائيا ـ ولكن بشكل مدروس نركز فيه على اختيار المقالات المتعلقة بالفكر والفلسفة، وقضايا العلوم والفكر الإسلامى.

■ موسوعة تحتوى على مقالات قرابة (١٠٠) عالم من علماء وشيوخ الأزهر الشريف وقد يزيد العدد مع الوقت والعمل.

■ من مجلد (١- ١٥) كل مجلد يختص بشخصية واحدة غزيرة الانتاج العلمى وربما كان فى عدة أجزاء.

■ من المجلد (١٧) وما بعده يحتوى كل مجلد على أكثر من شخصية لها مقالات وبحوث، ولكنها قليلة ولا يمكن نشرها بشكل مستقل ولهذا جمعنا أكثر من شخصية فى فى كتاب واحد وأسميناها (نوادر مقالات وبحوث علماء الأزهر الشريف) وقد تقع فى أكثر من مجلد على حسب ما يتوفر من مقالات وبحوث، وعلى حسب إعدادات الصف والطباعة وتصدر فى نهاية الموسوعة ونختم بها.

■ العلماء والشيوخ اللذين يتم النشر لهم فى (نوادر مقالات وبحوث علماء الأزهر الشريف) والمذكورين فى قائمة منفردة، لقلة مقالاتهم وبحوثهم إذا وجدنا قدر كبير من المقالات والبحوث لأى منهم فسوف يتم النشر له فى كتاب مستقل بعيدا عن

نوادر المقالات والبحوث، ويأخذ تسلسل خاص به فى الموسوعة، هذا إذا توفر له قدر كبير من المقالات والبحوث يرقى إلى الاستقلالية.

■ هؤلاء العلماء والشيوخ منهم من كان مدرس بالمعاهد الأزهرية، ومنهم من كان واعظا بالأزهر، ومنهم من كان مفتى المحافظة وشيخ بلدة قديما، ومنهم من كان شيخ عامود بالأزهر الشريف، ومنهم من كان شيخ رواق بالمساجد الكبرى التابعة للأزهر الشريف، ومنهم من كان يعمل بجامعة الأزهر، ومنهم من ترقى فى المناصب حتى وصل إلى رئيس جامعة أو مفتى أو شيخ للأزهر الشريف أو وكيلا للأزهر أو وزيرا للأوقاف أو عضو لجنة إفتاء أو مجمع البحوث أو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

ومنهم من هو من مصر، ومنهم من هم من دولة عربية ولكنة درس وتعلم فى الأزهر الشريف إلى درجة الدكتوراه، ومنهم من تعلم فى الأزهر وسافر إلى خارج البلاد للدعوة للإسلام وقضى عمرة بالخارج، ففى النهاية مشاربهم وتعليمهم ومنهجهم هو الأزهر الشريف.

■ قد تضم الموسوعة فتاوى علماء وشيوخ الأزهر المناسبة لقضايا العصر ممن لهم فتاوى.

* * *

أهداف الموسوعة

■ تهدف الموسوعة إلى جمع المقالات المتناثرة ـ والتى يصعب الحصول عليها ـ فى بطون المجلات والجرائد والحوليات القديمة، لكل عالم من العلماء ليسهل الوصول إليها والرجوع والإطلاع عليها، والأخذ منها فى عمل البحوث والدراسات والتأليف والكتابة، وعمل رسائل الماجستير والدكتوراه.

■ تهدف الموسوعة إلى ربط الحاضر بالماضى واستعادة الرموز الإسلامية الأزهرية المنسية، بأفكارها وآرائها كمحاولة لاستئناف مسيرة النهضة العربية والإسلامية المجهضة.

■ تهدف الموسوعة إلى المساهمة فى تأسيس النهوض الإسلامى القادم، بطرح

الأفكار الإسلامية والأزهرية الأصيلة، لمواجهة الواقع المأزوم ومعالجة القضايا والمشكلات الشائكة.

منهج العمل فى الموسوعة

■ يتم جمع المقالات والبحوث المتفرقة من الكتب والمجلات والجرائد والحوليات والمؤتمرات القديمة.

■ ما يتم نشرة فى هذه الموسوعة ليس كل المقالات للعلماء المذكورين واللذين يتم النشر لهم فى هذه الموسوعة، ولكن تم انتقاء المقالات المناسبة لقضايا ومشكلات العصر الحديث وتم ترك المقالات غير المناسبة والتى لها جوانب سياسية قديمة أو أحداث وقعت فى وقتها أو قضايا ومشكلات كانت فى وقتها وكان لها حلول فى وقتها، وهى الآن بالنسبة لنا ليست قضايا أو مشكلات تتطلب الآراء والحلول فلا تصلح لعصرنا وأحداثنا، ولهذا لم تتم أعادة نشرها.

■ إذا تم العثور على مقالات جديدة تستحق النشر فسوف يتم نشرها فى طبعات أخرى لاحقة، فكل طبعة جديدة ربما تكون مذيدة ومنقحة أكثر إن شاء الله تعالى.

■ يتم تبويب وتقسيم المقالات والبحوث حسب الموضوعات إذا أمكن ذلك، وإذا كان الأمر يحتاج إلى ذلك على حسب موضوع المقالات.

■ للموسوعة تقديم من الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة حفظه الله تعالى، ويتم نشر هذا التقديم بشكل ثابت ومتكرر مع كل كتاب يصدر وذلك لتفادى صعوبة عمل تقديم لكل كتاب لصعوبة ذلك، ولتفادى صدور كتاب بدون التقديم ـ والذى ينوه عنه على الغلاف ـ فيضطر القارئ إلى الرجوع إلى المجلد الأول للإطلاع على التقديم وقد يكون فى هذا صعوبة على القارئ.

■ يقوم المحقق والقائم على عمل الموسوعة بعمل ترجمة مختصرة وثابتة عن نفسه لتعريف القارئ به، وتنشر أيضا بشكل متكرر وثابت مع كل كتاب.

■ يقوم المحقق والقائم على الموسوعة بعمل (مقدمة، وترجمة، ودراسة) لكل كتاب يصدر، وهذا يختلف فى الموضوع والكم والكيف من كتاب إلى آخر على حسب الشخصية المنشور لها ونوع المقالات والبحوث.

■ يتم عمل ترجمة مختصرة لكل عالم من العلماء اللذين ينشر لهم، وتنشر فى مقدمة مقالاته وبحوثه، وتشمل الاسم والميلاد والوفاة والتعليم والوظائف والإنتاج العلمى.

■ قد لا تتوفر بعض الترجمات بشكل علمى كامل لبعض العلماء القدماء، ولكن يتم إثبات انتماءهم للتعليم الأزهرى من خلال الكتب المختصة بترجمات علماء الأزهر وهذا يكفى لإثبات أزهريتهم عند عدم توفر ترجمة علمية كاملة لهم، وبعض العلماء لم نجد له ترجمة فى كتب الترجمات أو الأعلام، لكن المجلة التى نشرت له كتبت أسفل المقال المنشور أنه من علماء الأزهر الشريف.

■ يتم عمل دراسة مختصرة عن كل عالم من العلماء تنشر فى مقدمة مقالاته، وتتحدث عن الخطوط العريضة لأفكاره وآراءه والنظريات التى وضعها والقضايا التى عالجها مع إسقاط هذا على قضايا الواقع المعاصر.

■ قد يختلف حجم الدراسة من عالم إلى آخر على حسب الانتاج العلمى والمكانة فى الفكر، فقد تكون دراسة مثلا لأحد العلماء من (٥) صفحات وربما أقل من ذلك وقد تصل دراسة أخرى لأحد العلماء إلى (٢٥) صفحة وربما أكثر من ذلك.

■ ستكون الدراسة بشكل مبسط ولن نغرق أو نتعمق فى التفصيلات أو المصطلحات أو المنهج الأكاديمى، حتى تكون فى متناول جميع مستويات المثقفين وحتى نتمكن من إنجاز العمل وبعدها تكون الدراسات مفتوحة أمام الباحثين والعلماء من خلال المقالات المجموعة والمنشورة.

■ يتم تحقيق النصوص وتخريج الأحاديث وأقوال العلماء (قدر الإمكان) ويكون التركيز فى التحقيق على تخريج الأحاديث وأقوال العلماء المسلمين ويكتب فى الهامش بين قوسين كلمة (تحقيق) فى نهاية نص التحقيق حتى يفرق القارىء بين هامش المحقق وهامش المؤلف.

■ لن نلتزم بمنهج واحد فى التخريج ـ تيسيرا وتوفيرا للوقت ـ فقد يتم تخريج الحديث بالرقم وقد يتم بالباب والكتاب وقد يتم بالباب والكتاب معا أو بأحدهما دون الآخر حسب ما يتوفر لنا وذلك حتى نستطيع المضى قدما وننتج ما نستطيع من الموسوعات والمقالات ـ وهذا هو الأهم ـ فالعمل ضخم ويحتاج إلى مجهود ووقت كبير والله المستعان.

■ قد نطلق اسم مقال من المقالات أو البحوث لصاحب المقالات المنشور له على مجموع مقالاته وبحوثه إذا أمكن ذلك ووجدنا الاسم المناسب كما فعلنا فى (موسوعة مقالات وبحوث الدكتور محمد عمارة) فقد أطلقنا عليها اسم (جهاد قلم: مقالات وبحوث مختارة للدكتور محمد عمارة) ومقال (جهاد قلم) هو أول مقال تم نشرة للدكتور / محمد عمارة.

■ إذا لم نجد عنوان مقال مناسب من مقالات المؤلف يصلح كعنوان عام ورئيسى لمقالات وبحوث الشخص المنشور له فقد نختار عنوان المقالات من وحى أفكارنا بما يتناسب مع فكرة المقالات وموضوعاتها وقد نجعل العنوان الرسمى والرئيسى هو [روائع مقالات وبحوث الشيخ (...)].

■ لن نكرر المقالات المنشورة فى كتب مقالات أخرى تم جمعها لبعض العلماء، وسنحاول أن نأتى بجديد المقالات التى لم تنشر، وإذا أخذنا أى مقالات من كتاب آخر ـ للضرورة والتكامل الفكرى ـ فسوف نشير إلى ذلك.

■ لن نأخذ الموضوعات المنشورة فى كتب العلماء وننشرها كمقال ـ ويكون المصدر والمرجع كتاب المؤلف ـ ولكن سنقوم بنشر ما فى المجلات والحوليات فقط حتى وإن كان موجود فى الكتب.

■ لن نغرق فى التحقيق والتخريج ولكن سيكون التحقيق والتخريج بشكل مختصر جدا فالذى يهمنا هو جمع الانتاج العلمى وبلورة أفكار هؤلاء العلماء، وجمع شتات هذه المقالات ووضعها بين يدى القارئ الكريم.

■ العلماء المذكورين فى (نوادر مقالات العلماء) والبالغ عددهم قرابة (١٠٠) عالم غالبا لن يتم عمل دراسة عن مناهجهم لعدم إمكان ذلك، فبعضهم له (مقال واحد أو ثلاثة مقالات فقط) فإنتاجهم العلمى لا يكفى لعمل دراسة عنهم.

■ ربما يتم إضافة علماء آخرين إلى الموسوعة إذا وجدنا من يستحق جمع بحوثه ومقالاته ونشرها، فالموسوعة قابلة للزيادة مع الوقت.

■ يتم نشر تقديم الاستاذ الدكتور محمد عمارة للموسوعة بشكل مكرر فى كل كتاب يصدر لكل عالم من العلماء فى الموسوعة كما سبق بيان ذلك.

* * *

منهج النشر

■ ترتيب وتسلسل النشر يخضع لتوفر المادة العلمية من المقالات والبحوث المطلوبة ولا يخضع للآتى:

١ ـ لا يخضع للمكانة العلمية للمؤلف صاحب المقالات والبحوث المنشورة أو درجته العلمية.

٢ ـ لا يخضع لتاريخ الوفاة أو الميلاد أو رسوخ القدم فى العلم.

٣ ـ قد يخضع ـ إلى حد ما ـ إلى حجم الانتاج العلمى فصاحب الانتاج العلمى الغزير والوفير يتم نشرة فى أول الموسوعة، وأصحاب الانتاج العلمى القليل يتم النشر لهم فى آخر الموسوعة، حتى يتم الجمع لأكثر من شخص فى كتاب واحد.

٤ ـ العلماء المعاصرون غالبا سينشر لهم فى آخر الموسوعة.

(وذلك لتسهيل النشر فمن تتوفر مقالاته وبحوثه يتم النشر له بدون انتظار لمؤلف آخر قبله لم يتم جمع مقالاته وبحوثه).

■ قد يتم نشر مقالات أحد العلماء فى مجلد واحد أو فى أكثر من مجلد معا فى إصدار واحد أو يصدر مجلد ثم بعد فترة من الزمن يصدر مجلد آخر لنفس العالم يختلف عن المجلد الأول وذلك حسب حجم وموضوع وتوفر المقالات.

■ قد يصدر مجلد بتحقيق الباحثين القائمين على المشروع معا وقد يصدر مجلد لعالم واحد بتحقيق أحد الباحثين القائمين على المشروع ثم يصدر مجلد آخر لنفس هذا العالم بتحقيق الباحث الثانى وهذا حسب الاتفاق والتنسيق بينهم فى العمل.

■ لن يتم نشر الموسوعة دفعة واحدة بشكل كامل لصعوبة ذلك على الباحث والناشر والقارئ.

■ يتم النشر فى أجزاء متعددة غير مرتبطة يبعضها البعض، ليسهل التداول والاقتناء، وليسهل اقتناء بعض الاجزاء أو الشخصيات دون الأخرى حسبما يروق للقارئ.

صلاح عبد الفتاح محمد خليفة

باحث فى الفكر الإسلامى المعاصر

مقدمة كتاب من وحى السماء

روائع جديدة من مقالات ومحاضرات الشيخ محمد الغزالى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد النبى الأمى الهادى الأمين

■ بين يدى القارئ المجلد رقم (١) من موسوعة (روائع مقالات وبحوث علماء الأزهر الشريف) وهى الموسوعة رقم (٣) من مشروع (ديوان روائع المقالات) والذى يضم روائع مقالات المفكرين والعلماء فى شتى ميادين الدين والفكر والفلسفة والأدب بإشراف وتقديم الاستاذ الدكتور محمد عمارة.

■ وهذا الكتاب الذى بين يدى القارئ العزيز (من وحى السماء) يحتوى على روائع جديدة من مقالات محاضرات (الشيخ محمد الغزالى) والذى ستأتى ترجمته ولمحة عن أبعاده الفكرية بعد قليل.

■ والشيخ محمد الغزالى له الكثير من المقالات التى قام طلاب العلم بجمعها فى العديد من الكتب المنشورة منها:

١ ـ مقالات الشيخ الغزالى فى مجلة الوعى الإسلامى، الناشر: وزارة الأوقاف والشئون الدينية ` دولة الكويت.

٢ ـ من مقالات الشيخ محمد الغزالى، (٤ أجزاء) إعداد: عبد الحميد حسانين حسن، خالد كمال الطاهر الناشر: دار نهضة مصر.

٣ ـ خطب الشيخ محمد الغزالى فى شئون الدين والحياة (٥ أجزاء) ـ إعداد قطب عبد الحميد قطب، الناشر: دار الاعتصام.

٤ ـ حديث الاثنين (وهو كتاب يجمع كلمة كان يلقيها الغزالى فى الجزائر فى المذياع) عبد القادر نور.

■ وفى أثناء العمل فى هذا الكتاب عثرنا على الكثير من المقالات فى العديد من المجلات، وعند فحصها وجدنا أنها غير منشورة فى كتاب (مقالات الغزالى) والصادر عن دار (نهضةمصر) ولكنها موجودة فى ثنايا كتب الشيخ محمد الغزالى، فالشيخ الغزالى كان يكتب مجموعة مقالات فى مجلة من المجلات ثم يجمعها وينشرها فى كتاب واحد تحت عنوان كتاب، فكتاب (من مقالات الغزالى) والصادر عن دار (نهضة مصر) موجود فى ثنايا كتبه بصورة متفرقة، وكتاب (مقالات الشيخ الغزالى فى مجلة الوعى) موجود فى ثنايا كتبه، ولكننا إستبعدنا هذه المقالات المنشورة بين ثنايا الكتب، حتى لا نكرر ما هومنشور من قبل.

■ ومن هذه المقالات المنشورة فى المجلات والموجودة بين ثنايا كتب الغزالى وغير منشورة فى كتاب (من مقالات الغزالى) ولم نكرر نشرها فى هذا الكتاب منعا لتكرار ما هو منشور سابقا:

ـ العروبة والإسلام معًا: قِبلة العالم فى أرضنا.. فما معنى هذا؟ منشور فى مجلة الدوحة العدد رقم (٦) (١) يونيو ١٩٨٣.

موجود فى كتاب مائة سؤال عن الإسلام بعنوان (لماذا كانت قِبلةُ العالم فى أرضنا؟)

ـ لماذا الهجوم على محمد عبده والأفغاني؟! منشور فى مجلة الدوحة العدد رقم (٧) (١) يوليو ١٩٨٣، وهو موجود فى كتاب علل وأدوية بعنوان (وجهة نظر فى أقدار الرجال).

ـ هل كان الأفغانى ومحمد عبده خَارِجَيْن على الإسلام؟ متى تهدأ هذه الزَّوابع؟ منشور فى مجلة الدوحة العدد رقم (١) (١) يناير ١٩٨٤، وهو موجود فى كتاب علل وأدوية بعنوان (أما تركد هذه الزوابع).

ـ الإسلام دين المفكرين: صور من التراث الغربى تجمع بين نابليون وفولتير، منشور فى مجلة الدوحة العدد رقم (٤) (١) أبريل ١٩٨٤، وهو موجود فى كتاب (الغزو الثقافى) بنفس العنوان.

ـ حضارة باقية حتى يجد خصومُها البديل، منشور فى مجلة الدوحة العدد رقم (٦) (١) يونيو ١٩٨٤، وهو موجود فى كتاب (الغزو الثقافى) بنفس العنوان.

ـ أصول عربية للاشتراكية الحديثة، منشور فى مجلة الرسالة عدد ١١٠٣- ٤ مارس ١٩٦٥، وهو موجود فى (مقالات الشيخ الغزالى ج١) بنفس العنوان.

ـ عقيدة ونظام، منشور فى مجلة الرساله عدد ١٠٥٧ـ ١٦ أبريل ١٩٦٤، وهو موجود فى كتاب (معركة المصحف) بعنوان (فى سلم النهوض).

وغير ذلك من المقالات المنشورة فى العديد من المجلات والمنشورة أيضا بين ثنايا كتب الغزالى فلا داعى لنشرها مرة أخرى حتى وإن كانت غير منشورة فى كتاب (من مقالات الغزالى).

■ وهذه المقالات للشيخ الغزالى التى تم جمعها غير موجودة بين ثنايا كتبه، وغير منشورة فى كتب (مقالات الغزالى) بل هى مقالات متناثرة فى بطون بعض المجلات والكتب وأوراق المؤتمرات، وتم جمعها بين ثنايا كتاب واحد حتى تتم الاستفادة منها.

■ وبين يدى القارئ الكريم كتاب (من وحى السماء: روائع جديدة من مقالات ومحاضرات الشيخ محمد الغزالى) وهو إضافة جديدة إلى مجموعات مقالات الشيخ محمد الغزالى وهى لم يتم جمعها ونشرها من قبل فى كتاب واحد، ولكنها متفرقة.

■ وهذه المقالات التى بين يدى القارئ الكريم تم جمعها من العديد من المجلات منها:(مجلة الرسالة ـ مجلة المنار ـ مجلة الهلال ـ الجامعة الإسلامية ـ مجلة الثقافة ـ بعض كتب المؤتمرات) بتاريخ نشر كل مقال وذكر مصدره.

■ (من وحى السماء) هو العنوان الذى وقع اختيارنا عليه لهذه المقالات الجديدة.

ولا حرج فى العنوان فالوحى كلمة تدلُّ على معانٍ؛ منها: الإشارة، والإيماء، والكتابة، والسرعة، والصوت، والإلقاء فى الروع إلهامًا وبسرعة وبشدَّة، ليبقى أثره فى النفس[١] والوحى كاسم معناه: الكتاب، ومصدره (وَحْي)، وفعل (أَوْحَى) مصدره (إِيحَاء)[٢].

جاء لفظ الوحى وما تصرف منه فى القرآن فى ثمانية وسبعين موضعًا بمعان متعددة، ووجوهً دلالية يتطلَّبها السياق فى القرآن على نحو مخصوص[٣] فجاء الوحى فى القرآن فى سياق الحديث مع الأنبياء وعموم البشر والحيوان والجماد بمعان تختلف حسب السياق.

وذكر علماء التفسير سبعة أوجه للوحى فى القرآن الكريم:

١ ـ الإرسال: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ﴾ (النساء: ١٦٣)، ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ (الأنعام: ١٩).

٢ ـ الإشارة: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ (مريم: ١١)، والبيان فيما قبلها: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا﴾ (مريم: ١٠)، ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗا﴾ (آل عمران: ٤١)، والرمز الإشارة بالشفة والصَّوت الخفى، وعبَّر عن كل كلام كإشارة بالرمز[٤].

٣ ـ الإلهام: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾ (النحل: ٦٨)، ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ (القصص: ٧)، فالوحى هنا «إيقاع شىء فى القلب يطمئنُّ له الصدر، ويخص به بعض أصفيائه»[٥]، وهذا خاصٌّ بالبشر، أما البهائم فهو غريزة تجعلها تحسُّ ما ينفعها وما يضرها.

---

(١) معجم ألفاظ العلم والمعرفة؛ عادل زاير، ص ٢١.

(٢) التفسير الكبير؛ الرازى، ج ١٤، ص ٢٧٢.

(٣) تأويل مشكل القرآن؛ عبد الله بن مسلم بن قتيبة؛ شرح وتحقيق: السيد أحمد صقر، دار الثراث، القاهرة، ط (٢)، ١٩٧٣، ص ٣٧٣.

(٤) المفردات؛ الراغب، ص ٢٠٩.

(٥) تاج العروس؛ الزبيدى. ج ٩، ص ٦٧.

قال الرازى: قوله ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ يقال: وحى وأوحى، وهو الإلهام، والمراد من الإلهام أنه ـ تعالى ـ قرَّر فى أنفسها هذه الأعمال العجيبة التى تعجز عنها العقلاء من البشر[1].

٤ ـ الأمر: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ (الزلزلة: ٤ ـ ٥).

٥ ـ القول: والكلام المباشر: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ (النجم: ١٠).

٦ ـ الإعلام: بالإلقاء فى الروع وهو خاص بالأنبياء: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ (الشورى: ٥١).

٧ ـ الوسوسة: ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ (الأنعام: ١١٢).

ومما سبق نعلم أن (الوحى من معانيه العامة أنه الإعلام الخفى السريع، الخاص بمن يُوجَّه إليه، بحيث يخفى عن غيره، ومنه الإلهام الغريزى كالوحى إلى النحل، وإلهام الخواطر بما يلقيه الله فى روع الإنسان السليم الفطرة كالوحى إلى أم موسى، ومنه وحى الناس لبعضهم البعض، ووحى الشياطين ويسمى بالوسوسة[2]). ومن هنا كان المنطلق فى اختيار هذا العنوان (من وحى السماء) لهذه المجموعة من مقالات الشيخ الغزالى رحمه الله تعالى.

■ وللعنوان مغزى هام وهو أن الشيخ محمد الغزالى كتب بعض المقالات المنشورة فى هذا الكتاب وهو ما يزال طالبا يدرس فى الجامعة فى كلية أصول الدين، وبالرغم من كونه طالب فى مرحلة الدراسة كتب مقالات رائعة كانت تنشر فى مجلة (الرسالة) ومجلة (المنار) وهذا يدل على الوعى المبكر والنضج العلمى عند الشيخ محمد الغزالى رحمة الله تعالى.

ويدل أيضا على أن الشيخ محمد الغزالى كان ملهما من عند الله تبارك وتعالى ومن هنا كان اختيار هذا العنوان لهذه المقالات الجديدة، وقد عرضت العنوان على الأستاذ الدكتور/ محمد عمارة فأقره ولم يعترض عليه.

(١) التفسير الكبير؛ الرازى، ج١٠، ص٧٣.
(٢) الوحى المحمدي؛ محمد رشيد رضا، دار الكتاب، الجزائر، ط (١)، ١٩٨٩، ص٤٤.

ومن خلال عناوين المقالات التى نشرها الشيخ الغزالى فى (مجلة الرسالة) ندرك مدى الوعى المبكر عنده بقضايا ومشكلات الأمة الإسلامية وسعيه الصادق الحثيث للمساهمة فى حل هذه المشكلات وتحمل عبء المشاركة فى النهوض الحضارى لهذه الأمة المكلومة ويظهر لنا هذا بصورة واضحة من خلال أمرين:

أولا: نشر هذه المقالات فى مجلة الرسالة وهى المعروفة بقوتها العلمية ـ حتى أن البعض يعتبرها أفضل مجلة فى العالم الإسلامى ـ وإنتقائها لكتابها وهذا يدل على نباهة وحصافة الشيخ الغزالى وهو الذى جعل مجلة كمجلة الرسالة تنشر له.

ثانيا: التأمل فى العناوين المبكرة لمقالات الشيخ محمد الغزالى يبين لنا ـ كما أسلفنا آنفا ـ مدى الوعى المبكر عنده بمشكلات الأمة والشروع فى إصلاحها ومن هذه العناوين:

ـ **فى محيط الدعوات (١): (الكمال المزعوم ـ المذاهب العلمية السائدة ـ تقليد أعمى).**

ـ **فى محيط الدعوات (٢)**: (العقل الباطن ـ حقيقة التدين الزائف ـ الصابئة قديمًا وحديثًا).

ـ الهجرة شىء لا يعرفه عبيد أنفسهم.

وهناك أيضا بعض المقالات التى كتبها الغزالى مبكرا وهو فى مرحلة الجامعة، ولكننا رأينا عدم نشرها فى هذا الكتاب وذلك لأنها موجودة فى ثنايا كتب الغزالى فلا داعى لتكرار نشرها، وهى تدل أيضا على الوعى المبكر عند الشيخ الغزالى ومنها:

ـ حراسة الحق ميزان الايمان.

ـ حول تجديد الإسلام.

ـ العجز فى الدنيا خذلان للدين.

ـ الهجرة إيمان بالمستقبل.

ـ التفاوت بين التقدم الروحى والتقدم العقلى.

وغيرها من المقالات والتى سيجدها القارئ بين ثنايا الكتاب والتى تدل على

امتلاك الشيخ محمد الغزالى مفردات النهضة والتجديد والفكر والدعوة ووعيه بقضايا الإسلام وهمومه منذ صغره إلى هرمه وكبره، فهو الذى ولد عظيما وكبيرا ومخلصا منذ بدايته إلى وفاته، فسيجد القارئ الكريم فى هذا الكتاب محاضرتان ألقاهما الشيخ الغزالى فى شهر (مارس ١٩٩٦) أى قبل وفاته بأيام قلائل، فاللهم إرحم شيخنا محمد الغزالى رحمة واسعة.

* * *

محمد الغزالى السيرة والمسيرة

المطلب الأول: الشيخ محمد الغزالى[1] السيرة الذاتية:

ويشمل الحديث عن مولد الشيخ الغزالى ووفاته ودراسته ووظائفه وما نال من جوائز وإنتاجه العلمى والدراسات العلمية عنه.

هو:

- محمد الغزالى السقا (١٣٣٥ ـ ١٤١٦ هـ= ١٩١٧ـ ١٩٩٦ م).
- ولد فى قرية نكلا العنب / ايتاى البارود ـ محافظة البحيرة بمصر.
- أتم حفظ القرآن بكتّاب القرية وهو فى سن العاشرة.

(١) يوسف القرضاوى، الشيخ الغزالى كما عرفته، نقلًا عن موقع القرضاوى على الشبكة الدولية:
١ ـ موقع الشيخ الغزالى على الشبكة الدولية.
٢ ـ موقع الشيخ الغزالى على الشبكة الدولية.
٣ ـ فى موكب الدعوة محمد الغزالى ص ١١.
٤ ـ محمد المجذوب: علماء ومفكرون عرفتهم، ج١.
٥ ـ الشيخ محمد الغزالى، الموقع الفكرى، والمعارك الفكرية محمد عمارة.
٦ ـ العطاء الفكرى للشيخ محمد الغزالى طبع المجمع الملكى لبحوث الحضارة الإسلامية، مؤسسة آل البيت، والمعهد العالمى للفكر الإسلامى.
٧ ـ الشيخ الغزالى ومعركة المصحف فى العالم الإسلامى، محمد شلبى.
٨ ـ قصة حياة، مقتطفات من مذكرات الشيخ، مجلة «إسلامية المعرفة»، عدد: ٧، رمضان ١٤١٧هـ/ يناير ١٩٩٧م.

- سمى الشيخ «محمد الغزالى» بهذا الاسم رغبة من والده بالتيمن بالإمام الغزالى ـ وقد كان.

دراسته

- دخل الكتاب وحفظ القرآن مبكرا تمهيدا لدخول الأزهر.
- تخرج فى معهد الإسكندرية عام ١٩٣٨.
- التحق بكلية أصول الدين بالأزهر وتخرج عام ١٩٤١.
- أكمل الدراسات العليا فحصل على الإجازة فى الدعوة والإرشاد.
- حصل على إجازة التدريس العالمية ١٩٤٣.

الوظائف

- اختير عام ١٩٤٣ إماما وخطيبا بمسجد العتبة الخضراء بالقاهرة.
- عمل إماما وخطيبا لمسجد عمرو بن العاص لفترة من الزمن.
- تدرّج فى الوظائف حتى صار مفتشًا فى المساجد، ثم واعظًا بالأزهر ثم وكيلاً لقسم المساجد، ثم مديرًا للمساجد، ثم مديرًا للتدريب فمديرًا للدعوة والإرشاد.
- وفى سنة ١٣٩١هـ ١٩٧١م أعير للمملكة العربية السعودية أستاذًا فى جامعة أم القرى بمكة المكرمة.
- درّس فى كلية الشريعة بقطر.
- وفى سنة ١٤٠١هـ ١٩٨١م، عُيِّن وكيلاً لوزارة الأوقاف بمصر.
- تولى رئاسة المجلس العلمى لجامعة الأمير عبد القادر الجزائرى الإسلامية لمدة خمس سنوات وكانت آخر مناصبه.
- أشرف على عدد من رسائل الدكتوراه والماجستير.

- أعد منهاجا لتطوير الدراسة الأزهرية.
- كان للغزالى دور كبير فى إطلاق سراح الأسرى المصريين فى إيران، كما سافر إلى البوسنة والهرسك لمشاركة المسلمين هناك.
- نال العديد من الجوائز والتكريم:
- حصل على جائزة الدولة التقديرية من مصر.
- حصل على جائزة الملك فيصل فى مجال خدمة الإسلام.
- حصل على أرفع وسام فى موريتانيا.
- حصل على أرفع وسام فى الجزائر.
- كرمته المملكة العربية السعودية، وقطر، والسودان.
- عمل أستاذا فى الجامعة الجزائرية من عام ١٩٨٤ـ ١٩٨٩.
- فى العام ١٩٩٠ حصل على جائزة دولية من باكستان تقديرا لجهوده فى الدعوة.
- فى العام ١٩٩٦ منحته ماليزيا وسامها الأول.
- ترجمت كتبه إلى اللغات الإنجليزية والفرنسية والأوردية.

* * *

كتب الشيخ الغزالى مرتبة حسب تاريخ صدورها:

١ ـ الإسلام والأوضاع الاقتصادية.

٢ ـ الإسلام والمناهج الاشتراكية.

٣ ـ الإسلام والاستبداد السياسى.

٤ ـ الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين.

٥ ـ من هنا نعلم.

٦ ـ تأملات فى الدين والحياة.

٧ ـ خلق المسلم.

٨ ـ عقيدة المسلم.

٩ ـ التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام.

١٠ ـ فقه السيرة.

١١ ـ فى موكب الدعاة.

١٢ ـ ظلام من الغرب.

١٣ ـ جدِّد حياتك.

١٤ ـ ليس من الإسلام.

١٥ ـ من معالم الحق فى كفاحنا الإسلامى الحديث.

١٦ ـ كيف نفهم الإسلام.

١٧ ـ الاستعمار أحقاد وأطماع.

١٨ ـ نظرات فى القرآن.

١٩ ـ مع الله.. دراسات فى الدعوة والدعاة.

٢٠ ـ معركة المصحف فى العالم الإسلامى.

٢١ ـ كفاح دين.

٢٢ ـ الإسلام والطاقات المعطلة.

٢٣ ـ حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة.

٢٤ ـ هذا ديننا.

٢٥ ـ الخديعة.. حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربى.

٢٦ ـ الجانب العاطفى من الإسلام.

٢٧ ـ دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين.

٢٨ ـ ركائز الإيمان بين العقل والقلب.

٢٩ ـ حصاد الغرور.

٣٠ ـ الإسلام فى وجه الزحف الأحمر.

٣١ ـ قذائف الحق.

٣٢ ـ الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر.

٣٣ ـ فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء.

٣٤ ـ دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين.

٣٥ ـ واقع العالم الإسلامى فى مطلع القرن الخامس عشر.

٣٦ ـ مشكلات فى طريق الحياة الإسلامية.

٣٧ ـ هموم داعية.

٣٨ ـ مائة سؤال عن الإسلام.

٣٩ ـ علل وأدوية.

٤٠ ـ مستقبل الإسلام خارج أرضه وكيف نفكر فيه.

٤١ ـ قصة حياة.

٤٢ ـ سر تأخر العرب والمسلمين.

٤٣ ـ الطريق من هنا.

٤٤ ـ جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج.

٤٥ ـ القومية العربية.

٤٦ ـ الحق المر،

٤٧ ـ من معالم الحق فى كفاحنا الإسلامى الحديث.

٤٨ ـ الغزو الثقافى يمتد فى فراغنا.

٤٩ ـ المحاور الخمسة للقرآن الكريم.

٥٠ ـ السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث.

٥١ ـ قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة.

٥٢ ـ تراثنا الفكرى فى ميزان الشرع و العقل.

٥٣ ـ كيف نتعامل مع القرآن الكريم.

٥٤ ـ صيحة تحذير من دعاة التنصير.

٥٥ ـ نحو تفسير موضوعى للقرآن الكريم.

٥٦ ـ كنوز من السنة

خطب ومحاضرات ومقالات الشيخ الغزالى والتى جمعت له بعد وفاته

١ ـ حديث الاثنين (وهو كتاب يجمع كلمة كان يلقيها الغزالى فى الجزائر فى المذياع) عبد القادر نور.

٢ ـ خطب الشيخ الغزالى فى شئون الدين والحياة (٥ أجزاء).

٣ ـ مقالات الغزالى فى مجلة الوعى.

٤ ـ من مقالات الغزالى (٤ أجزاء).

٥ ـ من وحى السماء (وهو الذى بين يدى القارئ الكريم).

دراسات عن الشيخ: محمد الغزالى

هناك المئات من الكتب والبحوث والمقالات والرسائل العلمية عن الشيخ محمد الغزالى والتى تتحدث عن الجوانب الفكرية المتنوعة وتحللها وتقدمها للناس ومنها:

- الشيخ الغزالى كما عرفته.. رحلة نصف قرن: أ. د يوسف القرضاوى.
- كيف نتعامل مع القرآن. فى مدارسة مع الشيخ محمد الغزالى: عمر عبيد حسنة.
- هكذا علمنى محمد الغزالى: علاء الدين آل رشى.
- الشيخ محمد الغزالى: صور من حياة مجاهد عظيم ودراسة لجوانب من فكره: عماد الدين خليل، عبد الحليم عويس وآخرون
- دفع الشبهات عن الشيخ محمد الغزالى: أحمد حجازى السقا.
- الشيخ محمد الغزالى: تاريخه، جهوده، وآراؤه: عبد الحليم عويس.

- الداعية الناجح فى فكر الغزالى، وصفى عاشور أبو زيد.
- الشيخ الغزالى كما عرفته فى الجزائر: عمار الطالبى.
- ملامح الفكر السياسى للشيخ محمد الغزالى: محمد وقيع الله.
- الغزالى مفكرا وداعية ابراهيم نويرى.
- الغزالى ومنهجه الفكرى عمر دحمان.
- الفكر السياسى عند الغزالى السعيد تازولت.
- رؤية الشيخ الغزالى للتصوف ودوره وواقعه د/ عبد الرافع عبد الحليم السيد الفقى.
- مرتكزات تربوية فى فكر الشيخ محمد الغزالى د/ عدنان مصطفى إبراهيم خطاطبه.
- منهج الشيخ الغزالى فى تعامله مع القرآن يونس ملال.
- تربية المرأة من منظور الغزالى، لطيفة الكندرى وبدر محمد ملك.
- الديمقراطية والشورى فى الفكر الإسلامى المعاصر دراسة فى فكر الغزالى، محمد عبد الفتاح فتوح.
- المقاصد القرآنية عند الغزالى أنواعها مضامينها أبعادها الحضارية، محمد زرمان.
- مركزية المقاصد القرآنية عند محمد الغزالى مقاربة فى المفهوم والمصطلح والضرورة، محمد زرمان.
- الفكر الاقتصادى عند الشيخ محمد الغزالى، رسالة علمية، قيصر عبد الحفيظ إغباريه جامعة اليرموك.
- فقه السنن الإلهية وأثرة فى الدعوة دراسة فى فكر الغزالى رسالة دكتوراه جامعة باتنه الجزائر ـ هادف محمد.
- الشيخ الغزالى مفكرا وداعية إبراهيم نورى.

- الشيخ الغزالى ومنهجه الفكرى، عمر دحمان.
- الفكر السياسى عند الشيخ الغزالى خالد حياسى.
- الامام الغزالى وجهوده فى التفسير وعلوم القرآن، رمضان محمود الغريب.
- الشيخ محمد الغزالى الموقع الفكرى والمعارك الفكرية، محمد عمارة.
- الشيخ محمد الغزالى داعية النهضة الإسلامية محمود عبده.
- الوسطية والاعتدال فى المنهج الدعوى عند الشيخ محمد الغزالى نور الدين رابح.
- تجربة الشيخ محمد الغزالى فى تجديد الفكر الإسلامى محمد يونس.
- معالم المشروع الحضارى فى فكر الشيخ محمد الغزالى محمد عمارة.
- الشيخ محمد الغزالى شاهد على العصر عمر بطيشه.
- منهج الغزالى فى تناول مسائل العقيدة، د وصفى أبو زيد.
- الفكر الاقتصادى عند الشيخ محمد الغزالى قيصر عبد الحفيظ.

* * *

المطلب الثانى: الشيخ محمد الغزالى (المسيرة العلمية)

ويتكون هذا المطلب من عشرة محاور مختصرة[1] تعتبر مدخل عام إلى خارطة أفكار الشيخ محمد الغزالى ومنهجه النهضوى

أولًا: الخطوط الفكرية للشيخ محمد الغزالى:

كان الغزالى صاحب فكر منفتح ومتفاعل مع العالم الذى حوله، داخليا وخارجيا غى مستوى كل الاتجاهات، فعلى صعيد البناء الذاتى، كانت شخصيته تتكامل ضمن أطر الدعوة ألإسلامية ومناهجها التغييرية الواعية بالواقع والمتفاعلة معه أخذا وعطاءا.

(١) لنا كتاب بعنوان (الفكر النهضوى عند الشيخ محمد الغزالى) يسر الله إتمامه وإخراجه.

وعلى صعيد البناء الاجتماعى، كانت حركته تتوزع عبر نمط من الثوابت المعرفية الاجتماعية، التى تقترب من المشكلة حد الفهم الواقعى العميق، وتبتعد عنها حد الاغتراب لتحدد مسارها المعوج، ومن ثم لتصحح وتغير وتبنى من جديد وفق المنهج الإسلامى.

كان الغزالى ـ وما زال بفكرة النهضوى الواعى ـ من رواد النهوض الإسلامى والإصلاح والإحياء والتجديد، من منطلق أن هذه الأمة أمة واحدة ـ وإن كان هذا المصطلح غير موجود على أرض الواقع ـ فيحاول معالجة حالة الاختلاف والصراع التى تمر بها الأمة الإسلامية والتى جعلت الأمة أصبحت تعمل ضد نفسها.

القضية الجوهرية والمركزية فى مشروع الغزالى الفكرى، تتمثل فى الكيفيات والمناهج لإعادة صياغة الشخصية المسلمة المتوازنة والمتكاملة، الشخصية القادرة على تخطى أسباب وعوامل تراجع المسلمين الحضارى فى شتى المجالات، وسقوطهم المريع فى هاوية التخلف والهوان والانحطاط.

فكان السؤال الجوهرى الذى يشغل فكر الشيخ الغزالى هو: لماذا انحدرت الأمة الإسلامية بهذه الصورة المزرية بين الأمم؟ وكيف تستعيد هذه الأمة دورها الحضارى الريادى كما كانت من ذى قبل؟

ولهذا نجد الشيخ الغزالى، يشخص ويعالج القضايا المركزية والكبرى من مشكلات التخلف الحضارى فى العالم الإسلامى.

يقول الغزالى: (يقول فقهاء «مثلا»: لابد من قراءة فاتحة الكتاب وراء الإمام، ويقول فقهاء آخرون لا تجوز قراءتها! ليكن هذا أو ذاك، وليختر من يشاء ما شاء، فما يقوم الدين أو ينهدم بأحد المذهبين، إنما يضيع الدين والدنيا معا بذهاب الخشوع واستحكام الأثرة، وإطاعة الهوى، والذهول عن سنن الله الثابتة فى استخلاف الصالحين، وتأديب الجهلة، وإهالة التراب على ما يفعلون)[1].

لا يشغل الغزالى نفسه ولا يتكلم فى السفاسف وصغائر الأمور، بل يعالج القضايا الكبرى ويضع يده على أصل الداء وجذوره، ويقدم الدواء كطبيب ماهر مخلص لعديد من المشكلات:

(١) سر تأخر العرب ص ٣٢ (طبعة نهضة مصر، وهى التى إعتمدنا عليها فى الدراسة).

ـ مشكلة الانفصام التاريخى بين القيادة السياسية والقيادة الفكرية، والتى انعكست سلبا على الفكر الإسلامى والتى تعد من أسباب التخلف الراهن.

ـ يحاول بعث وإحياء عوامل الوحدة بين المسلمين، وتهميش الخلافات التاريخية والمذهبية وتحييد أثرها فى الواقع الإسلامى.

ـ يحارب بشدة ظاهرة الخلط العشوائى بين تعاليم الإسلام، فى مصادرها المعصومة والمتمثلة فى النص الشرعى المكون من (القرآن الكريم والحديث النبوى الصحيح) وبين الفكر الإسلامى (التراث)، والذى هو نتاج العقل الإسلامى على مر التاريخ، من آراء وأفكار واجتهادات العلماء حول النص، والتى تحتمل الصواب والخطأ لكونها اجتهاد بشرى، وأيضا العادات والتقاليد الموروثة تلك التى تتحكم فى توجيهها الأعراف البيئية، والأوضاع الخاصة، أو المنحرفة أو الجاهلية.

ثانيًا: الروافد الفكرية والموقع:

يعد الغزالى امتداد لمدرسة الاحياء والتجديد، التى أسسها محمد عبده، ومحمد رشيد رضا، وجمال الدين الأفغانى، بكل معطياتها الفكرية والعقلانية.

ومن هنا تأثر الغزالى بمدرسة الافغانى وتحدث عنه فى عديد من الكتب[١] ودافع عن اتهامه بالتشيع[٢] وأنه لم يكن متعصبا[٣] وإنما كان الإسلام هو شغله الشاغل[٤] ولم يكن ماسونيا[٥] كما يشاع عنه.

---

(١) علل وأدوية ص٧٠، لماذا الهجوم على محمد عبده والأفغاني؟! مجلة الدوحة العدد رقم (٧) (١) يوليو ١٩٨٣، مدرسة رائدة وإمام ضخم: يا جمال الدين! لماذا يهاجمونك ويحقدون عليك إلى هذا الحد؟! مجلة الدوحة العدد رقم (١٢) (١) ديسمبر ١٩٨٣.

(٢) علل وأدوية ص ٧٣.

(٣) علل وأدوية ص ٧٣.

(٤) علل وأدوية ص ٧٣.

(٥) علل وأدوية ص ٧١.

وتأثر الشيخ محمد الغزالى بمدرسة محمد عبده وامتدحه ووصفة بالرسوخ[1] فى العلم والفتوى وأشاد به فى كثير من كتبه.

وتأثر الشيخ محمد الغزالى بمدرسة الشيخ محمد رشيد رضا وقال أنه وجد فى تفسيره بواكير التفسير الموضوعى، وأنه صاحب ذهن لماح وبصر حديد له تجليات فى تجلية المعنى والحكمة ودفع الشبهات ودعم اليقين وأنه استوعب كل كتب ومدارس التفسير والفقه والأصول[2].

مشروع الغزالى يعد من أثرى وأنضج المحاولات الاجتهادية التى أنتجها العقل المسلم المعاصر، والتى تتسم ب (الربانية ـ الأصالة ـ المعاصرة ـ المقاصدية ـ الشمولية ـ الوضوح ـ العمق ـ المنهجية ـ الوسطية والاعتدال ـ التجديد ـ الامتثال ـ التحضر ـ التركيز على القضايا الكبرى).

نحتاج إلى قراءة هذا المشروع وإعادة تفكيكه، وطرحه من جديد، وقراءته قصد الإفادة من معطياته الفكرية بما يفيد واقع حياة المجتمعات الإسلامية، ومشكلات الإنسان المسلم المعاصر والذى يعانى من كثير من المشكلات على الصعيدين الداخلى والخارجى.

يتموقع الامام محمد الغزالى على قمة رجال الاصلاح بجوار (محمد رشيد رضا ـ رفاعة الطهطاوى ـ محمد عبده ـ عبد الرحمن الكواكبى ـ مالك بن نبى ـ البشير الإبراهيمى) وغيرهم من رواد الاصلاح الإسلامى الكبار والذى يعد الشيخ الغزالى امتداد لهم، بل هو مرحلة متطورة عنهم فى بعض القضايا التى أسسها هؤلاء الأفذاذ.

يقف الغزالى بينهم كالطود الشامخ، متعدد المواهب والملكات، راض ميدان التأليف؛ فلم يكتفِ بجانب واحد من جوانب الفكر الإسلامي؛ بل شملت مؤلفاته كل مجالات الفكر الإسلامى والانسانى على مستوى الداخل والخارج فنجد الشيخ يعالج كل القضايا والمشكلات الحضارية ومنها:

(١) علل وأدوية ص ٦٦، ٦٩، هل كان الأفغانى ومحمد عبده خَارِجَيْن على الإسلام؟ متى تهدأ هذه الزَّوابع؟ مجلة الدوحة العدد رقم (١) (١) يناير ١٩٨٤.
(٢) علل وأدوية ص ٦٧، ٨٥.

- التجديد فى الفقه السياسى ومحاربة الأدواء والعلل والاستبداد.
- الرد على خصوم الإسلام.
- العقيدة والدعوة والأخلاق.
- التاريخ والتفسير والحديث.
- التصوف وفن الذكر وأعمال القلوب.
- الرد على شبهات المستشرقين والمبشرين.
- الرد على شبهات العلمانيين.
- تجديد الإيمان بالله وتعميق اليقين بالآخرة.
- الدعوة إلى العدل الاجتماعى، ومقاومة الظلم.
- تحرير المرأة من الفكر الغربى المنحرف والتقاليد الموروثة.
- محاربة التدين الشكلى المغلوط.
- تحرير الأمّة وتوحيدها.
- الدعوة إلى التقدم ومقاومة التخلف.
- تنقية الثقافة الإسلامية والعناية باللغة العربية والهوية.
- التعريف بالإسلام ومصادره وشرح أحكامه وتعاليمه.
- بناء شخصية الإنسان المسلم المعاصر.
- تشخيص الأمراض المستشرية فى نفوس المسلمين ومجتمعاتهم، وتقديم الأدوية الناجعة لها.
- محاربة البدع والخرافات والأوهام المعششة فى أذهان المسلمين والظاهرة آثارها فى سلوكياتهم.
- ترشيد مسار الدعوة الإسلامية وتصحيح أخطاء الدعاة وتعليمهم فن الدعوة إلى الله.

- تقويم التراث الإسلامى وتنقيته مما ليس منه وتصحيح المفاهيم الفكرية الخاطئة فى أذهان المسلمين.
- مقاومة الاستبداد السياسى وكشف آثاره المدمرة فى حياة المسلمين فردا ومجتمعا وأمة.
- مقاومة الغزو الفكرى والثقافى الغربى.
- كشف عيوب الحضارة الغربية المعاصرة وضررها على البشرية.
- مواجهة التيارات والحركات المعادية للإسلام وفضح مخططات أتباعها داخل الصف الإسلامى.

ثالثًا: الغزالى على خط المواجهة

تتلخص جذور مشكلات العالم الإسلامى ـ عند الشيخ محمد الغزالى ـ والتى أنتجت حالة الضعف والهزيمة التى نراها الآن إلى أربعة مشكلات كبرى:

١ ـ استعمار حقود.

٢ ـ استبداد مظلم.

٣ ـ جهل مطبق.

٤ ـ سوء أخلاق مذرى.

من هنا بدأ الشيخ محمد الغزالى فى نسج وبناء المشروع الفكرى النهضوى الذى اتبع فيه سياسة المواجهة والإحلال والبناء وإعادة ترميم الفكر الإسلامى من جديد وفق المنهج الإسلامى.

يواجه الشيخ الغزالى كل الحركات والاتجاهات الهدامة والمتطرفة ـ والتى تعمل على تقويض الإسلام فى الداخل والخارج ـ بالعلم والعقل والفكر والحجة والمنطق النابعة من وسطية القرآن الكريم والسنة النبوية.

واجه الغزالى العديد من المشكلات والحركات الهدامة على المستويين الداخلى والخارجى والتى أثرت سلبا فى العالم الإسلامى ومنها:

- مواجهة العلمانية.
- مواجهة الاستعمار.
- مواجهة التبشير.
- مواجهة الاستبداد.
- مواجهة التغريب.
- مواجهة الاستشراق.
- مواجهة الغزو الثقافى.
- مواجهة الشيوعية.
- مواجهة التخلف الداخلى.

مواجهة ونقد سلبيات الحضارة الغربية

يرفض الغزالى الافتتان بالحضارة الغربية ويعترض على أولئك اللذين يعشقون التغريب ويدعون إلى المروق من الإسلام (وإلى الخروج عليه باستهانة، ويريدون نقلنا إلى أوروبا أو نقل أوروبا إلينا)[١].

يبين الغزالى أن الحضارة الغربية قامت على السلب والنهب[٢] ومليئة بالحقد على المسلمين[٣] وينتقد الغزالى النظرة الجسدية المبتذلة للمرأة فى الحضارة الغربية[٤] فهذه الحضارة جعلت من المرأة فتنة تثير الإثم فى كل مكان بدلا من أن تحافظ على عفافها[٥] ويستنكر التبرج وتعرية الجسد[٦] وغير ذلك من السلبيات الأخرى التى

(١) علل وأدوية ص ١١.
(٢) الإسلام والاستبداد ص ١٠٠.
(٣) قضايا المرأة ص ٢٠٥.
(٤) الإسلام والاستبداد ص ١٣٥.
(٥) ركائز الايمان ص ٣٣٨.
(٦) تراثنا الفكرى ص ٦٦.

ينتقدها على الحضارة الغربية كنهب الثروات والمقدرات واحتلال البلدان وقهرها وسلب الحريات.

المقبول من الحضارة الغربية

يرى الشيخ الغزالى أنه يجب علينا أن نقتبس ونستفيد من علوم الدنيا وأسرار الوجود وعلوم الطبيعة[1] والاستفادة من تجاربهم ومعارفهم[2] فالشيخ الغزالى لا يرى القطيعة المطلقة مع الحضارة الغربية بل يرى فلترة هذه الحضارة والاستفادة من إيجابياتها ومعارفها والبعد عن سلبياتها.

ومن هنا فالشيخ الغزالى يميل إلى الجانب المادى فى الحضارة الغربية قائلاً: (أنا أحتفى بالجانب المادى من الحضارة الحديثة، ولا أشارك المتشائمين منها ولا الضائقين بها، لقد قلت وما زلت أقول: إن الإنسان ملك فى هذا العالم كرمه الله أكثر مما كرم غيره وسخر له الأرض والسماء وما بينهما وكل ما طلبه منه، بإزاء هذا الخير الدافق أن يعرف ربه فلا ينكره ويشكره فلا يكفره)[3].

رابعًا: فاعلية المقاصد القرآنية عند الغزالى:

للمقاصد دور كبير وفعال فى عملية البناء الفكرى عند الغزالى، فهو لا يقف عند ظواهر النصوص الشرعية بل يثبر أغوارها ويرى ما ورائها من مصالح العباد ولهذا للغزالى فلسفة مقاصدية خاصة تتجلى أبعادها وهو يتحدث عن مقاصد الصوم وعن مقاصد الحج وعن مقاصد العديد من الاحكام الشرعية.

مكانة القرآن عند الشيخ الغزالى

للقرآن الكريم وضع خاص جدا عند الشيخ الغزالى فهو الذى حفظ القرآن الكريم كاملا فى صغره وهو الذى له ورد يومى من القرآن الكريم يقرأه كل يوم.

(١) ظلام من الغرب ص ٢٩٠.
(٢) دستور الوحدة ص ٢١٢.
(٣) الغزو الثقافى ص ٣٢.

وهو الذى يقدم دليل القرآن على دليل السنة النبوية إذا وقع تعارض بينهم فيرى أنه إذا تعارض نص القرآن مع نص الحديث النبوى وجب أن نأخذ بالقرآن الكريم.

وهو الذى يرى أن هناك مقاصد كبرى للقرآن الكريم هى جوهر التشريع الإسلامى وهى الغاية من النص القرآنى.

ويرى الغزالى ان عصرنا الحاضر هو عصر (التفسير الموضوعى) وليس (التفسير الموضعى) وتفسيرات القرآن يجب أن تطرد فى عمومها مع معطيات العصر الحاضر[١] ويجب البعد عن آفة التجزيء فى التفسير[٢].

يرى الغزالى أنه يجب تفعيل حركة وأحكام القرآن الكريم فى واقع الناس وحياتهم فيقول: (القرآن كتاب لا يستطاع عزلة عن الحياة أبدا وهل نزل إلا ليخطئ أو يصوب من افكارها؟ وإلا ليمحوا أو يثبت من أحوالها؟ إنه كتاب الحياة المفعمة بالحركة المتجددة على الدهر ولكنها الحياة القائمة على الحق الدارجة على الصراط المستقيم)[٣].

منهج الغزالى فى التعامل مع القرآن

كان الشيخ الغزالى صاحب منهج متفرد فى النظر فى القرآن الكريم

فنرى الغزالى يصف القرآن الكريم بأنه (حقيقة علمية ثابتة كالحقائق الكونية الثابتة)[٤] و(الشواهد على صدقة تجيء سيلا غدقا)[٥] والقرآن (روح شعب ومراسم حكومة)[٦].

بل أن الغزالى يرى أن القرآن الكريم هو أكبر معجزات الرسول الشاهدة على نبوته ﷺ وصدق الإسلام وباقى المعجزات بجوار القرآن كأنها كرامات فيقول: (والقرآن هو المعجزة الكبرى والتى هى أشد من المعجزات المادية)[٧].

---

(١) حوار مع الشيخ الغزالى أداره عبد الحليم عويس مجلة الفيصل عدد ١٨٩ ص ١١.
(٢) كيف نتعامل مع القرآن ص ٧٥.
(٣) نظرات فى القرآن ص ٤- ٥.
(٤) نظرات فى القرآن ص ٢٢.
(٥) نظرات فى القرآن ص ٢٣.
(٦) نظرات فى القرآن ص ٣٢.
(٧) عقيدة المسلم ص ١٤٣ فقه السيرة ص ٤٥.

والقرآن هو المعجزة الأولى المعنوية والدالة على صدق الرسول و(الخوارق المادية ثانوية الدلالة فى تصديق النبوة)[١].

(ليس فى العالم الآن كتاب تصح نسبته إلى الله وتتقدم الدعوى به محفوفة بآلاف الأدلة وتسطع حقيقة فى الأذهان سطوع الضحوة الكبرى إلا هذا القرآن إنه وحده صوت السماء ووديعة الملأ الأعلى وكلام الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه)[٢].

القرآن هو الأساس الأول يجب دراسته واستقصاء دلالته وموائمته مع المجتمع بشرحه المستفيض لرسالة الحياة الصحيحة وواجبات الأحياء[٣].

هيمنة القرآن الكريم على السنة النبوية:

يدعوا الشيخ الغزالى إلى (القراءة والوعى والتدبر والعمل)[٤] بالقرآن الكريم ويرى (وجوب العمل بالحديث الصحيح المتفق مع القرآن الكريم)[٥].

وأن الأحاديث الضعيفة والموضوعة هى سبب الانفصال عن هدايات القرآن وأننا لو استحضرنا توجيهات القران ابتداء ما احتجنا إلى مناقشة السند وتوهينه يكفى أن يكون النص مخالفا للقرآن ليرد أشد الرد[٦].

يرى الغزالى أن القرآن يهيمن على سائر المصادر الإسلامية وعلى السنة فهما وثبوتا فهو كالقوانين مقارنة بالدستور[٧].

ويخطئ من يظن أن الشيخ الغزالى بهذا يقلل من قدر السنة النبوية ومكانتها أو ينكر كونها مصدرا للتشريع فالشيخ يرى ثبوت السنة الصحيحة وكونها مصدر للتشريع ويرى استحالة وجود تعارض بين آية واحدة من القرآن وحديث صحيح

(١) عقيدة المسلم ص ١٨٥.
(٢) نظرات فى القرآن ص ٤٤.
(٣) الإسلام والطاقات المعطلة ص ٦٤ نظرات فى القرآن ص ١٥٣.
(٤) الإسلام والطاقات المعطلة ص ٦٣.
(٥) هذا ديننا ص ٢٠٧.
(٦) نظرات فى القرآن ص ٢١٠.
(٧) ليس من الإسلام ص ٣٦.

واحد ويرى أنه إذا وجد هذا التعارض وجب علينا الأخذ بالقرآن الكريم وإهمال ما تعارض معه من الحديث.

يقول: (والسنة على قيمتها لها منزلة ثابتة بعد القرآن)(١).

ويقول: (والسنة النبوية تفهم فى ضوء فهم دلالات القرآن)(٢).

ويقول: (ويفضل أن نجعل للسنة مكانا مع القرآن)(٣).

ويقول: (وعند التعارض يقدم دليل القرآن على دليل السنة النبوية)(٤).

والذى يقوم بهذا التوفيق بين القرآن والسنة هو العلماء المتمكنون ذوى البصائر فيقول الغزالى: (إن الغزالى يرفض أن يشتغل بالسنة رجل فقير فى القرآن كما يرفض أن يستخرج احكام السنة رجل قصير الباع فى استخراج أحكام القرآن)(٥).

يدعوا الغزالى إلى فهم روح القرآن ومقاصده وجعلها مهيمنة أى فهم روح التشريع وليس مجرد الأحكام هذه الروح موجودة فى آيات القصص ووصف الكون وآيات لا علاقة لها بالتشريع ويستشف من أسلوبها حقيقة الحياة وروح التشريع ومعنى الوجود على النحو الذى يرضى الله(٦).

فالقرآن الكريم ليس مجرد كتاب أحكام وعبادات أو كلمات تتلى ولكنه كما يقوال الغزالى: (القرآن له منهج متكامل فى بناء الأفراد والأمم)(٧).

محورية مقاصد القرآن الكريم فى فكر الشيخ محمد الغزالى

القرآن الكريم هو المحور الذى قامت عليه الحضارة الإسلامية ومصدر القيم ومنبع المعرفة وقطب الرحى ومصدر التصور للوجود والكون والحياة الذى دارت

(١) نظرات فى القرآن ص ١٤١.
(٢) فقه السيرة ص ٣٣ السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث ص ١٧ تراثنا فى ميزان الشرع والعقل ص ١٤٣.
(٣) نظرات فى القرآن ص ١٤٩.
(٤) نظرات فى القرآن ص ١٥٥.
(٥) نظرات فى القرآن ص ١٤٢.
(٦) نظرات فى القرآن ص ١٤٤.
(٧) الإسلام والطاقات المعطلة ص ٦٥.

حوله كل العلوم الشرعية وغير الشرعية (إنه كتاب الحياة المفعمة بالحركة المتجددة على الدهر ولكنها الحياة القائمة على الحق الدارجة على الصراط المستقيم)[١].

كان الغزالى يتعامل مع القرآن الكريم من منطلق أنه الكتاب المهيمن من ناحية الأحكام والتشريع والمقاصد وهذا ما قرره العلماء الآخرين (مقاصد القرآن أعم ومقاصد الشريعة أخص لأن مقاصد الشريعة متعلقة بالفرد الواحد ودائرة فى نطاقه باعتبار فردية التبعية ومسئولية التكليف ولكن الحديث عن مقاصد القرآن متعلق باعتبار الخليفة والإنسان (الجماعة) والإنسان (الدولة))[٢].

يتأمل الغزالى فى القرآن الكريم ثم يقرر أنه يقوم على خمسة محاور هى المقاصد الكبرى للقرآن الكريم[٣].

ويتوقف الغزالى طويلا أمام كل مقصد ويثبر أغواره ويربط بين هذه المقاصد وبين الحضارة والعمران والاستخلاف وأثر ذلك على تبليغ الرسالة فيقول: (ولما كان المسلمون شديدى التخلف فى المجال الحضارى والدولى فإن أحوالهم المزرية كان لابد أن توقف سير الرسالة وأن تلقى عليها ظلالا سوداء)[٤].

وعند الشيخ الغزالى يشرح القرآن الكريم خمسة محاور كبرى هى مقاصد القرآن الكريم أو ركائز القرآن الكريم أو القضايا الكبرى للقرآن الكريم والتى أفاض فى شرحها وهى:

مقصد التوحيد.

مقصد الكون والوجود.

مقصد القصص القرآنى.

مقصد البعث والجزاء.

مقصد التربية.

---

(١) نظرات فى القرآن ص ٤ .

(٢) مقاصد القرآن فى فكر النورسى زياد خليل حولية كلية الشريعة والقانون جامعة قطر ٢٠٠٣ ص ٣٥٣.

(٣) المحاور الخمسة للقرآن الكريم ص ١٨ .

(٤) المحاور الخمسة ص ٧٢.

ويتبحر الشيخ الغزالى فى شرح كل مقصد من هذه المقاصد ويثبر أغواره ويربطه بالإنسان والسلوك والتشريع والحضارة والعمران وحركة التاريخ وقوانين السببية والسنن الكونية والهداية والضلال وقيام الأمم وسقوطها.

خامسًا: السنن الكونية فى فكر الغزالى

للكون سنن وقوانين فرضها الله على نفسه وقانون أسباب ومسببات يسير عليه الكون والله عز وجل بعدله جعل هذه السنن والقوانين تسير على المؤمنين والكافرين وهذه الأمة لن تخرج من هزيمتها الحضارية وضعفها وهوانها وتخلفها إلا إذا أخذت بهذه السنن وتلك القوانين.

(إن الأمة لن تخرج من الشباك إلا بقوانين مكتوبة عندها فى الوحى النازل عليها يجب أن تدرسه وبالتالى يجب عليها أن تعيد حساباتها عن ماضيها بعد أن تعرضت للاضمحلال والانحلال عندما فرطت فى سنن الله الكونية والاجتماعية وظنت أن المواجهة العسكرية والسياسية العمياء فقط كافية فى استئناف النهوض)[1].

وهذه السنن قانون يشبه قوانين الطبيعة يسير على كل البشر مؤمنين وغير مؤمنين فهى قانون عادل تساوى أمامه كل الناس لا يحابى ولا يجامل أحد (لها دقة القوانين العلمية التى تسمح بجرى السفن ودوران الآلات فى المصانع)[2] (وهى صورة أخرى مكملة أو امتداد طبيعى لسننه فى ميادين العلوم التطبيقية وإن كانت كيميائية أو فيزيائية أو نباتا أو أى شىء)[3].

والأخذ بهذه السنن هو سبب قيام الأمم وسقوطها (إن لله تبارك وتعالى سننا ثابتة وقوانين خالدة فى سير المجتمعات البشرية تشبه السنن والقوانين التى تدور بها الأفلاك وتتحرك بها المادة وتضبط بها قوانينها فى كل جامد وسائل، تلك هى القوانين التى تجعل كل مجتمع يزدهر وآخر يضطرب)[4].

(١) كيف نتعامل مع القرآن ص ٤٧.
(٢) سر تأخر العرب ص ٣٢.
(٣) كيف نتعامل مع القرآن ص ٤٩.
(٤) كيف نتعامل مع القرآن ص ٤٦.

والقرآن الكريم هو المصدر الرئيسى للسنن الكونية فى الإسلام ومنه ينهل المسلم ويتعلم فقه السنن الكونية التى بها تقوم الأمم وتنهار (لا بد للإنسان من التدبر فى القرآن والتعرف على سنن الكون وقوانينه التى لا يتحقق بدون إدراكها تعمير الأرض)[١].

يرى الغزالى أن المسلمين مقصرون جدا فى فهم السنن الكونية والأخذ بها فيقول: (نحن ما فهمنا سنن الله الكونية فى الأرض حسب منطق التجربة والاستقراء والملاحظة وهو المنطق القرآنى الذى عرف من كتاب ربنا ومن تطبيقات النبوة ولا أحسنا الاستفادة من سنن الله فى الحضارات والمجتمعات وكانت النتيجة أن الأمة سقطت بقضها وقضيضها فى قبضة استعمار عالمى لا يرحم)[٢].

بل وصل الأمر بالمسلمين إلى الفهم الخاطئ والعكسى للسنن الكونية فمنهم من قانون السببية بشكل خاطئ وقال بأن الله قدر كل شىء وأن الانسان مجبر وليس مخير وقد ساهم هذا الفهم الخاطئ إلى تخلف العالم الإسلامى بشكل كبير.

(للأسف وجد فى الأمة الإسلامية خطأ قديم ولا تزال بعض آثاره باقية إلى اليوم وهو شيوع فلسفة الجبر وهى فلسفة عطلت قانون السببية تعطيلا كاملا لقد عطلته فى السنن الكونية فتخلفنا فى عمارة الأرض وعطلته فى السنن النفسية فسادنا التواكل وانطفاء الفاعلية وهذا من أسباب انهيار الحضارة الإسلامية)[٣].

هذه الأمة كى تنهض لابد لها من العمل والأخذ بالأسباب كما هو شأن كل الأمم وبناء مجتمع إسلامى لا بد أن تسبقه (حركة إسلامية واعية شاملة حركة تمهد له وتدعو إليه وتعد له رجاله)[٤] بالتربية والإعداد والأخذ بقوانين النهضة والحضارة والعلوم التجريبية والعمران وكثيرا ما كان الشيخ الغزالى يردد هذا فى كل ما يكتب أو يخطب (وما يتصور أن أمة من الأمم تحابى أو تستثنى من هذه القوانين وقد طبقت هذه القوانين نفسها على أمتنا خلال الأربعة عشر قرنا من تاريخها)[٥].

(١) كيف نتعامل مع القرآن ص ٤٧.
(٢) كيف نتعامل مع القرآن ص ٥٢.
(٣) كيف نتعامل مع القرآن ص ٥١.
(٤) ركائز الإيمان ص ٢١.
(٥) كيف نتعامل مع القرآن ص ٤٩.

ويقول الغزالى: (نحن ما فهمنا سنن الله الكونية فى الأرض، حسب منطق التجربة والاستقراء والملاحظة، وهو المنطق القرآنى الذى عُرف من كتاب ربنا ومن تطبيقات النبوة، ولا أحسنا الاستفادة من سنن الله فى الحضارات والمجتمعات، وكانت النتيجة أن الأمة سقطت بقضها وقضيضها فى قبضة استعمار عالمى لا يرحم، وهى الآن تحاول الخلاص من شباكه، وترمى بأجنحتها العالقة داخل الشباك دون أن تخرج.. لقد واجهت الأمة الاستعمار مواجهة عسكرية وسياسية، لكن لم تنتبه إلى القضية الأخطر وهى: أن الخلل الفكرى وانهيار عالم الأفكار وعدم التبصر هو الذى يمكن للاستعمار.

إن الأمة لن تخرج من الشباك إلا بقوانين مكتوبة عندها فى الوحى النازل عليها، يجب أن تدرسه، وبالتالى يجب عليها أن تعيد حساباتها عن ماضيها بعد أن تعرضت للاضمحلال والانحلال عندما فرطت فى سنن الله الكونية والاجتماعية، وظنت أن المواجهة العسكرية والسياسية العمياء فقط، كافية فى استئناف النهوض[1].

وعند تفكيك فكر الشيخ الغزالى نجده تحدث بتركيز مستفيض عن العديد من السنن الكونية والقوانين الالهية وضرب لها الأمثال من القرآن الكريم ومن التاريخ ومن الواقع المعاصر بل إنه لا يتحرج أن يضرب المثال بما يحدث للمسلمين فى كل مكان وزمان أزاء تركهم العمل والأخذ بهذه السنن الكونية ومن هذه السنن التى تحدث عنها الشيخ الغزالى:

- سنة المدافعة.
- سنة التداول.
- سنة الأجل.
- سنة قانون السببية.
- سنة التدرج.
- سنة التغيير.
- سنة الله فى الاستبداد.
- سنة التسخير.

(١) كيف نتعامل مع القرآن ص ٥٢.

سادسًا: قانون الأسباب والمسببات

تحدث الغزالى عن هذا القانون كثيرا ليعالج وينتقد رواسب الجبرية فى العقل المسلم والتى نتج عنها الالحاد والضعف وترك العمل أن الأخذ بالأسباب مأمور به فى القرآن الكريم.

(واحتراما لقانون السببية يقول الله تعالى للمسلمين (يا أيها اللذين آمنوا خذو حذركم) أى قاتلوا جماعات وأفراد وفق ما تملى به تعاليم الحرب ونظم القتال[١] وتم تفعيل هذا القانون الالهى على الرسول ﷺ (وغزوة بدر من أفضل ما أبرز قانون السببية)[٢].

يرى الغزالى أنه لا تعارض بين الأخذ بالأسباب وبيت التوكل المأمور به (فالإنسان يمتلك الأسباب ولكنه قد لا يمتلك الأسباب كلها ولو ملكها فهو لا يملك الأسباب المضادة لها من أجل ذلك يجب التوكل على الله والركون إليه والاعتقاد أن النتائج المرتقبة مرهونة بمشيئته تعالى)[٣] (وهذا لا يتعارض مع قانون التوكل)[٤] (فالمسلم يجمع بين التوكل والأخذ بالأسباب)[٥].

يبين الغزالى أن ترك الأسباب خلل فكرى وعلمى ولا علاقة لهذا الفكر الخاطئ بالدين الذى أمرنا بالأخذ بالأسباب، وعندما اختل هذا القانون ساهم هذا الخلل فى انهيار وسقوط الحضارة الإسلامية (والمقرر فى العلوم الكونية والتجريبية والإنسانية وغيرها أن قانون السببية محترم وأن رفضه جنون وكان لذلك أثر محزن فى انهيار حضاراتنا واختلال ثقافتنا)[٦] (العثرات والكبوات التى أصابت أمة النبى إنما جاءت لتفريط المسلمين أو تقصيرهم فى اعتبار تلك السنن والتعامل معها)[٧].

---

(١) خطب الشيخ الغزالى ٢/ ١٦٥.
(٢) فقه السيرة ص ١٦٩.
(٣) سر تأخر العرب والمسلمين ص ٦٧.
(٤) ليس من الإسلام ص ١٧٨.
(٥) سر تأخر العرب والمسلمين ص ٦٨.
(٦) الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر ص ٧١.
(٧) الامام محمد الغزالى داعية النهضة الإسلامية ص ١٤٣

يقول الغزالى فى ثنايا علاجه لهذه الظاهرة السلبية فى العقل المسلم: (إن الاعتذار بالأقدار من الأكاذيب التى ضاعت بين الدهماء والرعاع وهى التى أخرت المسلمين على هذا النحو الشائن الذى نراه الآن أد ما عليك أيها المسلم ولا تقل كتب على أن أسكر أو كتب على أن أطيع هذا كله مكذوب على رب العالمين وعلى الدين المتين الذى شرفنا الله به)[١].

ويقول: (لابد من تخليص العقل الإسلامى من هذا القصور والتخبط بحيث يقبل المسلم على الحياة وهو موقن بأنه مكلف حسب استعدادات حرة وأن له قدرة وإرادة يملكان قدرا من الاستقلال يسأل به عما يفعل وأنه لا جبر ولا إفتيات ولا تمثيل فى قصة هذه الحياة التى نحياها)[٢].

سابعًا: فاعلية الارادة البشرية:

يعالج الغزالى مشكلة من المشكلات الهامة عند (القدرية وجهلاء المتصوفة والكسالى والضعفاء) وهى حرية الانسان وعلاقة ذلك بالقضاء والقدر.

كثر من الناس يترك العمل ويخلد إلى الكسل ويترك الأخذ بالأسباب ويدعى أن كل شىء بقدر وأن الانسان مسير لا مخير.... وهذا خطأ.

يقول الغزالى: (إن الكسالى المتعللين بالأقدار كذبة، إنهم لما آثروا الإخلاد إلى الأرض وشقت عليهم تكاليف التسامى والطاعة دافعوا عن أنفسهم، بالتملص من تبعة كسبهم، وعملهم، وهيهات!)[٣].

يؤصل الغزالى القول بحرية الارادة الانسانية من خلال النظر فى آيات وأوامر القرآن الكريم التى تأمر الانسان بالسعى والكد والعمل والأخذ بالأسباب (إن الإسلام ـ كما عبر عنه القرآن ـ اقتحام عقبة، وتواصٍ بالحق والصبر، فكيف يتجاوب معه إمرؤ يرى أنه لا قدرة له ولا إرادة!، وأن الفقر والغنى حظوظ، والسقوط والنجاح حظوظ، وكذا النار والجنة، والسعى والجهد لا طائلة تحته!!)[٤].

---

(١) حديث الاثنين محمد الغزالى إعداد الاستاذ عبد القادر نور ص ١٨١.
(٢) الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر ص ٧٠.
(٣) علل وأدوية، ص ١٦٤.
(٤) ركائز الإيمان ص ١٦٥ ـ ١٦٧.

وذكر الإمام أنه لو كان متصوفة اليوم راشدين، لجعلوا الاستماتة فى العمل والكفاح، رد فعل من جانبهم لبلاده العوام، كما جعل أجدادهم الزهد رد فعل لترف الحكام وحواشيهم، إن متنا بحاجة إلى جهاد فى الداخل والخارج، إلى جهاد نفسى وإجتماعى، وعسكرى، يستفرغ الطاقات، ويستنفد الأعمار[1].

وبين أن عقيدة الجبر وترك الأسباب، «تطويح بالوحى كله، وتزييف للنشاط الإنسانى، من بدء الخلق إلى قيام الساعة، بل هى تكذيب لله والمرسلين قاطبة»[2].

ويقول: (كل ميل بعقيدة القرآن إلى الجبر فهو تخريب متعمد لدين الله ودنيا الناس)، وذكر أن البعض من الكاتبين يهونون من الإرادة البشرية، ومن أثرها فى حاضر المرء ومستقبله، مدعين أن البشر محكومون بعلم سابق لا فكاك منه، ومسوقون إلى مصير لا دخل لهم فيه، مهما بذلوا من جهد!

هذا الادعاء رد عليه الإمام بآيات كثيرة فى القرآن الكريم تربط الجزاء بالعمل، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤].

وقد وصف الله جزاء الكذبة والمكذبين، وبين عقبى عملهم، فقال: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ٢٧، ٢٨].

وعلقالشيخ الغزالى على الآيات بقوله: (هل هذا الربط المتكرر بين العمل والجزاء؟ وهل هذه النقمة المحسوسة على المجرمين تومئ من قرب أو بعد إلى أن القوم كانوا أهل خير، فلوى زمامهم قدر سابق، أو كتاب ما حق؟! ما أقبح هذا الفهم!)[3].

إن القرآن قاطع فى أن أعمال الكافرين هى التى أردتهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا

(١) ركائز الإيمان ص ١٦٨ .
(٢) السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، ص ١٧٣.
(٣) السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث ص ١٧٦.

﴿لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التحريم: ٧]. وقاطع فى أن أعمال الصالحين هى التى نجت بهم: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وقد تناول الشيخ الغزالى عدة آيات قرآنية، وأحاديث نبوية، يفهم منها البعض ـ خطأ ـ أن الإنسان مجبور على كل أعماله، لا إرادة له ولا حرية، ولا مسئولية عليه، وقد بين الشيخ الغزالى الفهم الصحيح للآيات والأحاديث[١]، وأوضح أن هذه الآيات والأحاديث علاج للقلق والتشاؤم، وليست ذريعة كسل أو خمول[٢] كما يشيع البعض.

ونقل الإمام كلامًا مقنعًا لجلال الدين الرومى فى هذه المسألة، فذكر قوله: «لو كان الجبر حقًا، لما توجه الأمر والنهى إلى الإنسان، وما كلف الإنسان بالشرائع والحكام، فهل سمع إنسان يأمر حجرًا وينهاه؟!..، إن القرآن كله أمر ونهى، ووعد ووعيد، ولم نسمع عاقلاً يأمر الرخام أو ينهى الحديد!»[٣].

وبين الشيخ الغزالى أن دائرة الاستكانة والتسليم تبدأ بما يغلب الإرادة المعتادة، وبما يخرج عن نطاق الاختيار الحر كالمصائب والبلايا والأمراض والحوادث والمولد والموت وغيرها مما ليس للانسان فيه أرادة ولا قدرة.

«إنه لا إحتجاج بقدر، ولا مكان للقول به حيث تستطيع أن تفعل وأن تترك. أما بعد أن تبلغ بإرادتك مداها فدع الأمور لمدبرها الأعلى، ينتهى بها حيث يشاء، دون نزق أو قلق» إن من الخطورة الخلط بين دائرتين متميزتين كل التميز، منفصلتين أتم الانفصال؛ دائرة «ما منه بد»، و«ما ليس منه بد»، ثم التسوية بين المسالك والمشاعر التى تجيش تلقاء كل مهما، والحق أن كلا من الدائرتين لها مجالها وإيحاؤها، فالرجل إذا وقعت به مظلمة يملك ردها، ويقدر على إيقافها، فإن صبره عليها وعدم

(١) السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، ص١٨٣، ١٧٤، ١٧٥ عقيدة المسلم ص ١٦، ١٧.
(٢) جدد حياتك، ص ٧٠.
(٣) دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين ص ٨٧، ٨٨.

دفعها جريمة، ورضاه بها معصية، أما إذا حلت به مظلمة يعجز عن دفعها، أو أصابته كارثة لا يستطيع التخلص منها فما عليه إلا أن يتحمل ويصبر[1].

إن مراقبة الأقدار القاهرة ـ خارج نطاق إرادتنا الحرة ـ وملاحظة صنع الله فيما تفد به من حلو ومر، وخير وشر، يضبط العواطف، ويجنبها الحدة والغلواء.

إن المؤمن بقدر الله يلوذ بالاعتدال فى فرحة وحزنه، وسروره ونفوره، ويسيطر على أعصابه، ويثبت فى وجه العواصف القاسية، ولا تتشتت أفكاره، ولا يسترسل مع أحزانه وكآبته.

ـ إن المرونة فى مقابلة الشدائد بعض آثار الإيمان والرشد، وهذه المرونة دلالة تأدب مع الله، وسكينة فى ملاقاة قدره.

ـ وهذه المرونة فى ملاقاة الواقع البغيض قد تكلف الإنسان الابتسام له وحمل النفس على حسن استقباله، لا لأن الإنسان يود بقاء هذا الواقع، بل تخفيفًا من شدة الضيق به.

إن «الرضا بالقسمة» قد فهمه البعض على غير وجهه الصحيح، فسوغ به الفقر والكسل والخمول، بدل أن يهونوا به كبوات السعى الجاد، وهزائم العاملين المرهقين، ومتاعب المظلومين فى وظائفهم، وهم لا يستطيعون حيلة![2].

هل حالة التخلف فى العالم الإسلامى قضاء وقدر من الله؟

يلاحظ أن الغزالى فى مجمل كتبة يتكلم عن مشكلة التخلف فى العالم الإسلامى ويعدد أسبابها ويضع العلاج لها.

إن المسئول الأول عن حالة التخلف السائدة فى العالم الإسلام هو المسلمون أنفسهم وتحديدا (العقل المسلم).

---

(١) جدد حياتك ص٧٠ ـ ٧٢.

(٢) جدد حياتك ص٧٣ ـ ٧٦.

النص الدينى (القرآن والسنة) لا علاقة لهم بهذا التخلف ولا بسوء فهم هذا العقل عن الله وعن الرسول ﷺ.

بيد أن هناك قضايا فى العقيدة والفكر الإسلامى يبرر بها البعض حالة التخلف والضعف والهزيمة فى العالم الإسلامى

يقوم الشيخ محمد الغزالى بإعادة طرح هذه القضايا الفكرية ويشرحها من جديد ويصحح مفاهيمها فنجد الشيخ الغزالى يتحدث عن:

- مسألة الجبر والاختيار.
- مسألة القضاء والقدر.
- مسألة العقل والتفكير.
- مسألة التوكل.
- مسألة الزهد.
- مسألة الفقر والغنى.
- مسألة الأسباب والمسببات.
- مسألة الانسان مخير أم مسير.

وغيرها من القضايا ذات الإشكاليات والتى يتحجج بها الضعفاء والعاجزون فى العالم الإسلامى ويبررون حالة التخلف الحضارى بأنها قدر الله الذى كتب على الأمة من قديم الأزل فى اللوح المحفوظ

يقول الغزالى: (تحولت عقيدة القضاء والقدر إلى عقيدة غريبة مسخت الكتاب والسنة وأصبح الناس ينظرون إلى أنفسهم على أنهم ريش فى مهب الريح أو جيف مرمية فى البحر تتقاذفها الأمواج كيف تشاء)[1].

(١) كيف نتعامل مع القرآن ص ٥١.

علاج قضية التخلف من خلال سنة التدافع

يقرير الشيخ سنة التدافع التى إن أحسن المسلم التعامل معها يمكن أن يحقق المكاسب بالرغم من التفرق والتبعثر[١] وهذا يدعونا إلى ضرورة امتلاك القوة والأخذ بشروط النهضة وخاصة المادية منها.

(أول أسباب الغنى وأول مفاتيح القوة وأول عناصر الغلب أن يضع الناس أيديهم على ما هيأته الأقدار لهم من أرزاق وبركات مبثوثة بين أيديهم ومن خلفهم)[٢].

والتدافع فى الإسلام ليس بمعنى الصراع الحضارى الذى يقتضى انهيار الآخر كما هو الشأن فى الرؤية الغربية ولكن التدافع فى الإسلام يعنى التواصل والسيطرة والأخذ بأسباب القوة والاستفادة من غير المسلمين ومن هنا (يجب أن نرقب أعدائنا لنستفيد منهم)[٣] خاصة إذا كان هذا (يسهم فى علاج التخلف والضعف الذى يعانيه المسلمون)[٤].

إن الأخذ بقانون التدافع طريق انتصار الأمة التى يجب أن تدافع الأمم فى امتلاك الأرض والأخذ بمقدراتها لتحقق الاستخلاف كما فعلت كل الأمم (ويوم أن نأخذ بسنة التدافع سننتصر كما انتصر اليهود ولن يقر لهم قرار)[٥].

فاليهود ما انتصروا علينا إلا بعد أن أخذوا بسنن الكون وقوانين الأسباب (ولأن أقدام اليهود الراسخة فى العلم والمال والفن والإعلام أخرست الأعداء)[٦].

ثامنًا: بناء العقلانية المؤمنة والفصل بين مناهج العلوم ومصادر المعرفة:

القرآن الكريم مليء بآيات العقل والعقلانية وإعمال العقل والفكر والتفكر والنظر والاستنباط فالعقل هو منبع الحضارة والنهضة فى الإسلام (هذا الكتاب يعرف الناس

(١) كيف نتعامل مع القرآن ص ١٢٧.
(٢) هذا ديننا ص ٦٧.
(٣) من معالم الحق فى كفاحنا الإسلامى ص ٢٧٥.
(٤) لقاءات وحوارات حول واقع الحركة الإسلامية المعاصرة ص ١١١.
(٥) من معالم الحق ص ٤٢.
(٦) قصة حياة ـ مذكرات الشيخ الغزالى ص ١١٠.

بربهم على أساس إثارة العقل وتعميق النظر ثم يحول المعرفة إلى مهابة لله ويقظة للضمير ووجل من التقصير واستعداد للحساب)[١].

مصادر المعرفة

مصادر المعرفة عند الشيخ الغزالى بناء على تحديد رؤيته لطبيعة المعارف والعلوم إبتداء؛ إذ يصنفها إلى صنفين رئيسين:

الأول: العلوم الشرعية، ومصدرها الوحى

الثانى: العلوم المادية، ومصدرها العقل والتجربة

ومن هذا المنطلق يقسم الشيخ الغزالى العلوم والمعارف إلى شرعية ومادية ولكل نوع من هذه العلوم مصدر وموضوع وغاية ومن الخطأ الخلط بينهما علما بان بينهما بعض الخيوط التى تربط بينهما[٢].

يقول الغزالى: للمعارف المحترمة مصادر معينة، لا يعول على ما وراءها، فإذا كان مصدرها إنسانا فيجب أن تنبع من ثنايا المنطق التجريبى أو الرياضى، كما هو حاصل الآن فى علوم الكون والحياة، وفيما يتصل بأصول المادة وشؤون الناس.

أما إذا كانت هذه المعارف متصلة بما وراء المادة ـ أى بما يقصر المنطق التجريبى والرياضى عن مناله ـ فإن الوحى الصادق هو سبيلها الفذة، ولا يقبل غيره فيها»[٣].

ويقول: «فمصادر العلم الإنسانى ينبغى أن تكشف بجلاء؛ حتى لا نخلط بين بعضها؛ إن شؤون الدنيا وعلوم الحياة مصدرها العقل والسمع، والبصر، أما علوم الشريعة وحقائق الأمور الالهية والأخروية فمصدرها الأول والآخر هو الوحى الأعلى[٤].

(١) المحاور الخمسة ص ١٩.

(٢) يراجع فى مثل هذا الموضوع كتاب: الإسلام ومنهج العلم التجريبى للدكتور فاروق محمد أحمد الدسوقى.

(٣) عقيدة المسلم ص ١٨٢.

(٤) الإسلام والطاقات المعطلة، ص ٧٦.

يقول الغزالى: إن تحصيل المعرفة يحتاج إلى جهد منظم، وعمل دائب، وسعى لاغب، سعى تشترك فيه حواس الانسان الظاهرة والباطنة، وخصائصه المادية والأدبية، قال جل شانه: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل: ٧٨) فنحن نولد لا نعلم شيئا، وبتلك الوسائل وحدها من سمع، وبصر، وفكر، تبدأ مراحل التعليم)[١].

يؤكد الشيخ محمد الغزالى على مكانة العقل ودوره فى فهم الشريعة واستنباط الاحكام من النصوص الشرعية فيقول: «أما العقل السليم: فهو الأداة الوحيدة لفهم الوحى والكون على سواء، ومن ثم فما دمت مستقيما مع عقلى، فأنا متشبث بدينى، سائر على الفطرة بعيد عن الانحراف»[٢].

ويقول: «الإسلام هو الوحى النازل على محمد ﷺ ليوجه به الحياة إلى ربها، ويهدى الناس كافة إلى الصراط المستقيم، أى أنه حقائق مقررة أولا ثم أساليب متجددة فى البلاغ والعرض، والحماية والدفاع[٣].

وعند الحديث فى العلوم الشرعية ومصادرها وعلاقة العقل بها يفرق الغزالى بين أمرين فى غاية الأهمية:

الأمر الأول: النص وهو الوحى النازل من السماء وهو معصوم لا خطأ فيه ولا يصح نقده وعلى العقل أن يتعامل معه ويجتهد فيه ويستنبط منه

الأمر الثانى: التراث أو الفكر وهو نتاج العقل فى تعاملاته مع النصوص على مدى الزمن وهذا التراث أو الفكر يقبل الصواب أو الخطأ ويجوز الأخذ منه أو عدم الأخذ حسب ما يتناسب مع العصر فهو فى النهاية فكر بشرى يقبل الصواب والخطأ.

يقول فى ذلك الغزالى: «الإسلام دين معصوم كما قال منزله: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ (الإسراء: ١٠٥)، والسنة فى جملتها معصومة فيها الخير كله، وفيها السند الذى تحتاجه الانسانية لتسير فيه ومعنى أن الكتاب معصوم وأن السنة معصومة، أن أى

(١) هذا ديننا، ص ٣٧ ـ ٣٨.
(٢) تراثنا الفكرى فى ميزان الشرع والعقل ص ٢٩.
(٣) مائة سؤال عن الإسلام ص ٤٣٥.

مخالفة للكتاب أو جحد لما فيه خروج عن الإسلام ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (الأحزاب: ٣٦).

إذا قال الله فلا كلام لأحد، ومتى ثبت للرسول كلام خضعنا له، هذا هو الإسلام. أما الفكر الإسلامى وهو عمل العقل فى فهم النص، عمل العقل الإنسانى فى فهم النص الدينى كتابا كان أو سنة، فهذا العمل أو هذا الفكر ليس بمعصوم، فقد يخطئ الانسان عندما يفكر، وقد يجتهد ويحيد عنه الصواب[١].

وعلى هذا فالغزالى يرى الاستفادة من التراث والأخذ منه بما يتناسب مع العصر وعدم القطيعة معه كما يرى بعض الحداثيين والعلمانيين (والثقافة الإسلامية القديمة؛ أعنى بها نتاج علمائنا من السلف الذين طوفوا بين مختلف المعارف الدينية وغير الدينية وتركوا لنا تراثا هو مفخرة الثقافات كلها. أما الثقافة الإسلامية الحديثة فاجتهادات علماء الإسلام المعاصرين ممن استفادوا بشكل طيب من مختلف التجارب التى خاضها المسلمون فى الماضى، ومن تاريخ العلوم الدينية والعلوم الانسانية، وهذا كله من الضرورات بالنسبة لدعاة هذا العصر؛ حتى يواجهوا بعلوم تحدياته وقضاياه التى تجد به)[٢].

مقام العقل وحدودة

يتأسف الغزالى على ضعف الاجتهاد وإعمال العقل فى العصر الراهن ويرى ضرورة إعمال العقل والتفاعل مع النصوص والعلوم واستنباط الاحكام المناسبة وفق المصالح والمقاصد (ذلك أن العقل الإسلامى الذى كان يألف الحرية ويأنف من التبعية والذى كان يحسن البحث والموازنة والاستنباط والرؤية عن بعد هذا العقل انطفأ وهجه وذهبت حدته ويكاد لا يرى)[٣].

والعقل له حدود ومجالات يبحث فيها ويتبحر ويخرج بنتائج لكن هناك مسائل

(١) من مقالات الشيخ الغزالى ٣/ ١٩٩.
(٢) من مقالات الشيخ الغزالى ٢/ ٢٢.
(٣) الغزو الثقافى ص ٣٤.

ليس للعقل فيها تدخل ولا تبحر ولن يصل إلى شىء بل قد يزيغ العقل ويضل إذا تدخل فيها (إن الإسلام يقوم على العقل ولم يؤثر عن دين ما أنه كرم العقل مثل ما كرمه الإسلام. لكن ليس من العقل إقحام العقل فى بحوث لا قبل له بها، ولا طاقة له عليها. إن العقل قد يملك البحث فى كومة تراب أو قطعة سحاب، ولكن أنى للمرء بحث روحه التى بين جنبيه؟ فإن كان عن ذلك عاجزا فهو عن البحث فى الذات العظمى أعجز)[1].

العقلانية فى التعامل الفقهى

يعترض الغزالى على كثرة الاختلافات والآراء الفقهية التى لا داعى لها ويرى أنها إهدار للوقت والطاقات، ويضرب المثال بالصحابة رضى الله عنهم اللذين لم يكثروا من الاختلافات والآراء الفقهية ولم يشغلوا أنفسهم بها ويضرب المثل بحادثة صلاة العصر فى بنى قريظة ويذك الغزالى أنه لم يعترض أحد من الصحابة على أحد ممن خالفه فى الفهم والرأى.

يقول: (إننا محتاجون إلى فقهاء يستطيعون النظر فى سياسة المال والحكم، ويرفضون أن يسبقهم الإلحاد إلى اجتذاب الشعوب الفقيرة فى هذه الميادين الخطيرة، ومحتاجون إلى فقهاء يقومون على شئون التربية والإعلام برحابة الإسلام وبشاشته لا بالتزمت والتكلف. إن الفقه الإسلامى كما قدمه سلفنا حضارة معجزة، أما الفقه الإسلامى كما يقدمه البعض الآن فهو يميت ولا يحيى)[2].

ويرى أن المهمة الحقيقية لتجديد الفقه الإسلامى لن تكون إلا من خلال إعمال طاقات العقل، وتحريره من براثن الماضى، والعادات والتقاليد والآراء التى كانت تتناسب مع العصور والمجتمعات القديمة.

ففى كتابه «السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث» ردَّ الشيخ بعض الأحاديث الثابتة فى الصحاح إذا ناقضت منطق العقل، أو منطق العلم، أو منطق الدين نفسه حيثما يراه،

(١) دفاع عن العقيدة والشريعة ص ١٠٢.
(٢) دستور الوحدة الثقافية ص ٨٦.

وهو يرى أن المسلمين لم يؤذوا من الأحاديث الموضوعة قدر ما أوذوا من الأحاديث التى أسيئ فهمها واضطربت أوضاعها، حنى جاء أخيرا من ينظر إلى السنن جمعاء نظرة ريبة واتهام وتمنى لو تخلص المسلمون منها[١].

تاسعًا: الاهتمام بالعلوم التجريبية والعمران:

يهتم الغزالى بالعلوم التجريبية والدنيوية ويحارب المفاهيم الخاطئة عن الزهد ويدعوا العالم الإسلامى إلى الأخذ بالعمران والاسباب الحضارية المادية والتقدم فى الصناعة والزراعة والتكنولوجيا والطب والهندسة وسائر المجالات ويرى أن هذا فريضة مث الحج والصلاة والصيام وغيرها من الفرائض الإسلامية (إن بناء المصانع يعدل بناء المساجد فحراسة الحق كتعليمه)[٢].

إن الأخذ بالعلوم التجريبية والكونية جعل العالم الغربى يتقدم ويتمكن من الأرض فالاستخلاف فى الأرض لا يكفى فيه مجرد التقوى أو الاستقامة أو تحقيق الايمان فى القلب أو السلوك بدون الأخذ بالأسباب المادية والعلمية (إن الأوربيون أثاروا الأرض وعمروها أكثر مما أثرناها نحن وعمرناها وقدروا على استخراج معادنها الجامدة والسائلة على حين عجزنا نحن كل العجز أفلا يزين لهم هذا السبق أنهم أولى بالأرض منا وأن مبادئهم أحق بالبقاء من مبادئنا وأن أرباح هذا السبق حل لهم وحرام علينا فإذا حدث بعد زمان طويل أو قصير أن تلاشى ذلك التفوق العلمى بقى أمر آخر ذو بال: أين تفوقنا الإدارى فى ميدان الحكم والمال)[٣].

والاسلام ليس عائق أمام التقدم والتمكين فى الأرض بل أن آيات القرآن مليئة بالدعوة إلى الحرث فى الأرض والتطلع والتأمل فى الكون والأخذ بالأسباب وإعداد القوة المادية والمعنوية والاسلام هو الذى وضع وأسس مناهج العلوم المتعددة ونقل العرب من رعاة أغنام فى الصحراء إلى قوم لهم غاية وفكر ومناهج علم ورسالة فى الكون.

(١) السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث، ص ٧٣.
(٢) دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين ص ١٥٦.
(٣) الغزو الثقافى يمتد فى فراغنا ص ١٤٣.

(إن الدراسات الكونية والطبيعية نقلت العالم من عصر البارود إلى عصر الفضاء والمسلمون صرعى ثقافات مسمومة وسياسات قوامها الجبروت لا تهب حق الكلام والحياة إلا لمن يحرق بين يديها البخور لقد كنا فى العلوم المنقولة والمعقولة أصفار وكان تاريخنا الطويل صحراء لا معالم لها ولو كنا على مستوى الإسلام لكان لنا باع طويل فى كل فن ولزاحمنا بالمناكب فى كل الكشوف المادية والأدبية والعلمية التى هديت إلى الفطرة الغريب أن ناسا من جلدتنا يريدون استبقاء قيود التخلف)[١].

بل أن الشيخ الغزالى يرى أن الأمة آثمة وستحاسب على هذا التخلف الذى هو ذنب وإثم من الآثام و(جريمة دينية لا تقل نكرا عن جرائم الربا والزنا والفرار يوم الزحف وأكل مال اليتيم وغير ذلك من الكبائر التى ألفنا الترهيب منها)[٢].

وعلى الأمة التوبة من هذا التخلف العلمى ووجوب النهضة الشاملة فى شتى أنواع العلوم الدينية والتجريبية وإذا أخذت الأمة بجانب وتركت الآخر فلن تنهض (لا يستعيد أمجادة الأولى إلا إذا استعادة أمته فقهها فى علوم الأرض كما تستعيد فقهها فى علوم السماء وإلا إذا جودت علوم العمران كما تجود علوم التفسير والحديث إن هذه المعارف الضرورية لبناء الأمم وإقامة الحضارات فرائض مؤكدة أسبق فى حياة المسلم من نوافل الأذكار فإن الله لا يقبل نافلة حتى تؤدى فريضة)[٣].

وهذا الأمر شرط وليس مجرد نافلة قول (الجهاد المكتوب على المؤمنين لحماية الدين لا يمكن أن يتم ولا أن ينجح بعيدا عن التفوق المدنى والحضارى)[٤].

والغاية من العمران والنهوض الشامل فى شتى المجالات ليست مجرد التمكين فى الأرض أو الغلبة على الآخر أو الاستمتاع بالحياة بل الغاية من كل هذا هى نصرة العقيدة الإسلامية وتبليغ مبادئها إلى الناس فهذه هى الغاية الكبرى من الحياة عند الشيخ محمد الغزالى الذى يقول: (إن تعمير الأرض يحتاج إلى ملكات نضيرة وذكاء حاد ونشاط دؤوب وعلوم تستكشف القوى والأسرار المخبوءة وأيد مقتدرة تثير

(١) علل وأدوية ص ٦٠.
(٢) علل وأدوية ص ٢٠.
(٣) معركة المصحف فى العالم الإسلامى ص ١٣٦.
(٤) سر تخلف المسلمين والعرب ص ١١٣.

الأرض وتحسن ارتفاقها لمصالحها الخاصة كما تحسن تطويعها لنصرة عقائدها ومبادئها)[1].

عاشرًا: مفهوم ومضامين الحضارة عند الغزالى:

ذكر مصطلح (الحضارة) فى كتب الغزالى مرات كثيرة فى سياقات مختلفة ومتعددة تدل على أن للشيخ الغزالى (فهم وبناء) خاص لهذا المصطلح ينبع هذا الفهم من القرآن الكريم والسنة النبوية ومقاصد وأخلاق الإسلام ولا يتأثر بالمفهوم الغربى المادى لمصطلح (الحضارة).

يهتم الغزالى بالحضارة بشكل عام وبالحضارة الانسانية بشكل خاص وبالحضارة الإسلامية بشكل أخص ويستقى مفاهيمه للحضارة من القرآن الكريم ومقاصده.

ويقارن الغزالى فى كتبة بين الحضارة فى العصور الوسطى والعصر الحديث وبين الحضارة الإسلامية وغيرها من الحضارات ويبين فضل الحضارة الإسلامية على الغرب[2] ويؤكد على ارتباط الحضارة الإسلامية بالقرآن ولولا الإسلام ما كان لنا ذكر[3].

وينتقد الإغراق المادى فى الحضارة الغربية وأخذها الطرق المعوجة ـ على سبيل المثال ـ فى الاستمتاع بالنساء فيقول: (وفى الحضارة الحديثة نلحظ أن الاستمتاع بالنساء أخذ طرقا معوجه كثيرة ويستحيل وصف هذه الحضارة بأنها عفيفة أو مقتصدة فى ملذاتها)[4].

الاهتمام بالروح

يبين الشيخ الغزالى أن الحضارة الإسلامية حضارة تهتم بالروح وأعمال القلوب[5]

(١) المحاور الخمسة ص ١٥٩.
(٢) الإسلام والطاقات المعطلة ص ١٣٤ الإسلام والاستبداد السياسى ص ٢١٤.
(٣) الحق المر ٣/ ١٧٨.
(٤) صيحة تحذير إلى دعاة التنصير ص ٣٣.
(٥) كنوز من السنة ص ٦٠.

بخلاف الحضارة الغربية (المادية تهدف إلى تحطيم المعانى والمثاليات وإلى تجريد المعانى من كل قيمة عدا قيمتها التى تقدر بالمال)[١].

والناظر فى سياقات مصطلح الحضارة فى كتب ومؤلفات الشيخ الغزالى يجد أنه ورد فى سياقات تحدد أبعاد ومفاهيم هذا المصطلح عند الغزالى ولصناعة أمة متحضرة فى العالم الإسلامى يجب علينا من خلال سياقات هذا المصطلح عند الغزالى:

- الاهتمام بالجانب الروحى[٢].
- محاربة الاستبداد وترسيخ الشورى[٣].
- عمارة الأرض[٤].
- الأخذ بالعلم التجريبى[٥].
- صياغة علوم إنسانية وتربوية إسلامية نابعة من القرآن والسنة النبوية[٦].
- الأخذ بالقضايا الكبرى وفقه الأولويات (فالذى يثير أعصابة وضع اليد اليمنى على اليسرى على الصدر ولا يثيره قتل المسلمين فى العالم فهو مسخ)[٧].
- الاهتمام بتعليم المرأة[٨].

وفى الختام

هذا مدخل عام ومختصر عن الشيخ محمد لهذه المقالات، وسوف يكون لنا كتاب مفصل بعنوان (الفكر النهضوى عند الشيخ محمد الغزالى) نتحدث فيه عن قواعد ومكونات وأهداف النهوض الحضارى عند الشيخ محمد الغزالى.

---

(١) كفاح دين ص ١٢٧.
(٢) كنوز من السنة ص ٦٠ كفاح دين ص ١٢٧.
(٣) من مقالات الشيخ الغزالى ١/ ٦٧ الإسلام والاستبداد ص ٨.
(٤) الغزو الثقافى ص ١٤٢ دستور الوحدة الثقافية ص ١٥٦.
(٥) الحق المر ص ٤/ ٦٠.
(٦) الطريق من هنا ص ٢٢.
(٧) الفساد السياسى ص ٣٧.
(٨) الطريق من هنا ص ١٢٩ من مقالات الشيخ الغزالى ٢/ ١٥٨.

من وحى السماء

روائع جديدة من مقالات ومحاضرات الشيخ محمد الغزالى

١ ـ فى محيط الدعوات [١]

تحليل ومقارنة

(العقل الباطن ـ حقيقة التدين الزائف ـ الصابئة قديمًا وحديثًا).

مجلة المنار العدد رقم (٧) (١) أبريل ١٩٤٠

فى نفوس البشر ركام كثيف من الغرائز المُرسلة، والنزعات المشبوبة، والشهوات الجامحة، تأتلف جميعًا؛ لتصوغ العمل الإنسانى فيما تشاء له من قوالب، ولتلونه بما تحب له من صبغة.

وليست النفس حين تتحرك لإدراك غاية قصدت إلى تحقيقها باذلة جهدًا يكلفها العنت، أو يشعرها ألم السعى ما دامت حرارة الرغبة تمدها بالوقود فتدفعها، وطلاب اللذة يحدوها مزخرفًا لهذا الغرض البعيد حتى تظفر به وتطمئن إلى مناله.

ذلك هدى العقل الباطن وحده ـ كما اصطلح علماء النفس ـ حين لا جديد فى فطرة الانسان العتيدة على ما ذرأها الله، و قبل ما تدركها قيود الدين فتكبح من جماحها، وتعاليمه فتهذب من ميولها، وأنظمته فتمحق من فوضاها، وتكفكف تأبيها على الخير.. ثم تسير بها فى وجهة أخرى، أو ذلك عمل الإنسان لذاته وتفانيه فى عبادة هواه، ونسيانه المطلق لله الكريم، وانبعاثه فى الدنيا كائنًا طياشًا أحمق صفرًا من كل غاية، يمجده الانتهاء إليها، والاكتمال فى جوارها، ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

هذا النفاذ البالغ إلى كل شىء والذى تضمحل أمامه الحواجز وتذوب الأسيجة.

وهذا الاندفاع العنيف الدائب الذى يتعجل النهاية ويتجشم إدراكها هو مرد السلوك كله عند كثير من علماء النفس، حتى قال (فرويد) ـ مكتشف العقل الباطن: «إن العقل المفكر لا يقوم إلا بخدمة اللاشعور، ولا يمكن أن يستجيب لغير ندائه، ولا أن يستمع لغير أوامره». قد يكون هذا القول صحيحًا على إطلاقه فى كل نفس لم يزكها الإسلام، ولم تسم بها رسالة محمد: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾؟

ولكنه قلما يصدق على النفس المسلمة التى يحرق إيمانها خبث العقل الباطن، حتى إذا أتى عليه استقام مع طبيعة النفس فى مظهر دينى بحت، ألم يكن عمر بن الخطاب رضى الله عنه غضوبًا فى جاهليته ثم فى إسلامه، ولكن شتان ما بين غضب تستخفه الحمية الطائشة لأوهى الأسباب وبين غضب غال يثور لحق الله وإعلاء دينه، وليلعن الكفر، ويستذل أهله، والواقع أن جوهر النفس الأصيل يبقى كمًّا و يبقى كذلك كيفًا إن لم نحسب تغير البواعث وتغير الأهداف، وهو ما يتناوله الدين من أساسه، وتجهد الرسالات كلها فى تحقيقه.

وقبل أن نقرر نصيب النفس المسلمة من هذا التغيير المنشود نقف لحظة؛ لنلمح خلالها النفس اليهودية والنفس المسيحية، ولنرى مقدار تأثر النفسين فى حياتيهما بالدين.

لأمر ما كانت (النفس اليهودية) مرتعًا للدعوات المشينة والدسائس الساقطة، وكانت حياتهم بين الأمم التى رماها القدر بهم تشبه حياة الطفيليات التى تعيش على حساب الجسم لتسرق منه غذاءه، وتمنع عنه نماءه، ويبدو أن نقمه الله التى حاقت بشعوب إسرائيل حرمتهم للأبد عناصر الحياة الإنسانية العالية، رغم ما تزعمه هذه النفوس و تدعيه من علائق وثيقة بالله.

ذكرت إحدى الصحف اليومية منذ شهور نبأ مظاهرة قام بها العمال اليهود فى القدس، كانوا يهتفون فى أثنائها طالبين الخبز، ويهددون إن لم تُجب مطالبهم بترك اليهودية.. قد يدعو إلى العجب أن يهون دين على أتباعه حتى يبيعونه برغيف، ولكن الأمر لا يستدعى دهشة، فاليهودى لا يحس بأنه منقاد لعقيدة مقدسة لها حرمتها ولها جلالها، وليس ثمة إلا لقب يُورث، يحمله و هو على أهبة تركه إن عارض شيئًا من

متاع الدنيا الذى يجتذبه كل حين، وإذا كان الدين قد هزمه انفعال الجوع هنا، فقد انهزم من قبل أمام سورة الحقد المضطرم فى نفوس آبائهم لما سألهم الأميون من العرب عن دين محمد؛ فزعم الأحبار المؤمنون أن الوثنية خير منه؛ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾، ولما جحدوا الرسالة الكريمة وقد استيقنتها أنفسهم ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾.

كيف يستقيم سلطان الدين على نفوس مَن يعتنقونه إذا كانت هذه النفوس صريعة لكل نزوات الهوى وأعراض الحياة و مفاتن الرياسات الفارغة، وأى شىء مما يطلبه العقل الباطن قد منع عنه، بل اقتصد فى إجابته. وأين مكان التغير الذى يفرضه الدين حتمًا على دوافع العمل وغاياته؛ ليكون عملا دينيًّا؟ لا شىء قط.

ولنهبط إلى أغوار النفس المسيحية لنسبرها. إننى فى شبرا أشهد كثيرًا من حفلات الصلاة أيام الآحاد، وكيف يثير القسيس انفعال المصلين بالترنيمات الحزينة والأنشدة الحنون على حين ينعكس اللهب الخافت المسترسل من مئات الشموع على صدور التماثيل الخرساء الجامدة، وتردد جدران الكنيس أصداء جرسه الثائر الذى يطغى أحيانًا على هينمة الشمامسة، وترجيع الجمهور المسحور.. هذا النوع من السيطرة على النفس غير جديد، ولم تزل الغابات منذ آلاف السنين تدوى بطبول الكهنة وتعاويذ السحرة ممن يمثلون الديرة بين الزنوج الأغبياء، ولا تزال معابد الهنود حافلة بهذه المظاهر الأخاذة التى نقلها المسيحيون بأمانة بالغة إلى مذابحهم ومحاريبهم، ولكن ما جدوى هذا كله، ومتى كان الدين جوقة موسيقى وبضعة ألحان يندس بينها قليل أو كثير من التعاليم والوصايا التافهة؟

لذلك كانت النفس المسيحية فى ساعات الكنائس غيرها فى مواجهة شئون الحياة عندما تبرز فى حقيقتها المجردة وطبيعتها الأصيلة، وقد طاش سحر النواقيس والشموع، وارتدت إنسانًا ضعيفا تستبد به نوازعه القاسية. وهل يظن أن المرأة المسيحية جاهدت عواطفها كثيرًا عندما عرضت فى مباريات الجمال، وكانت تود ألا تعرض! أو أن الرجل المسيحى جاهد شهواته كثيرًا قبل أن يحتضن امرأة غيره فى صالات الرقص وكان يود أن يبتعد.

إنما تحيا النفس المسيحية فى جو طليق مما تريده من حرية تستبيح كل شىء لا ظل فيها لرهبة ولا سلطان، ولبست شهادة (كارل ماركس) للإسلام إلا صربًا من التفكير الحر ولا تخرصات (فولتير) إلا مثلاً للتقليد الأحمق، ولا كلمات (جبران) عن نبى العرب إلا فنًّا من الخيال السمح ولا عدد (الشرق والإسلام) الذى أصدرته إدارة الهلال إلا مظهرًا للثقافة التى يتاجر بها الأدباء، وهؤلاء المسيحيون أبعد ما يكونون عن التقيد بغير حاجات نفوسهم ورغائبها المادية والمعنوية، وقد رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، وغفلوا عما بعد ذلك من حقائق لو أنهم التفتوا إلى شىء منها لأثار فى نفوسهم على الأقل ميلاً إلى التطلع والاكتشاف.

فماذا يقول الإنسان ـ مثلاً ـ فى بابا روما الذى زعموا أنه يعرف تقريبًا سبع لغات ليس بينها العربية! ما هذا النكوص عن البحث وراء الحقيقة؟! وأى معنى تردد فى نفس الرجل فقعد به عن تعلم دين كان له مع دينه تاريخ رائع، وهو الذى لم يكسل عن تعلم أدنى اللغات؟! ولكن لله سرًّا فى تكوين بعض النفوس.

لعل فيما سبق ما يفسر حكم القرآن الصارم على أهل الكتاب؛ حيث لم يعترف بهذه المراسيم التى تنسب النفس إلى الإيمان، وهى منه خواء فتحت أردية الكهنوت الفضفاضة وما تشعر به من زهد وعزوف تتوارى نفوس خطرة: ﴿مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ولما كان لزامًا على المسلمين أن لا يتركوا دين الله يلتبس بأهواء الناس حتى لا يختلط كذب الأرض بوحى السماء، وفى هذا ما لا يخفى من الإساءة إلى الدعوة الحقة، وما يوقف انتشارها أمر المسلمين بإعلان الحرب عليها، حتى يكشفوا زيفها: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾، وكذلك طرحت الفوارق الشكلية التى تميز الكتابيين عن الوثنيين، وأطلق اسم الكفر الصريح عليهم؛ ليشمل الجميع على السواء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾.

على أنها قلة من الناس تلك التى لا تزال تخلص للكنائس المسيحية على

تفاوت مذاهبها، وليس بين مئات الملايين من سكان أوربا وأمريكا إلا عدد يسير من المسيحيين الأقحاح يتعارفون على دينهم، كما يتعارف اللصوص على كلمة السر، أما الكثرة العظمى منهم فقد ثارت على هذا (النفاق الدينى)، وآثرت أن تبقى بعيدة عنه، ولم تر أى حرج فى أن تعيش مجاهرة بإلحادها معلنة حقيقة طواياها، والحياة التى تجاهر بعداوتها للأديان ـ صحيحها وزائفها ـ ليست وليدة هذا العصر، بل هى متغلغلة فى القدم: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾، ولكنا لا نظن هذا النوع السافل من الحياة صادف الشيوع الذى وجده فى القارتين المسيحيتين.

وجدير بنا أن نطلق اسم (الصابئة) على هؤلاء الذين ارتضوا الحياة الدنيا فحسب ـ أقصى نهايات آلامهم وآمالهم، ونظموا شئونهم وصلاتهم ومشروعاتهم على ذلك الأساس. وفى الوضع اللغوى والاستعمال العرفى ما يبرر هذا الإطلاق.. ولقد شهدت أوربا معركة عنيفة بين المسيحيين والصابئة منذ قرون تحت ستار النزاع بين العلم والدين، وانتهت المعركة بهزيمة ساحقة للمسيحية كانت بدء تقوض النظام الكنسى وانهيار سلطانه.

ومن يومئذ لبس الصابئون ثياب العلماء، وتقدموا فى ميادين العلوم الطبيعية تقدمًا مشهودًا، وقبع القساوسة فى الأديار لا يستطيعون مطلقًا المساهمة فى الحياة العامة بنصيب طائل، ذلك أن العالم أنكر عليهم أكثر من عيشة الانزواء والوحدة والاعتزال، ولا ريب أن الصابئة هم رسل الحضارة الحديثة ومناصروها وقادة العالم بها إلى سوء المصير.. تلك الحضارة الغربية التى لم يعرف الدنيا شرًّا منها، فلقد كان خيرًا للناس أن يعيشوا فى أكواخ تضاء بمشاعل الزيت، وهم أطهار أبرار من أن تفرقهم أضواء الكهرباء بين المسارح الضخمة والمراقص الفخمة.

ولكان خيرًا للناس أن يسيروا على الأرض وهم أشراف من أن يطيروا فى الهواء وهم لصوص، ولكان خيرًا للناس أن تستغرق أسفارهم الشهور الطويلة يقطعون مراحلها على أرجلهم أو على دوابهم وهم قانعون راضون من أن يستخدموا هذه السيارات وغيرها من وسائل النقل وهم على اتصالهم الميسور تقطعهم المطامع، وتباعد بينهم شرَّ بُعد.

تلك لمحة عن حال الصابئة، وهم ـ كما ينبغى أن نعتقد ـ أخطر أعداء الإسلام وأشدهم شكيمة، وليس بنافع فى تطهير الأرض منهم إلا جهاد تتمثل فيه عظمة الثورة الإسلامية الأولى وبطولتها وجراءتها، وإذا كانت النفوس غير المسلمة ـ كما وصفنا ـ مهما تقطع أمرها شيعًا، ومهما تفرقت سُبُلها شرودًا، لا تزال آصرة تربط بين شيعها وسمة تجمع بين طرائقها، هى آصرة الضلال المشترك وسمة البطلان البعيد، أو هي ـ كما قدمنا أول البحث ـ هذا الركام الكثيف من الغرائز المرسلة والنزعات المشبوبة والشهوات الجامحة، فإن فى هذا خير تفسير للاضطراب الاجتماعى والسياسى الذى نشهد انقلاباته فى أوربا دائمًا، والثورات البيضاء والسوداء والحمراء التى تهز كيانها حينًا بعد حين.

* * *

٢ ـ فى محيط الدعوات [٢]

(الكمال المزعوم ـ المذاهب العلمية السائدة ـ تقليد أعمى)

مجلة المنار العدد رقم (٨) (١) مايو ١٩٤٠

ولأمر ما وقف تقدم الإسلام، وانحسر النور الإلهى الكريم بين أقوام لا يقدرونه، ونام المسلمون فى النور، واستيقظ غيرهم فى الظلام، ولم يكن بد لغير المسلمين من التفكير فى قواعد تصح عليها أمورهم بعد أن اتضح قصور الأديان الباطلة وعدم غنائها فى هذه الشئون، وبعد أن عجزت أيدى المسلمين عن التلويح بالضياء الهادي؛ ليسترشد على شعاعه المدلجون الشاردون، وابتدأ التفكير الإنسانى يخبط فى تفهم الحقائق العليا ومدارج ارتقاء النفس، فخلق المجال خلقًا للفلسفة العملية. وصحيح أنه إلى غير مواطن النبوات الأولى ينحدر تاريخ الفلسفة وينبت جذع الشجرة التى تطل الآن علينا فروعها.

وحقًّا إنه ـ إلى غير مواطن النبوات الأولى ـ يمتد جذر الشجرة الفارعة؛ شجرة الفلسفة الحرة التى تظلل فروعها اليوم أكثر بقاع العالم، وسواء أكانت هذه الأغصان لعوسجة غليظة مؤذية أم لدوحة مورقة فينانة، فإن ما ينبغى أن نطمئن إليه هو قلة احتفال البشر قديمًا بتطبيق شىء مما وصلت إليه الفلسفة البعيدة عن روح الأديان تطبيقًا عامًّا شاملاً، بينما نجد اليوم ـ كأثر حقيقى لوقوف الإسلام فى حدود أوطانه ـ أن بعض الآثار الفلسفية قد وجدت من الأشياع مَن يخلصون لها ويجاهدون لتحقيقها، ويؤسسون لها الحكومات القوية، وينادون بوجوب سيادتها فى أنحاء العالمين..

تلك المبادئ ـ وأكثرها نبت فى أودية أوربا المقفرة إلا من أشواك الوثنية المسيحية ـ لها شأن عجيب؛ ذلك أنها ظهرت فى بيئات أشد ما تكون حاجة إلى

الحرية والانطلاق، وأبعد ما تكون تأثرًا بما عدا ذلك، فهى تسعى وراء ما تشعر بأن فيه طمأنينتها وسعادتها، وقلما يعنيها بعدئذ أن يوصف ما تظفر به بأنه حق أو باطل، منكر أو مألوف، إيمان أو إلحاد، وليس من شك فى أن النضال الدموى المروع الذى سوَّد وجه أوربا عصورًا له أثر بعيد فى هذه الحالة.

وفى هوجاء هذه الفتن الخبيثة، وفى مهب أعاصيرها التى لا تكاد إلى اليوم تهدأ لها ثائرة أو تؤمَن لها غائلة ـ قامت الماسونية والشيوعية والاشتراكية والديمقراطية.. وغير ذلك، ومن ثم نادى أقوام ـ ممن ذاقوا مرارة الخصام بين المذاهب المختلفة ـ بوجوب الإخاء بين جميع المذاهب، أو لو كان إخاء بين الحق والباطل؟ هذا شىء لا يفكر فيه الماسون، وصاح أقوام ممن عضتهم البأساء والضراء بوجوب تقسيم كل شىء على الأمة، أو لو كان فى ذلك الفوضى والإباحية؟ هذا شىء يستسيغه الشيوعيون.

وكذلك أسس الفاشيون نظام النقابات أو دولة العمال، ووضع الديمقراطيون قواعد الحريات العامة للناس؛ كما يقولون. ولكن هل هناك غاية يخدع بريقها المسلم فى ثنايا هذا الغموض والإيهام؟ كلا، إنما هو تهريج عالمى تمخض عنه حجاج العقل الإنسانى أثناء شروده وجحوده، ولا ريب أن توفير حاجات الجسد مما تنادى به الضرورة، وتكثير أسباب المتع مما تتطلع إليه الرفاهية، ثم إشباع مطامع بعض النفوس الجياشة بحب التزعم، ثم ذلك التعاون فى أى أشكاله بين شتى العناصر لنيل خير حياة دنيوية ممكنة، لا ريب أن كل هذا هو لباب المذاهب المتكبرة السائدة هناك، والتى تحاول أن تغزو ميادين الشرق المريض، بل إنها وجدت فعلاً طريقها إلى بعض النفوس المنحلة فى هذه الديار، ولا عجب أن تلقى بعض النجاح المؤقت إذا كانت قد دعمتها الدراسات المجردة للفلسفة النفسية والخلقية، هذه الفلسفة التى ادعاها علماء تحرروا من قيود الأديان هزيلها وخطيرها، واستقامت آراءهم على أسس من تفكيرهم الخاص و (عقولهم الباطنة) أو الباطلة.

وسنناقش الآن ـ فى إيجاز أهم المسائل التى قررت فى علم النفس كمنهج للسلوك البشرى الفاضل، ثم نقفى على إثر ذلك بتحليل كامل للمقاييس الخلقية الموضوعة؛ إذ إن سر الحياة التى تسود اليوم كثيرًا من الطبقات الدعية فى كل شىء إنما يرتد

إلى هذه المناهج المصنوعة، وسوف تقر أعين المؤمنين إلى أن الإسلام وحده منهج الحق الواضح، وأنه بحسب المسلم الاعتصام بدينه؛ ليستوى على صراط تندق دونه أعناق الشياطين: ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [الشورى: ٥٣].

يرى علماء النفس أنه لكيما يستقيم سلوك الإنسان على نهج واضح ينبغى أن تكتمل عواطفه، ثم تدور كلها فى فلك محوره (احترام الذات)، تخضع فيه استعداداته الموروثة والمكتسبة إلى كل ما يسمو بكرامته كإنسان كامل. وعبارة (الإنسانية الكاملة) وضعها أناس ينظرون للحياة خلال عدسة سفسطائية تسخر من الحقائق، وما دمنا قد وصلنا إلى اعتبار الرأى الشخصى وتقريره أساسًا حرًّا لاكتساب الإنسانية الكاملة؛ فقد تنكبنا الحق، وفقدنا معه الخير المنشود؛ ذلك أن من الناس من يقوِّم ذاته على أساس اعتناقها مبدءًا ديكتاتوريًّا، ومنهم من يقومها على أساس اعتناقها مبدءًا ديمقراطيًّا، وكلا الرجلين قد حشد استعداداته الموروثة والمكتسبة لخدمة مذهبة وركزها عند غاية واحدة، وارتضى أن يموت دونها، فهل معنى هذا أن كليهما ظفر بالكمال الإنسانى المزعوم، مع ما فى نظريتهما إلى الدنيا من تناقض يؤكد بينهما الخصام، بل ينشب بينهما القتال!

على أن لنا نحن ـ المسلمين ـ ما نلاحظه على هذه القضية النفسية التى تريد أن تخلق من أنانية الفرد مذهبًا عامًّا؛ فإن المسلم الذى محق ذاته فى ذات الله ووزن نفسه بنصيبها من دينه ـ يجب أن ينمى عواطفه كلها، ثم يسيرها فى نظام يبتدئ وينتهى عند تمجيد الله، أما ما يقرر لنفسه هو من احترام وتزكية فهو فضل الله يضفيه على من شاء، والمسلم الذى يستشعر فى قرارة نفسه كل معانى العبودية لمولاه العلى لا يأذن أبدًا لهذه النفس أن ينسب إليها مجدًا، ويُشار إليها بأى ضرب من ضروب الكبر المفتعل، ونحن نحارب بهذا أناسًا معينين؛ فيهم الكافر وفيهم المؤمن المدخول العقيدة.

أولئك قوم زعموا أن السمو بالنفس الإنسانية مستطاع فى غير جوار الله، مستطاع فى ظلال هذه العواطف المكتملة؛ فذهبوا يتلمسون الكمال المنشود فى مبادئ يتوارث الناس احترامها وإكبار أصحابها، حتى إذا اصطبغت نفوسهم بما وهموه من فضل ومجد راحوا يقررون لها حقوقًا من التوقير والإعظام، وكان لزامًا على الناس أن

يتقدموا إليهم بها، ثم يستقر هذا الضلال المبين، فإذا المفتونون أبعد ما يكونون عن الله، وإذا هم ـ على ما بهم من ثقة واعتداد ـ لا يقيم لهم الدين أى وزن، ولا يُنزلهم أبدًا إلا فى أمكنتهم من الرغام.

لهؤلاء وأضرابهم نوع من السلطان المادى والمعنوى فى هذه البلاد، وهم ـ كأقرانهم من الصابئة الغربية ـ ممثلو الحملة على الأديان ورسالتها الكريمة فى الحياة، وإذا كان ضجيج القوم قد تعالى هنا وهناك، وترددت أصواتهم فى أنحاء كثيرة، فما تعدو هذه الصيحات فى قيمتها نقيق الضفادع، وربما أطفأت أنفاسهم اللاهثة شموع الكنائس، ولكنهم ـ ولو استحالوا عواصف ـ لن يطفئوا للإسلام مشعلاً؛ ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

ولا عجب، فالأمور التى توضع ألغامًا فى بنيان المسيحية المتداعى لا يمكن مطلقًا أن تشعر بها دعائم الإسلام المكينة، وإذا كان صابئة الغرب قد قالوا ما قالوا فردد المقلدون الحمقى هنا ما قالوا من نظريات انفصال الدين عن السياسة وعن العلم، وخرافة تآخى الأديان، أو الدين لله والوطن للجميع، فإن مصير الفريقين سيختلف حتمًا، وهزيمة المسيحية هناك هى هزيمة الصابئة هنا تمامًا.. ولقد أدرك المسلمون حقيقة دينهم غير منقوصة، وعلموا أن دينهم كما أنه هو دين النفس هو دين الدولة، بل إن الإسلام لم يتجه للفرد من حيث إنه (شخصية مستقلة منعزلة)، وإنما اتجه إليه من حيث إنه (وحدة من مجموعة مؤتلفة متناسقة)، وإلى هذا يرجع السر فى أن الخطاب الإلهى يَرِدُ دائمًا بطريق الجمع لا الإفراد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: ٧٧، ٧٨]، ثم كيف يكون بين الإسلام وبين العلم عداء، والعلم نفسه لم يصل إلى الدرجة التى بلغها من التقدم إلا فى جو إسلامى خالص، إن العلم الطبيعى يعتمد على عنصرين خطيرين فى جميع بحوثه وكشوفه هما: (الملاحظة والاستنتاج)، وليس يوجد فى الدنيا كتاب أوصى بالتدبر فى ملكوت الله الرحيب واستطلاع بدائعه واستكناه روائعه كما أوصى القرآن: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١].

ومهما أظهر المغرضون من عطف ماكر على استقلال العلم، فإنهم لن ينالوا من الإسلام أى نيل، كذلك ضَلَّ مَن يزعم أن الوطن ليس لله، أى غباوة هذه تحاول أن تنسب الشىء لغير صاحبه، بل لغير خالقه: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ [البقرة: ١١٥]، ولقد مهد هؤلاء لهذا الخطأ الفاضح بكلمة لم يفهموها. الدين لله حقًّا، ولكن ماذا بقى لله على زعمهم إذا كان للأوطان أول ما فى الفؤاد وآخر ما فى الفم؟! ماذا بقى لخالق الفؤاد وما يجول فيه، ولخالق اللسان وما ينطق به؟!

كلا، الدين لله والوطن لله، ومصر ومَن عليها فدى للإسلام وحده، و﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠].

إن الشيء الذى يبوء بأشد معانى الاحتقار والذى نجعله محط عداوتنا الدائمة: هو هذا الضلال الوقح الذى يحاول ـ فى غير ما حياء ـ أن ينتظم الإسلام ـ وهو دين الله الكريم ـ والمسيحية واليهودية فى سلك واحد؛ فكيف يرتفع مبدأ من المبادئ ليضم إلى أحضانه هذه الأديان المختلفة المتناحية (كذا) ويجمعها فى صعيد واحد؟!

حدث مرة أن كنت أتصفح إحدى المجلات الأسبوعية، فعثرت على تصريح سكرتير الماسون الأعظم ـ وهو رجل مسلم كما يشير إلى ذلك اسمه ـ قال: «إن قراراتهم التى تذاع لا يُراد بها إلا خير المجتمع من الناحيتين الإنسانية والاجتماعية، دون تعرض للسياسة ولا للدين»، ونحن نتساءل: كيف يجوز لمسلم أن يلقى كلامًا أو يصدر أعمالاً بعيدًا عن دينه وعن رعاية قيوده وحدوده كلها، إلا أن يكون مسلمًا يجهل الإسلام، أو منافقًا يبرأ منه دين الله؟! ونحن نتساءل كذلك: أى إخاء عجيب أوى إلى سلامة ووئامة أعضاء المحفل الماسونى المكرمين وفيهم أحد موظفى الأزهر وأحد أعيان اليهود؟! إنه إخاء فرض نفسه على حساب نكبة أحدهما فى عقيدته، أو على الأصح على حساب تنازل المسلم عن دينه جملة.

هناك ما لا يقل خطرًا عن الماسونية العالمية مسخًا للإيمان وتلويثًا للنفس المؤمنة وهبوطًا بمستواها الذى ينبغى أن تحتفظ به، ومن أمثلة ذلك: جميع المبادئ التى تحمل لقبًا عالميًّا؛ فالرياضة العالمية، والثقافة العالمية، والديمقراطية العالمية،

والأدب العالمى، والفن العالمى، والتمثيل العالمى... إلخ مما يسير فى ظلال معنى الإخاء الإنسانى ووحدة البشرية، والكلمات التى أجاد الأوربيون صناعتها ودسَّها محترفو الاستعمار بيننا؛ لينالوا بها ما لا تناله منا شَرُّ الأسلحة، وليتوسلوا بها إلى إفناء العصبيات الإسلامية، وتحطيم فضائلها وتمزيق مقوماتها.

* * *

٣ـ الكلمة الأخيرة

مجلة الهلال العدد رقم (٤) (١) أبريل ١٩٨٩

الصيام لون من التربية النفسية أساسه تدريب الإرادة على ترك ما تشتهى، وجعل زمام الإنسان مع عقله لا مع هواه، قد يتطلع امرؤ إلى حقوق الآخرين وأخذ ما بأيديهم وهو لا يحل له؛ فهل نترك هذه التطلع يمضى فى طريقه أم نوقفه عند حدوده؟ لا بد من كبت هذه الرغبة إلى الأبد، والكبت هنا جزء من التربية الإنسانية التى ينشدها الشارع، ولا يستغنى عنها قانون! بل أن الفارق بين الإنسان والحيوان هو فى وجود هذه الإرادة..

والصوم الذى شرعه الإسلام إنشاء للقدرة على الامتناع، وتدريب لمدة شهر على ترويض أغلى الشهوات فى الكيان البشري؛ شهوتى الأكل والجنس، وبذلك يقدر المؤمن على أداء الواجبات مهما ثقلت، وعلى ترك الآثام مهما حَلت فى العين، وهو ما صرح به القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾، والتقوى: هى الضمير الرقيب على السلوك العام والخاص، ومع يقظة هذا الضمير يؤدى المسلم ما أمر الله به ويترك ما نهاه الله عنه..

ومن المحزن أن الصيام تحول عن خطه الصحيح، أو تنوسيت فيه الحكمة المقصودة منه؛ لأن جمهور الصائمين جعل من الشهر المبارك موسمًا للمزيد من الأطعمة، والمزيد من التسلية. وتضاعف استهلاك المواد فيه، وأضحى مربكًا للأحوال الاجتماعية والاقتصادية، كما أن البعض قد يمتنع عن الطعام المباح، ولا يمتنع عن اللغو والصخب والاستطالة فى حرمات الآخرين، وفى الحديث الشريف:

«رُبَّ صائم ليس له من صيامه إلا الجوع، ورُبَّ قائم ليس له من قيامه إلا السهر»[1]، وفى حديث آخر: «الصِّيام جُنَّة ـ أى: وقاية ـ ما لم يخرقها». قيل: وبم يخرقها؟ قال: «بكذب أو غِيبة!»[2].

وعلينا نحن ـ المسلمين ـ أن نجعل من الشهر الكريم شهر روحانية وبر، وموسم طاعة وتزكية، وفرصة لإسعاف المحتاج وإغاثة الملهوف وإعانة المُعسرين، وليكن ذلك كله ابتغاء وجه الله، وتساميًا عن حياة الأنانية والشح، وإدخارًا لما يحتاج المسلم إليه عند لقاء ربه: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾.

(١) أخرجه ابن ماجه فى كتاب ـ باب ما جاء فى الغيبة (١٦٩٠)، بنحوه، من حديث أبى هريرة، وحسنه الألبانى فى «صحيح ابن ماجه». (محقق).

(٢) ولفظ الحديث: (الصِّيامُ جُنَّةٌ ما لَم يَخْرِقْها، قيلَ: بَم يَخْرِقُهُ؟ قال: بِكَذِبٍ أو غيبةٍ. أخرجه الطبرانى فى (المعجم الأوسط) (٤٥٣٦)، وابن عدى فى (الكامل فى الضعفاء) (٣/ ١٢٩) باختلاف يسير. (محقق).

٤ـ نظرة فى الإعجاز البيانى القرآنى

محاضرة ألقيت فى ملتقى القرآن الكريم الرابع والعشرون فى المملكة العربية السعودية

توطئة:

إن إعجاز القرآن الكريم حقيقة يقرها الوحى والعقل معا.

وبعد مرور أربعة عشر قرنا من الزمان، تقلبت فيها البشرية بين أطوار مختلفة ونالت فيها حظوظا من العلوم والمعارف الإنسانية والعلمية، ووصلت فيها إلى آفاق ضل عنها الرشد البشرى أحقابا كثيرة... بعد كل هذا يقف إعجاز القرآن [الكريم] حقيقة يقرها «التاريخ» أيضا.

فالوحى والعقل والتاريخ يجمعون على التفرد الإعجازى لهذا الكتاب الكريم.

وقد وعى المسلمون حقيقة الإعجاز القرآنى منذ تلقوه... ومنذ خرجت بهم كلمات الوحى من صحراء مكة المقفرة إلى عواصم الانحلال والوثنية الكبرى، فدكوا ـ تحت رايتها ـ قلاع الشرك والضلال... وساحوا بها فى أرجاء المعمورة ينشرون الحضارة والإيمان الصحيح ودعائم الحق وحقوق الإنسان، ويحررون بكلمات القرآن [الكريم] النفوس المعذبة، والأرواح المحاصرة، والعقول التائهة والأجساد المطحونة..

أجل: منذ خرج المسلمون بكلمات ربهم، فنصروها وانتصروا بها، وهم يعرفون قدر المنحة الإلهية العظمى التى يمثلها القرآن الكريم، وبالتالى فلم يقصروا فى الوقوف الذكى عند آياته البينات، ومنحوها أعمارهم يدرسونها من كل جوانبها اللغوية، والبيانية والتشريعية، والنفسية، والعلمية.

وكان بيان «إعجاز القرآن» [الكريم] مناط اهتمامهم الكبير، فصنفوا فيه المصنفات وتحاوروا حول حقيقته واجتهدوا فيه بين مصيب ومخطئ.. لكن إيمانهم «بالإعجاز» كان حقيقة كبرى لا تقل عن إيمانهم بطلوع الشمس من المشرق، وغروبها من المغرب، «فالإعجاز» القرآنى يصل فى عقولهم ووجدانهم إلى أن يكون حقيقة ـ فوق العقل والتاريخ...

ـ إنه حقيقة كونية.

ونحن فى كلمتنا هذه لن نتطرق إلى الجوانب النفسية والعلمية والتشريعية والتاريخية وغيرها من جوانب الإعجاز القرآنى، وإنما نقصر حديثنا على وجه واحد وهو الإعجاز البيانى منوهين إلى أن ما نكتبه إنما يخضع لإيجاز شديد، فالإعجاز البيانى من أبرز نواحى الإعجاز القرآنى، وقد كتبت فيه كتب طيبة، وما زال أهلا لأن تكتب فيه مؤلفات أخرى لا تحصى.

ـ الإعجاز البيانى:

إننى واحد من الألوف التى قرأت هذا القرآن الكريم، ومرت بمعانيه وغاياته مرور العابر حينا، ومرور المتفرس المتأمل حينا أخر..

و القرآن الكريم ليس الكتاب الوحيد الذى طالعته، فقد طالعت مئات الكتب الأخرى على اختلاف موضوعاتها واقتربت من نفوس أصحابها ومن ألبابهم، وأذنت لهذه الكتب أن تترك آثارها فى فكرى، لأقلبها على مكث، وانتفع بما أراه نافعا وألفظ ما أراه باطلا..

ومن اليسير على وعلى أى قارئ مثلى أن نكوّن حكما معينا على الكتاب الذى تناوله، فقد اخلص من قراءة كتاب ما، ثم أقول: هذا المؤلف واسع الإطلاع..

أو أقول: إن ثقافته غزيرة فى الآداب الأجنبية، أو أنه طائل الثروة فى الأدب العربى القديم، أو أنه ملم بآخر ما توصلت إليه الكشوف العلمية، أو أنه قصير الباع فى إعطاء المعنى حقه، أو أنه مصطبغ بلون يسارى، أو أنه من المعجبين بالفيلسوف الفلانى، أو أن فى نفسه عقدة تميل بأسلوبه إلى الحدة فى ناحية كذا، أو أنه مرن الفهم والإدراك... الخ.

وقد أعجز عن استبانة الخصائص الإنسانية المتباينة فى تأليف الرجال الذى طالعت نتاجهم الذهنى، أو آثارهم الروحية.

وكثيرون غيرى يجدون فى أنفسهم هذه المقدرة.

وقد تلوت القرآن [الكريم] مرارا، ورجعت بصرى فى آياته وسوره، وحاولت أن أجد شبها بين الأثر النفسى والذهنى لما يتب العلماء والأدباء، وبين الأثر النفسى والذهنى لهذا القرآن [الكريم]، فلم أقع على شىء البتة.

وقد أحكم بأن كتابا ما صدر عن مؤلف فى عصر كذا، أو أن جنسية هذا المؤلف ومزاجه وأهدافه هى كيت وكيت.

أما بعد قراءة القرآن [الكريم]، فأجزم بأن قائل هذا الكلام محيط بالسموات والأرض، مشرف على الأولين والآخرين، خبير بأغوار الضمائر وأسرار النفوس، يتحدث إلى الناس تحدث السيد الحقيقى إلى عباده الذين خلقهم بقدرتهن ورباهم بنعمته، ويتناول الأمم والقرون فى هالة من الجبروت المتعالى، يستحيل أن تلمح فيه شارة لتكلف أو إدعاء.

ومع رفعة المصدر التى تحس أن القرآن [الكريم] جاء منه، وإحساسك أن هذا الشىء [؟] أتى من بعيد، فإنك ما تلبث أن تشعر بأن الكلام نفسه قريب من طبيعتك، متجاوب مع فطرتك، صريح فى مكاشفتك بما لك وما عليك، متلطف فى إقناعك فما تجد بدا من انقيادك لأدلته، وانفساح صدرك لتقبله.

ولا تحسبن هذا الوصف متأثرا بمواريث التدين التى انتقلت إلينا من الأولين، فان الكفار أنفسهم أدركوا أن القرآن [الكريم] مباين بأسلوبه الخاص لجنس ما ألفوا من كلام، وملكتهم الدهشة لدى سماعه.

فقد روى أن الوليد بن المغيرة ـ وهو من زعماء الكفر فى مكة ـ جاء إلى النبى ﷺ واستمع غلى ما يتلوا من هذا القرآن [الكريم]، فلما نصت وتدبر، كأنما رق قلبه، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه وقال له:

يا عم، إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالا ليعطوك إياه، فإنك أتيت محمدا [ﷺ] وملت إلى دينه..

قال الوليد ـ مستنكرا عرض المال عليه -: لقد علمت قريش أنى من أكثرها مالا.

قال: فقل فيه قولا يبلغ قومك، فيعلمون أنك مكذب له وكاره.

قال: وماذا أقول؟ فو الله ما فيكم رجل أعلم منى بالشعر، ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن.

«والله ما يشبه الذى يقوله محمد ﷺ شيء من هذا، والله إن لقوله لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه لمنير أعلاه، مشرق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى، وإنه ليحطم ما تحته».

وغضب أبو جهل لهذه الشهادة، فإن الصدق فى هذه القضية لا يعنيه، بل يؤذيه.

والعراك على الرئاسة فى هذه البيئات يذهل عن شؤون الكفر والإيمان.

فليكن محمد ﷺ وليكن كلامه وحيا.

بيد أن المصلحة القبلية تقضى بكتمان أمره، وانتقاص شخصه.

ولذلك عاد أبو جهل يلح على الوليد: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه؟

فقال الوليد: دعنى أفكر..

وفكر الوليد، ثم أحب أن يكون منطقيا مع نفسه فقال: هذا سحر؟

ولعله يقصد بالسحر ما جاءت به قوى خفية، لا يعرف الناس عادة حقيقتها، وفى هذا الحوار نزل قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر: ١١ - ٢٦].

والواقع أن من الكذب الشائن على الفطرة والبداهة، وعلى العقل والرواية أن يزعم زاعم أن القرآن الكريم كلام عادى، وأن أديبا راسخ القدم فى البلاغة يستطيع أن يجئ بمثله...

وقد تساءل كثيرون عن أسرار هذا التفرد الذى اتصف به القرآن الكريم، ولا شك أن المعانى التى تضمنها والتى سداها ولحمتها من الحق الخالد أساس لهذا الإعجاز، بيد أن المعنى على جلاله إن لحقه قصور فى صورته وأثره، نقصت قيمته، وطاشت دلالته.

وهناك معانى جميلة فى نفوس أصحابها، ولو استبانت على السطور لأشرقت بها الصحائف، ولكنها مشاعر فى النفوس فحسب:

إن الكلام لفى الفؤاد وإنما = جعل اللسان على الفؤاد دليلا

فتصوير المعنى الصادق حتى يبرز فى الحروف كما يبرز الجمال الإنسانى فى أبهى حلله، وحتى ينتقل سناء إلى الأفئدة نفاذا أخاذا، ركن ركين فى خدمة الحقيقة وبسط سلطانها، وإزاحة للعوائق من أمامها.

وقد تعرض لفيف من علماء المسلمين لشرح الإعجاز البيانى فى القرآن الكريم، وكنت أنا نفسى كثير الطواف حول هذا الجمال البيانى، أسرح فيه الطرف وأردد فيه الفكر، لكنى كنت كالذى شغله الإعجاب بالجمال عن وضع تفاسير له، أو لعلنى حاولت ثم غلبنى القصور، فتوقفت حتى تسنح فرصة...

إلى أن قرأت للمرحوم العلامة الشيخ محمد عبد الله دراز كتابه «النبأ العظيم ـ نظرات جديدة فى القرآن» [الكريم] فرأيت الرجل وفّى هذا المجال حقه، وأفاض فى الحديث، كأنما يتفق من ينبوع لا يغيض أبدا.

وددت لو أن الرجل بقى حتى أكمل ما بدأ، بيد أن المنية عاجلته، فقضى وهو مجاهد فى سبيل ربه ـ طيب الله ثراه ـ شرح الدكتور فى تفصيل طويل المعانى التى احتواها القرآن الكريم والتى يستحيل بالبراهين الحاسمة أن تصدر عن بشر، وأحصى جملة الشبه التى يمكن أن تخطر ببال أى متردد مرتاب، ثم أجهز عليها.

ومضى يستعرض ما يقوله المستقصى فى طلب الحقيقة، وبسط الإجابة فى أدب وفقه... اسمع إلى هذا البيان:

«... فإن قال: قد تبينت الآن أن سكوت الناس عن معارضة القرآن [الكريم] كان عجزا، وأنهم وجدوا فى طبيعة القرآن [الكريم] سرا من أسرار الإعجاز يسمو به

قدرتهم، ولكن لست أفهم أن ناحيته اللغوية يمكن أن تكون من نطاق هذا السر، لأنى أقرأ القرآن [الكريم] فلا أجده يخرج عن معهود العرب فى لغتهم العربية.

فمن حروفهم تركبت كلماته، ومن كلماتهم ألفت جمله وآياته، وعلى مناهجهم فى التأليف جاء تأليفه.

فأى جديد فى مفردات القرآن [الكريم] لم تعرفه العرب من موادها وأبنيتها؟ وأى جديد فى تركيب القرآن [الكريم] لم تعرفه العرب من طرائقها ولم تأخذ به فى مذاهبها، حتى نقول: إنه قد جاءهم بما فوق طاقتهم اللغوية؟

قلنا له: أما أن القرآن الكريم لم يخرج فى لغته عن سنن العرب فى كلامهم إفرادًا وتركيبًا فذلك فى جملته حق لا ريب فيه، وبذلك كان أدخل فى الإعجاز، وأوضح فى قطع الأعذار ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ [فصلت: ٤٤].

وأما بعد، فهل ذهب عنك أن مثل صنعة البيان كمثل صنعة البنيان، فالمهندسون البناءون لا يخلقون مادة بناء لم تكن فى الأرض، ولا يخرجون فى صنعتهم عن قواعدها العامة، ولا يعدو ما يصنعونه أن يكون جدرانًا مرفوعة، وسقفًا موضوعة، وأبوابًا مشرعة، ولكنهم تتفاضل صناعاتهم وراء ذلك فى اختيار أمتن المواد وأبقاها على الدهر، وأكنّها للناس من الحر والقر، وفى تعميق الأساس وتطويل البنيان، وتخفيف المحمول منها على حامله، والانتفاع بالمساحة اليسيرة فى المرافق الكثيرة، وترتيب الحجرات والأبهاء، بحيث يتخللها الضوء والهواء، فمنهم من يفى بذلك كله أو جله، ومنهم من يخل بشيء منه أو أشياء.. إلى فنون من الزينة والزخرف يتفاوت الذوق الهندسى فيها تفاوتًا بعيدًا.

كذلك ترى أهل اللغة الواحدة يؤدون الغرض الواحد على طرائق شتى يتفاوت حظها فى الحسن والقبول، وما من كلمة من كلامهم ولا وضع من أوضاعهم بخارج عن مواد اللغة وقواعدها فى الجملة.

ولكنه حسن الاختيار فى تلك المواد والأوضاع قد يعلو بالكلام حتى يسترعى سمعك، ويثلج صدرك، ويملك قلبك.

وسوء الاختيار فى شىء من ذلك قد ينزل به حتى تمجه أذنك، وتغشى منه نفسك، وينفر منه طبعك.

وينتقل الشيخ الدكتور محمد عبد الله دراز إلى خصائص الأسلوب القرآنى، فيبين الأسباب التى بلغ بها درجة الإعجاز، ولولا الإعجاز ولولا أن الرجل حافظ فاقه لكتاب الله، وضليع مكين فى آداب العربية، وعابد مخبت تكشف أمام بصيرته النيرة الحكم البالغات التى غابت عن غيره، ما استطاع أن يصور لنا هذه الخصائص ويجعلها منا رأى العين.. ونكتفى بنماذج قليلة من كلماته، لا تغنى البتة عن مدارسة الكتاب ذاته، قال:

«فلو أنك خاطبت الأذكياء بالواضح المكشوف الذى تخاطب به الأغبياء نزلت بهم إلى مستوى لا يرضونه لأنفسهم فى الخطاب. ولو أنك خاطبت العامة باللمحة والإشارة التى تخاطب الأذكياء، لجئتهم من ذلك بما لا تطيقه عقولهم. فلا غنى لك ـ إن أردت أن تعطى كلتا الطائفتين حظها كاملاً من بيانك ـ أن تخاطب كل واحدة منهما بغير ما تخاطب به الأخرى. كما تخاطب الأطفال بغير ما تخاطب به الرجال.. فأما أن جملة واحدة تلقى إلى العلماء والجهلاء، وإلى الأذكياء والأغبياء، إلى السوقة والملوك، فيراها كل منهم مقدرة على مقياس عقله، وعلى وفق حاجته، فذلك ما لا نجده على أتمه إلا فى القرآن الكريم. فهو قرآن واحد، يراه البلغاء أوفى كلام بلطائف التعبير، ويراه العامة أحسن كلام وأقربه إلى عقولهم، لا يلتوى على أفهامهم، ولا يحتاجون فيه إلى ترجمان وراء وضع اللغة. ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾. فهو متعة العامة والخاصة على السواء، ميسر لكل من أراد إقناع العقل وإمتاع العاطفة.

وفى النفس الإنسانية قوتان: قوة تفكير، وقوة وجدان، وحاجة كل واحدة منهما غير حاجة أختها. فأما إحداهما: فتنقب عن الحق لمعرفته، وعن الخير للعمل به. وأما الأخرى: فتسجل إحساسها بما فى الأشياء من لذة وألم. والبيان التام هو الذى يوفى لك هاتين الحاجتين، ويطير إلى نفسك بهذين الجناحين، فيؤتيها حظها من الفائدة العقلية، والمتعة الوجدانية معًا. فهل رأيت هذا التمام من كلام الناس؟ لقد عرفنا كلام

العلماء والحكماء، وعرفنا كلام الأدباء والشعراء فما وجدنا من هؤلاء وهؤلاء إلا غلوًّا فى جانب، وقصورًا فى جانب. فأما الحكماء: فإنما يؤدون إليك ثمار عقولهم غذاء لعقلك، ولا تتوجه نفوسهم إلى استهواء نفسك، واختلاب عاطفتك.. فتراهم حين يقدمون إليك حقائق العلوم، لا يأبهون لما فيها من جفاف ونبو عن الطباع. وأما الشعراء: فإنما يسعون إلى استثارة وجدانك، وتحريك أوتار الشعور من نفسك، فلا يبالون بما صوروه لك أن يكون غيًّا أو رشدًا، وأن يكون حقيقة أو تخيلاً!

فتراهم جادين هازلين، يستبكون وان كانوا لا يبكون ويطربون وإن كانوا لا يطربون. ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤ ـ ٢٢٦]. وكل امرئ حين يفكر فإنما هو فيلسوف صغير فسل علماء النفس: هل رأيت أحدًا تتكافأ فيه قوة التفكير وقوة الوجدان وسائر القوى النفسية على سواء؟

ولو مالت هذه القوى إلى شىء من التعادل عند قليل من الناس هل ترونها تعمل فى النفس دفعة واحدة وبنسبة واحدة؟

يجيبوك بلسان واحد: كلا، بل لا تعمل إلا مناوبة فى حال بعد حال، وكلما تسلطت واحدة منهن اضمحلت الأخرى، وكاد ينمحى أثرها. فالذى ينهمك فى التفكير تتناقص قوة وجدانه، والذى يقع تحت تأثير لذة أو ألم يضعف تفكيره، وهكذا لا تقصد النفس الإنسانية إلى جانب من هاتين الغايتين قصدًا واحدًا، وإلا لكانت مقبلة مدبرة معًا. وصدق الله: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ (الأحزاب: ٤).

فكيف تطمع من إنسان فى أن يهب لك هاتين الطلبتين على سواء؟!

وما كلام المتكلم إلا صورة الحال الغالبة عليه من بين تلك الأحوال.

هذا مقياس تستطيع أن تتبين به فى كل لسان وقلم، أى القوتين كان خاضعًا لها حين قال أو كتب.

فإذا رأيته يتجه إلى تقرير حقيقة نظرية، أو وصف طريقة عملية، قلت: هذا ثمرة الفكرة.

وإذا رأيته يعمد إلى تحريض النفس أو تنفيرها، وقبضها أو بسطها، واستثارة كوامن لذتها أو ألمها، قلت هذه ثمرة العاطفة.

وإذا رأيته قد انتقل من أحد هذين الضربين إلى الآخر، فتفرغ له بعد ما قضى وطره من سابقه، كما ينتقل من غرض إلى غرض، عرفت بذلك تعاقب التفكير والشعور على نفسه.

وأما أن أسلوبًا واحدًا، يتجه اتجاها واحدًا، يجمع فى يديك هذين الطرفين معًا، كما يحمل الغصن الواحد من الشجرة أوراقًا وأزهارًا وأثمارًا معًا، أو كما يسرى الروح فى الجسد، والماء فى العود الأخضر، فذلك ما لا تظفر به فى كلام بشر، ولا هو من سنن الله فى النفس الإنسانية.

فمن لك إذن بهذا الكلام الواحد الذى يجيء من الحقيقة البرهانية الصارمة بما يرضى أولئك الفلاسفة المتعمقين، ومن المتعة الوجدانية الطيبة بما يرضى حتى هؤلاء الشعراء المرحين؟

فهو الذى لا يشغله شأن عن شأن. ذلك الله رب العالمين. وهو القادر على أن يخاطب العقل والقلب معًا بلسان، وأن يمزج الحق والجمال معًا، يلتقيان ولا يبغيان، وأن يخرج من بينهما شرابًا خالصًا سائغًا للشاربين.

وهذا هو ما تجده فى كتابه الكريم حيثما توجهت. ألا تراه فى فسحة قصصه وأخباره، لا ينسى حق العقل من حكمة وعبرة؟ أو لا تراه فى معمعة براهينه وأحكامه، لا ينسى حظ القلب من تشويق وترقيق، وتحذير وتنفير، وتهويل وتعجيب، وتبكيت وتأنيب؟ يبث ذلك فى مطالع آياته ومقاطعها وتضاعيفها. ﴿نَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]. ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ [الطارق: ١٣ ـ ١٤] وكتب السيد هبة الدين الحسينى رسالة جيدة فى إعجاز القرآن [الكريم] لخصها الأستاذ «عيسى صباغ» فى هاتين النظرتين.

يقول الشيخ «هبة الدين»: لا ريب أن القرآن الكريم قد أدهش نوابغ العرب وأخرس شقشقة البلغاء فى عصره.

ولكن ألأسلوبه الرائق، ولفظه الريق، ونظامه العجيب؟ أم لبدائع معانيه الجذابة، وعظمة مبادئه، ولطائف أمثلته؟ لا نعلم... وإنما نعلم أنه أدهش ويدهش العربى العارف... وربما كان أثره فى العامة من النواحى الأولى، وفى الخاصة من النواحى الأخرى. كما أثر بأنبائه الغريبة، وبأسرار إشاراته واستعاراته فى الأجيال السائرة.

أجل، هذا القرآن [الكريم] مدهش من أى وجه كان، وآية عبقريته ساطعة، وقد استعان به منقذ العرب على هدايتهم بعد ما غدوا سكارى بخمرته، فأحيا ذكرهم، وأصلح أمرهم، وأدبهم كما شاءت المصلحة، وأستخرجهم من ظلمة العادات القاسية إلى ضياء عيشة راضية...

ثم استخدم أولئك المهتدين بأنوار القرآن الكريم كألسنة الدعوة الأم، وسيوف لإدانة العالم. ويستطرد إلى بيان ميزة القرآن بين المعجزات، فيقول بأسلوبه السهل البليغ: (إن أكبر ميزة فى القرآن الكريم ـ وهى التى وضعته فوق المعجزات كلها ـ هى أنه مجموعة فصول ليست سوى صبابة أحرف عربية... من أيسر أعمال البشر، وقد فاقت بعد ذلك عبقرية كل عبقرى... فلم يخلق رب الإنسان للإنسان عملاً ـ بعد التفكر ـ أيسر لديه من الكلام)...

وكلما كان العمل البشرى أيسر صدورًا، وأكثر وجودًا، قل النبوغ فيه وصعب افتراض الإعجاز والإعجاب منه. هذا، ونرى الناس فى عهدنا مطبوعين على استحباب الشهرة والأثرة وطلب التفاضل والتفاخر، فإذا رأوا أحدهم يبغى التفوق عليهم بصناعته، اندفعوا بكل قواهم إلى مباراته، وجدوا لكى يأتوا بخير منه... وقد فطر البشر على مثل هذا الشعور... والشعب العربى المعاصر للنبى ﷺ كان ولا ريب منطويًا على هذا الشعور تمامًا.

فلماذا لم يندفع إلى مباراة القرآن الكريم؟! ولاسيما بعد ما شاهدوا من صناعة النبى ﷺ فائدة وعائدة. ولمَ لَمْ يعارضوا عبقريته فى البلاغة وهو فرد وهم ألوف؟! ألعدم وجود أساتذة فيهم لهذه الصناعة؟ كلا. لقد كانت تربة الحجاز خصبة منبتة لأساتذة الفصاحة والبلاغة... فلم لم يندفعوا إلى معارضته بالمثل، وهو المعارض لهم بكل ما يستطيع من قوة؟! ولماذا اندفعوا إلى مقاتلته دون مقابلته؟. وإلى مقابلته

بالأسنة دون الألسنة؟! وبالحراب بدل الكتاب؟! حتى أفرغوا كنانتهم برمى آخر نبلة فيها ولم ينجحوا.

ليت شعرى مم وبم أعجزت عبقرية ذلك الفرد المستضعف فيهم وهم ألوف، معتزون بألوف؟ وكيف أعجزتهم أسطر وكلمات وحروف...! ثم ينتقل المؤلف إلى تحليل تلك الدهشة وتعليل بواعثها، فيقول: أحرى بنا أن نحلل هذه الدهشة الغريبة وأسبابها الحقيقية ونقيس أنفسنا (ونحن فى هذا القرن) على أولئك الأساتذة (وإن كانوا فى القرون الأولى) قياسًا حسب ذلك المقياس القائل. الناس كالناس والأيام واحدة فإذا عم الإعجاب بالقرآن [الكريم] أساتذة عصرنا الراقى، فلا نلوم المعجبين بالقرآن [الكريم] فى القرون الأولى... ثم يستشهد بتقدير العلامة «جبر ضومط» فى كتابه «الخواطر الحسان» لآيات القرآن [الكريم] وبلاغتها، وبشعر ونثر للفيلسوف الدكتور شبلى شميل القائل:

دع من محمد، فى صدى قرآنه = ما قد نحاه للحمة الغايات

إنى وإن أك قد كفرت بدينه = هل أكفرن بمحكم الآيات

ومواعظ لو أنهم عملوا بها = ما قيدوا العمرات بالعادات

من دونه الأبطال فى كل الورى = من حاضر أو غائب أو آت

كما قال: إن فى القرآن [الكريم] أصولاً اجتماعية عامة فيها من المرونة ما يجعلها صالحة للأخذ بها فى كل زمان ومكان... حتى فى أمر النساء، فإنه كلفهن بأن يكن محجوبات عن الريب والفواحش، وأوجب على الرجل أن يتزوج واحدة عند عدم إمكان العدل..

والقرآن [الكريم] قد فتح أمام البشر أبواب العمل فى الدنيا والآخرة، بعد أن أغلق غيره من الأديان تلك الأبواب... وذكر أن الشيخ «ناصف اليازجى» أوصى ولده «إبراهيم» لتقوية براعته فى الأدب العربى قائلاً: «إذا شئت أن تفوق أقرانك فى العلم والأدب، وصناعة الإنشاء، فعليك بحفظ القرآن [الكريم]، ونهج البلاغة»... ونوه بإعجاب طائفة من نوابغ الفرنجة أمثال «كارليل» و«ولز» و«تولستوى» و«مونتيه» بالقرآن الشريف وبعبقرية النبى ﷺ.

ثم انتقل إلى موضوع دهشة الأولين الذين قهرتهم عبقرية النبى الأمى وقرآنه فقال: «إذا قام بيننا البناء والحداد ينظمان القريض الجيد أعجبنا حسن القصيدة من جهة، وغرابة المصدر من جهة أخرى، لأنهما عاملان أميان لم يأخذا من الدراسة والكتابة حظًّا..». فمحمد الأمى الخاطب بآية: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

ربيب البادية، وخريج حى بنى سعد، ينهض فى أم القرى بدعوى نسخ الأنظمة، وتعديل الشرائع، وإصلاح العالم... هذا من جهة، ومن جهة أخرى: إنه أفنى قواه فى معارضة أقوام سفلة، وكابد الأذى والأسى من الأفواه والأيدى، وقضى حياته فى إدارة الحروب والمغازى، وهو ما بين هذه وتلك يأتى بكتاب يعجز عن مباراته بلغاء عصره ونوابغ دهره، رجل كذلك لابد وأن يدهش الناس أمره وحق لهم أن يندهشوا لأن الرجل الأمى قد يفوز بالعبقرية ولكن عبقريته لابد أن تتجه إما إلى ميادين الحروب فيكون من عظماء الفاتحين، أو تتجه إلى أندية الرأى ومجالس الشورى فيكون من كبار الساسة والدهاة... أما أن يجمع الحسنيين ويضيف إليهما نبوغًا فى العلم، ونبوغًا فى التشريع والقضاء، ونبوغًا فى جذب عواطف الخاصة والعامة، فلم يسمع به التاريخ، ولم يسمع به الزمان... وربما عد الفن وجوده ضربًا من المحال... إذن فالدهشة طبيعية لدى مشاهدة بطل كهذا..

بطل فى العلم والنظم..

بطل فى السياسة والفلسفة معًا..

بطل فى الإدارة وفى قيادة الخاصة والعامة جميعًا..

بطل فى التشريع والتنفيذ حتى على نفسه وأهله..

بطل فى كل ذلك، ثم هو فوق ذلك أمى غير متعلم..

وأكثر ما يعجب فيه: أنه لم يتخصص بفن واحد من الفنون، لا فى ألفاظه ونظمه. ولا فى معانيه وحكمه. فبينما نراه يتصدر ببلاغة عجبى، وأمثال عذبى، إذا هو يجرى فى ميدان العلم أو مضمار الفلسفة فيبدى من أسرار الطب والطبيعة وكائنات الأرض

وكامنات السماء ونواميس الكون مالا تفى بشرحه الصحائف مما نطق به أمس وانكشف سره اليوم... والحالة أنه لم يك يملك شيئًا منها يوم أخبر عنها..

ثم نراه خائضًا فى تاريخ القرون الخالية والأمم البائدة، غير مستند على آثار أو أسفار، ثم تأتى فى الحفريات والأثريات مصدقتين له وشارحتين إياه، بعد قرون وأجيال... وكذلك نراه يسن نظامًا، وينسخ أحكامًا، غير مستند فى ذلك إلى مشورات أو مؤتمرات، ولكن الظروف الأخيرة، والتجارب المتعاقبة، ومؤتمرات عصورنا الحالية تذعن له، وتعلن اتفاقًا معه. ذلك عدا الأنباء الغيبية عن أحوال أفراد وأقوام هى والله بواعث الإعجاب والدهشة العامة التى اعترت وتعترى الناس من عرب ومستعربة.. كلما تلوا القرآن الكريم أو تليت عليهم آياته، وفسرت بيناته... وسنتناول فى نظراتنا الثانية أسس إعجاز القرآن الكريم.

قال: رأينا فى نظراتنا السابقة نموذجًا شائقًا من التفكير والتحليل فى أسلوب عصرى سائغ، جرى به قلم العلامة «هبة الدين الحسينى الشهر ستانى» تمهيدًا لبحثه فى القرآن الكريم.. يبدأ علامتنا تحليله بسؤاله: هل تحدى الرسول ـ ﷺ ـ بالقرآن الكريم؟. ثم يقول: صدور التحدى من الرسول لأهل الصنعة أساس ينبغى ثبوته قبل أى شىء آخر، ويتبع هذا بشواهد الآيات الناطقة بالتحدى، ومنها هذه الآية: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].

ولكن فصحاء العرب أعرضوا عن هذا التحدى المتكرر، وأحجم أبو سفيان عن تجنيد جيش من شعراء الجزيرة وأدبائها لمعارضة القرآن [الكريم]، بل جد فى تأليف جيش من عشرة آلاف مقاتل يخاصم النبى [ﷺ] وحزبه..

إلى جانب هذا من حاولوا المعارضة.. ثم تجد أمثال «الوليد» و«لبيد» و«الأعشى» و«كعب بن زهير» يذعنون لسمو معانى القرآن الكريم وبلاغته، وقد كانوا معدودين أساطين البلاغة فى زمنهم... وتؤثر روعة القرآن الكريم فى نفوس العرب فيرفعون القصائد السبع المعلقات من حول الكعبة وهى خير ما جادت قرائح الشعراء العباقرة أمثال: «امرئ القيس»، و«طرفة بن العبد»، و«كعب بن زهير»، و«عمرو بن كلثوم»،

خجلاً منهم وانفعالاً. كالذى زين البيت بقناديل الزيت، ثم سطعت من حولهن مصابيح الكهرباء القوية ـ على حد تعبير المؤلف.

وقد حاول أفذاذ من الأدباء بعد معارضة القرآن [الكريم] فلم يوفقوا، وذكر المؤلف عددًا منهم، ولعل أشهرهم «عبد الله بن المقفع»... ثم استشهد المؤلف بآراء نخبة من أعلام الفرنجة النقاد، وكبار الأدباء فى تقدير مزايا القرآن الكريم وأسرار إعجازه... وينتقل المؤلف بعد ذلك إلى تشريح هذه المزايا، فيعد منها ثمانية وعشرين كرءوس أقلام، ثم يتناول وجوه الإعجاز على المحك، ويقارن بين «الشهنامة» الفارسية فى امتيازها، والقرآن الكريم العربى فى إعجازه على سبيل المثال... ثم يذكر النظريات السبع للعلماء فى وجه الإعجاز، وأهمها صدور القرآن [الكريم] من أمى، وبلاغته، وغرابة أسلوبه، وأنباؤه الغريبة الصادقة... وحرى بنا أن نذكر هنا مع تلك المزايا الإجمالية التى سردها المؤلف بعض أسرار الإعجاز فى القرآن الكريم، ألا وهى:

١ ـ فصاحة ألفاظه الجامعة لكل شرائطها.

٢ ـ بلاغته بالمعنى الاصطلاحى المشهور، أى موافقة الكلام لمقتضى الحال، ومناسبة المقام، أو بلاغته الذوقية المعنوية.

٣ ـ مسحة البداوة، أى عروبة العبارات الممثلة لسذاجة البداوة مع اشتمالها على بسائط الحضارة.

٤ ـ توفر المحاسن الطبيعية فوق المحاسن البديعية.

٥ ـ إيجاز بالغ حد الروعة بدون أن يخل بالمقصود...

٦ ـ إطناب غير ممل فى متكرارته.

٧ ـ سمو المعنى وعلو المرمى فى قصد الكمال الأسمى.

٨ ـ طلاوة أساليبه الفطرية ومقاطعه المبهجة وأوزانه المتنوعة.

٩ ـ فواصله الحسنى وأسجاعه المطبوعة.

١٠ ـ أنباؤه الغيبية وأخباره عن كوامن الزمن وخفايا الأمور.

١١ ـ أسرار علمية لم تهتد العقول إليها بعد عصر القرآن [الكريم] إلا بمعونة الأدوات الدقيقة والآلات الرقيقة المستحدثة..

١٢ ـ تناوله لغوامض أحوال المجتمع، ولآداب أخلاقية تهذب الأفراد، وتصلح شئون العائلات..

١٣ ـ احتواؤه على قوانين حكيمة فى فقه تشريعى يفوق ما فى التوراة والإنجيل وكتب الشرائع الأخرى..

١٤ ـ سلامته عن التعارض والتناقض والاختلاف..

١٥ ـ خلوصه من تنافر الحروف وتنافى المقاصد..

١٦ ـ ظهوره على لسان بدوى أمى لم يعرف الدراسة، ولا ألف محاضرة العلماء، ولا جاب الممالك سائحًا مستكملاً ثقافته.

١٧ ـ طراوته فى كل زمن، أى كونه غضًّا طريًّا كلما تلى وأينما تلى... ١٨ ـ اشتماله على السهل الممتنع، الذى يعد فى الشعر ملاك الإعجاز والتفوق النهائى..

١٨ ـ طواعية عبارته لتحمل الوجوه وتشابه المعانى، فى حدود الدقة الفقهية.. ٢٠ ـ قصصه الحلوة وكشوفه التاريخية عن حوادث القرون الخالية.

١٩ ـ أمثاله الحسنى التى تجعل المعقول محسوسًا، وتجعل الغائب عن الذهن حاضرًا لديه.

٢٠ ـ معارفه الإلهية كأحسن كتاب فى علم اللاهوت، وكشف أسرار عالم الملكوت، وأوسع سفر عن مراحل المبدأ والمعاد.

٢١ ـ خطاباته البديعية وطرق إقناعه الفذة..

٢٢ ـ تعاليمه العسكرية ومناهجه فى سبيل الصلح وقواعد الحرب.

٢٣ ـ سلامته من الخرافات والأباطيل التى من شأنها إجهاز العلم عليها كلما تكاملت أصوله وفروعه.

٢٤ ـ قوة الحجة وتفوق المنطق.

٢٥ ـ اشتماله على الرموز فى فواتح السور، ودهشة الفكر حولها وحول غيرها مما يبعثه على التساؤل.

٢٦ ـ جذباته الروحية الخلابة للألباب، الساحرة للعقول، الفاتنة للنفوس.

ومما لا شك فيه أن الإعجاز القرآنى ـ بعد كل ما ذكرنا ـ لا يتجلى فى عصر أكثر ما يتجلى فى عصرنا، بعد أن انتشرت مناهج البحث العلمى، والنقد التاريخى والأدبى.

فلا زال القرآن [الكريم] مع ما شهدته العصور الأخيرة من رقى أدبى وعلمى، يثبت فى هيمنة رفيعة صفته الإعجازية ونسبته الإلهية المحيطة الشاملة، وإنه نسيج بيانى وحده!

لم يقف إعجازه شامخا متفردا أمام الكتب السماوية الأخرى، التى أصابها من التحريف ما أصابها فحسب، ولكنه بقى معجزا أمام (العقل العلمى المعاصر) مع جولات كل هذا العقل، ونواحى بروزه... وأمام النقد الأدبى (والأدب المقارن) بالرغم من المدارس النقدية التى ظهرت!

ولو أرتفع المسلمون عقليا وعلميا إلى المستوى الذى رسمه لهم كتاب دينهم المعجز لكان من أمر حاضرهم غير ما ترى، ولكان مستقبلهم أعز وأكرم.

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ (الإسراء: ٩).

٥ـ الإمام البشير الإبراهيمي

مجلة الثقافة الجزائرية، عدد ٨٧، مايو ـ يونيو ١٩٨٥.

كانت القاهرة ـ لأكثر من ثلث قرن مضى ـ ملتقى عدد من المجاهدين الكبار يجيئون إليها فى ظل عقيدة جامعة، وأخوة وثيقة، ولغة مشتركة، وآمال واحدة.

وكان المسلمون ينظرون إلى الزعماء القادمين نظرة حب جارف وإعزاز بالغ، كانوا يرون النظر فى وجوههم عبادة، والحديث معهم والأنس بهم قربى إلى الله.

أذكر من هؤلاء الحاج محمد أمين الحسينى مفتى فلسطين الأكبر، وقائد جهادها الأول، زارنى يومًا فى وزارة الأوقاف ـ وكنت مسؤولاً عن المساجد ـ فزكَّى بعض المشروعات التى أقوم بها، ورسم لى طريق إنجاحها، وشعرت كأنه يعد نفسه مسؤولاً عن مستقبل الإسلام فى مصر، فهو يهتم به اهتمامى أنا به أو أكثر، ولا عجب فدار الإسلام واحدة وإن اختلفت منابت الأفراد ....

وأذكر من أولئك الزعماء اللاجئين إلى القاهرة الشيخ محمد البشير الإبراهيمى. عرفته، أو تعرفت إليه، فى أعقاب محاضرة بالمركز العام للإخوان المسلمين ...

كان لكلماته دوى بعيد المدى، وكان تمكنه من الأدب العربى بارزًا فى أسلوب الأداء وطريقة الإلقاء، والحق أن الرجل رُزِق بيانًا ساحرًا، وتأنقًا فى العبارة يذكرنا بأدباء العربية فى أزهى عصورها.

لكن هذا ليس ما ربطنا به أو شدَّنا إليه ـ على قيمته المعنوية ـ إنما جذبنا الرجل بإيمانه العميق، وحزنه الظاهر على حاضر المسلمين، وغيظه المتفجر ضد الاستعمار، ورغبته الشديدة فى إيقاظ المسلمين ليحموا أوطانهم ويستنقذوا أمجادهم، وخُيّل لى أنه يحمل فى فؤاده آلام الجزائريين كلهم وهم يكافحون الاستعمار الفرنسى،

ويقدمون المغارم سيلاً لا ينقطع حتى يحرروا أرضهم من الغاصبين الطغاة، وكان فى خِطاباتِهِ يزأر كأنه أسد جريح، فكان ينتزع الوَجَل من أفئدة الهيابين ويُهيّج فى نفوسهم الحمية لله ورسوله، فعرفت قيمة الأثر الذى يقول: (**إن مداد العلماء يوزن يوم القيامة بدم الشهداء**)[1].

إن الخطيب أو الكاتب يوم يستمد توجيهاته من قلبه ويصبها فى نفوس تلامذته إنما يُكوّنُ فيالق من أولى الفداء، ويصنع قذائف حية من رجال ينسفون الباطل نسفًا، وذلك ما أحسسناه ونحن نستمع إلى الشيخ البشير الإبراهيمى فى القاهرة، فعرفنا لماذا ضاق به الفرنسيون وطاردوه، ومن ثَمَّ قررنا الالتفاف به والاستمداد منه.

ومن الخطإ تصوُّرُ أن الشيخ الكبير كان خطيبًا ثائرًا وحسب ...

لقد كان فقيهًا ذكى الفكرة بعيد النظرة.

ووقع لى معه حوار فى مسألتين طريفتين.

قال لى مرة: لعلك قرأت فى السيرة الشريفة أن أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ ما كانوا ينصرفون عن مجلسه إلَّا على ذَوَاق ـ وزن جمال.

قلت: نعم.

قال: فما الذواق الذى ينالونه فى مجلسه؟

فتَرَيَّثْتُ قليلاً ثم أجبت: لعلهم كانوا يتناولون بعض الأطعمة أو الأشربة كما يقع فى عصرنا هذا عندما تُقَدِّم للأضياف والوافدين أقداحًا من الشاى أو غيره ...

قال لى: ظننتك أفضل من أن تجيب هذه الإجابة الساذجة، أذلك شىء ينوِّه به الأصحاب الكرام؟

قلت فى تلهف: فما هذا الذواق الوارد فى السنة؟

قال: إنه تذوق أرقى، ألا تذكر الحديث الشريف: «ذاق حلاوة الإيمان من رضى بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد نبيا ورسولا».

---

(١) ولفظ الحديث: (يوزَنُ مِدَادُ العلماءِ، ودمُ الشهدَاءِ، فيَرجَحُ مِدادُ العلماءِ على دمِ الشهداءِ) أخرجه الشيرازى كما فى (الجامع الصغير) للسيوطى (٢/ ٤٠٣) وهو ضعيف أو موضوع بكل ألفاظه وطرقه، انظر: مختصر المقاصد للزرقانى، ٩٢٦ الفوائد الموضوعة للكرمى (١٠٧).

إن المجلس النبوى تظلله الحكمة، ومقام النبى فيه ترقيق القلوب، ورفع المستوى، وتخليص الروحانية من شوائب الأرض، وجعل البشر فى مصاف الملإ الأعلى ... فما ينصرف أحد عن هذا المجلس الزكى إلا وقد تذوق نازلاً من السماء، ولا يعود إلى أهله إلا بذخر يعليه ويعليهم.

الحق، أن هذا المعنى كان جديدًا على، غير أنى شعرت بأنه الحق، وأنه أولى كثيرًا من تفسير الذواق بأنه طعام أو شراب ...

وسألنى مرة: ما تقول فى هذه الذبائح التى تملأ ساحات مِنًى، يتحلل بها الحجاج والعامرون من مناسكهم؟

فلم أدر ما أقول، كل ما استطعت أن أجيب به أنها من شعائر الحج والعمرة قربة إلى الله وطعمة للفقراء، وفى الآية ﴿ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴾.

قال: ليت الحجيج يحققون هذه الغاية فيأكلون ويتصدقون ويفرح بصنيعهم البائسون الفقراء، إنهم يذبحون ويدعون ذبائحهم على الثرى لا يقربها إنس ولا وحش، فتضيع سدى، وقد نُهينا عن إضاعة المال. حبذا لو وضعت خطة للإفادة من هذا الخير المبذول وتعميم النفع به ...

وما تمناه الشيخ البشير الإبراهيمى نفذ بعد ثُلُث قرن، فقد عرفت الآن أن ما يذبح يكون بقدر حاجة الفقراء، والباقى يوجه لسد ثغرات الجوع، والجفاف فى أماكن أخرى ... وهذا هو الفقه الصحيح وحسن التصرف فى تنفيذ أحكام الشرع الشريف.

كان لقاؤنا بالشيخ البشير الإبراهيمى مصدر متعة أدبية وعلمية تجعل أدباء القاهرة وعلماءها يهرعون إليه ويتزاحمون عليه، ولكن الرجل كان يشرد بين الحين والحين، فنحس أنه معنا وليس معنا، كان جسمه معنا وقلبه معلقًا بالجزائر يتحسس أبناءها، ويتبع العراك الدائر بين الإسلام والصليبية فى هذه القطعة الغالية من دار الإسلام، وكنت أشعر بأنه يكتب إلى رجاله أو المسؤولين عن الكفاح الجزائرى يشير عليهم بالرأى...

وأستطيع الجزم بأنه ما ضعف يومًا ولا استكان ولا يئس من روح الله، ولا شك فى أن الله ناصر جنده، ومعز المجاهدين المسلمين.

وهناك أمر لا يعرفه الكثيرون، لقد حاول أن يسد الفجوة بين جماعة الإخوان ورجال الثورة المصرية، فإن الفريقين يقدرونه ويصغون إلى نصحه، ولكن الشر كان قد تفاقم بين الفريقين وعزَّ على العلاج، فتوقف محزونًا.

وظل الشيخ البشير، ومعه بعض الجزائريين يرتبون الأمور بين القاهرة الموالية للمجاهدين، وبين أرض المعركة التى احتدم فيها القتال وتضاعف الشهداء، ولا أنسى من بين أصحاب الشيخ الأخ الفضيل الورتلانى الذى زاملنى فى الدراسة وأنا فى تخصص الدعوة والإرشاد قبل مجيء الإبراهيمى ببضع سنين، وكان الشيخ الفضيل عملاقًا فى مبناه ومعناه ورجلاً له وزنه، وكان يتبع الشيخ البشير على أنه تلميذ وفى له، ويتعاونان على نصرة القضية الجزائرية بكل ما لديهما من طاقة...

قال لى الشيخ البشير:

إنكم بليتم بالاستعمار مثل ما بلينا، وشعرتم بضراوته مثل ما شعرنا، لكنكم لا تعرفون أن ما أصابنا نوع شاذ من الاستعمار يشبه السرطان من بين أنواع العلل المهلكة، إنه كان يريد محو شخصيتنا وعقيدتنا ولغتنا وتاريخنا وحاضرنا ومستقبلنا، ومن المستحيل الإبقاء عليه أو البقاء معه. إن معنى ذلك الموت الخسيس، وأولى بنا أن نموت جميعًا فى ميادين الكفاح والتضحية من أن نموت على هذا النحو الذى يراد لنا...

والجزائرى إذا غضب تحول إلى شخص آخر، وقد كنت ألمح تغيرًا عضويًا فى وجهه بل فى كِيانِه كله عندما يتحدث عن ضرورة الجهاد إلى آخر رمق وعن ضرورة بقاء الجزائر مسلمة تتكلم بلغة الوحى وتحل العربية محل الفرنسية. (وها قد نصر الله الجزائر، ونضر وجوه المجاهدين وعاد الدخيل من حيث جاء، واندحر أتباعه وأعوانه).

فأدبروا ووجوه الأرض تلعنهم كباطل من خلال الحق منهزم

ومعرفتى بالشيخ البشير الإبراهيمى تجعلنى أتساءل عن حدود الوفاء للقيم والمبادئ التى عاش من أجلها ومات فى سبيلها؟

إنى أتخيله حيًا، وأتصور أنه يسمع رجلاً يرطن بالفرنسية، ما أحسبه يتركه دون تقريع وتعنيف بالغين.

وله الحق فى غضبه فإن الاستعمار العسكرى ذَنَبٌ والاستعمار الثقافى هو الرأس، والحية لا تموت بقطع ذَنَبِها، بل الأمر كما قال الشاعر:

لَا تَقْطَعَنْ ذَنَبَ ائأَفْعَى وَتُرْسِلَهَا إنْ كُنْتَ شَهْمًا فَأَتْبِعْ رَأْسَهَا الذَّنَبَا

وعلى الجزائر أن تحرر ثقافتها من التبعية كما حررت أرضها من الاستعمار، والخطوات البطيئة فى هذا المضمار لا ترضى شهداءها الأبرار، بل البدار، ليتأكد الانتصار، وتتضاعف الثمار.

٦ـ الهجرة شىء لا يعرفه عبيد أنفسهم!

مجلة الرسالة عدد ١٠٦١ ـ ١٤مايو ١٩٦٤

عبادة الذات هى الوثنية الجديدة التى تجتاح العالم وتهدد حضارته، أو هى الآفة التى تفسد تقدمه العلمى وتجعل وثباته المعجبة خطوات إلى الخلف لا إلى الأمام...

نعمة إلى متاع الدنيا ليس منها شبع! وغفلة عن الدار الآخرة ليس منها يقظة، وحركة تدور حول نفسها بقوة كأنها إعصار مجنون.

أما المبادئ العامة التى ينتظر أن تشد الإنسان من هذا المحبس الضيق، وتطلعه على آفاق إنسانية أرقى فقد أصابتها العدوى هى الأخرى، إذ أصبحت المادية لحمتها وسدادها.

وسيان فى الهبوط أن ينحدر المرء وحده، أو ينحدر مع جماعات تتواصى بالحاضر دون المستقبل، وتتعارف على شهوات الجسد لا على أشواق الروح وتعترف بواقع الأرض وتتجهم لوحى السماء... هناك، وراء حدود العالم الإسلامى، بدأ هذا السواد، وفى فترة إعياء من تاريخنا الطويل أخذ دخانه يزحف علينا ويخنق أنفاسنا.

وفى ركاب الاستعمار المشئوم انسابت ألوان من الإلحاد تغرى بترك الدين وطلب اللذة، ونبذ الصلاة واتباع الشهوة، وذكر النفس ونسيان الله.

ولما كان الإسلام طريقة حياة، ومنهج تربية، ولما كان لونًا معينًا للتفكير وصياغة محدودة للمجتمع فقد اشتبك مع هذا الوباء الهاجم، والتحم معه فى صراع حياة أو موت.

وقد قدرت الأمة الإسلامية فى ميادين شتى على مغالبة هذا البلاء والنجاة من فتنته

إلا أن أمامها أشواطًا صعبة للخلاص الكامل من الشرور التى خلفها، وهى شرور كثيرة منوعة.

وربما جاش فى صدرى هذا السؤال:

ترى أيستطيع المسلمون مع نهاية هذا القرن ـ الرابع عشر للهجرة ـ أن يغسلوا رقعة وطنهم الممتدة فى القارات الثلاث من كل آثار الاستعمار؟ وأن يطاردوا ـ مع جيوش الاحتلال المنسحبة، وقواعدها المنهارة ـ بقايا التحلل والفسوق المبعثرة فى جبهات عريضة؟

إن هذا الأمل ليس بعيد التحقيق ولكنه ثقيل التكاليف.

وقد دخل الإسلام من قبل فى ظلمات مماثلة أو أشد، ثم خرج منها خروج البدر من بين أطباق السحب، لم تنقص صفحته ولم يخب شعاعه.

إن الكر والفر أخلاق مألوفة فى تاريخ الجهاد وسيرة المجاهدين، فلا غرور بنصر، ولا يأس من هزيمة.

لكن استعادة أمجاد الإسلام غاية شاقة التكاليف كما ألمحنا، وهى تتطلب قبل كل شىء أن تنخلع من أساليب العيش المفروضة علينا من وراء الحدود ـ أعنى العيش للنفس ومآربها ـ وأن نفكر بجد فى العيش لله، ولدينه.

وهذا كلام يبدو غريبًا.

بيد أنه الحقيقة التى يشير إليها كل شىء فى قصة الهجرة النبوية.

إن سبب الهجرة وهدفها معًا، إرادة الإنسان وفق عقيدته التى ارتضاها، وإحساسه أن البيئة التى احتوته لا توائم عقيدته، فهو يدعها إلى بيئة أخرى يستطيع أن يفرض عليها إيمانه أو تستطيع أن تلين هى لمطالب إيمانه.

أما قبول العيش على أى نحو فلا مكان معه لهجرة ما.

والعيش لله وحده شعار معروف لصاحب الرسالة الإسلامية الذى أجرى الله على لسانه ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾.

وجماهير المسلمين مكلفة أن تسير وراء رجلها الأول تحت هذا الشعار المتفانى فى الله، الذى يكرس الجهد والوقت له، جل شأنه.

وعند التأمل نجد الناس أنواعًا: منهم من يحيا كما يشتهى، لا يعنيه من الدنيا إلا إدراك لباناته وإشباع حاجاته.

ومنهم من يحيا بدين، فهو يضبط سلوكه بقواعده، ويحكم ربه فيما يفعل ويترك.

ومنهم من يحيا للدين، أى من يصبح ويمسى وانتباهه مشدود وراء غايته المقدسة فهو يحزن ويفرح، ويهدأ ويقلق، ويخاصم ويسالم، ويسافر ويقيم من أجل دينه.

والإسلام عدو للصنف الأول، صديق للصنف الثانى، غير أنه يتبوأ مكانته فى العالم بالصنف الأخير، وما أحوج الإسلام فى يومه هذا إلى رجال كثير من هذا الطراز الذى يعيش له متجردًا متفردًا، يرى لذته فى نصرة الحق وسحق الباطل، وأن تكون كلمة الله هى العليا، وكلمة أعدائه السفلى.

إن هلال المحرم يشق طريقه فى الدجى كل عام ليذكر الناس جميعًا بهذه الحقيقة فى تاريخ العقائد، فإن ترسيخ الإيمان فى عالم نافر منه ثائر عليه لا يستطيعه المرتزقة ولا المحترفون، ولا أنصاف المؤمنين، ولا الحرص على متاع الحياة، إنما يستطيعه الذين وصفهم الكتاب العزيز بقوله: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

ولانتصار العقائد منطق يجب أن يعرف.

تنتصر العقائد بين الناس بعد ما تنتصر فى نفوس أصحابها.

هذه حقيقة يجب أن يعرفها حملة المبادئ، وأن يطمئن إليها نقلة المثل العليا إلى الناس.

فإذا حدث أن وازن الإنسان بين عقيدته ونفسه فرجحت نفسه، أو بين عقيدته وماله، أو بين عقيدته ومتعه الخاصة، فرجحت متعه الخاصة، فمعنى ذلك أن العقيدة أهون لدى صاحبها من كل ما يملك أو يهوى، وسوف يبيعها فى أول مساومة ويتخلى عنها فى أول صدام!

أما إذا غالى الإنسان بعقيدته، فسفك دونها دمه، وبذل قبلها ماله، وضحى فى سبيلها براحة البدن، وسكرة اللذة، وطيب العيش، فقد صدق فى إيمانه، ووفَّى لعقيدته، ونجح فى محنته، وكسب النصر لدينه، والخير لنفسه معًا.

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد

لنفسى حياة مثل أن أتقدما

وذلك المعنى الرائع هو الذى ملأ نفوس المؤمنين قبل الهجرة، فلما دخلوا مع العالم كله فى (معركة المصحف) بدأت الخسائر تنزل بهم متلاحقة، وظلوا مروعين فى أنفسهم وأهليهم بضعة عشر عامًا، وكانت دورهم وأموالهم بمكة آخر ما نزلوا عنه فى سماحة ورضا... دون أن يفرطوا فى ذرة من إيمانهم، أو يقبلوا لدينه فى دينهم، أو يميلوا قليلاً مع تيار الكفر المناوئ لهم، حتى لقد فهم المشركون أن ارتداد الشمس فى مدارها أقرب إلى الوقوع من ارتداد مسلم عن دينه.

لقد انتصرت العقيدة فى نفوس هذه الفئة المكافحة انتصارًا حاسمًا، وفداها أهلها بكل غال وثمين، فلم يبق إلا أن تأخذ جزاءها الحق، وأن ترفرف أعلامها بين الناس أجمعين، وأن تنحنى لها الهامات إجلالاً وإكبارًا.

ولو كانت هامات الخصوم والمكابرين.

إن هذه الحقيقة ـ انتصار العقائد فى نفوس أصحابها ـ تكملة حقيقة أخرى، وهى أن أهل الخير، إن فاتهم تأييد أهل الأرض بعد ما يبذلون كل ما لديهم من طاقة، فلن تخذلهم فى كفاحهم المقدس قوى السماء!

وذلك سر التحدى فى قول الله تعالى للناس: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾.

أجل.... فما كان الله ليذر المخلصين من عباده دون أن يشرفهم بالنصر الموعود، بيد أن للقدر الأعلى أسلوبًا فى سوق النصر يعلو على مستوى العقول، فما تقول فى أمر ظاهره هزيمة وفرار، وباطنه تأييد وانتصار؟

لقد كانت الهجرة خاتمة سيئة لجهاد طويل فى مكة، هكذا بدا للسطحيين من

الناس، ولكن القدر العزيز جعل من هذه النهاية المحزنة نقطة التحول فى تاريخ الدعوة الإسلامية كلها، وبداية الفوز المكين والغلب الساحق.

ذلك أسلوب القدر الحكيم! لا يزال يتكرر مع الزمن، شر فى باطنه خير، وقتل فى أعقابه حياة، وتراجع يتبعه التقدم والانطلاق!

ويجب أن يستيقن الناس فى هذا العصر من (عمل السماء) لتأييد أهل الحق، فإن من القوانين الاجتماعية الثابتة أن الله جل شأنه لا يدع فئة أخصلت له قلبها وأسلمت له وجهها وكرست له جهادها.

ومهما كانت تلك الفئة قليلة، ومهما كانت القوى المناوئة لها كثيرة فإن الله لا بد ناصر أولياءه، خاذل أعداءه، وإن طال المدى وشق الطريق.... ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

بيد أن ذلك يحتاج إلى إيمان بالغيب، يغلب كآبة الحاضر.

إيمان بما وعد الله من نصر، وغنى، وإن كان اليوم موجعًا بأسباب الضعف، والفاقة.

هذا الإيمان بالغيب، هو الأمل الذى يستدفئ به المجاهدون فى ليالى العراء، ويهزمون به موجات البأساء والضراء.

إنه ليس أملاً مبهمًا فى المستقبل البعيد، ولكنه الأمل الراسخ فى جنب الله الكبير، نِعم المَولَى ونِعم النصير.

والأمل فى الله، من هذا الصنف المؤمن الحارس للحق على مر العصور ما خاب قط... ولعل مثله الأكبر، هذه القلة الصبور من مؤمنى مكة الذين استقاموا مع منطق الإيمان الحى، فإذا هم بعد سنين -غير طوال- عالم مكتمل الحضارة، غامرو الضياء.

٧ـ كلمة المؤتمر العالمى الرابع والعشرون لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة بالمملكة العربية السعودية

المملكة العربية السعودية ٢٤ ـ ٢٩/ ٢/ ١٣٩٧هـ/ ١٢ ـ ١٧/ ١٩٧٧م

مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة عدد (٣٦) جزر (١٣) صفحة (١٤٦)

السلام عليكم..

نحن فى عصر تبرجت فيه الدعوات، وافتتنت فى عرض محاسنها أو ما تزعمه لنفسها من محاسن، وحدث ذلك فى وقت أصيب العالم الإسلامى فيه بأزمة طاحنة فى الدعاة، وقلة مستغربة فى الرجال، الذين يفقهون هذا الدين، وينقلونه من قلب إلى قلب، ومن قطر إلى قطر، وكانت نتيجة هذا التفاوت مرة أراجت الشيوعية مثلا، وقلت فى كتبى: إن رواج الشيوعية لا يعود إلى جودة السلعة ـ بل إلى نشاط العارضين، وأنه لأمر مؤسف حقًا أن يتخاذل الحق برجال تكاسلوا فى عرض مبادئه، وأن يتقدم الباطل ويوغل.. لأن له رجالا نشطوا فى عرض مفترياته. الأمر خطير بلا شك، ونحن الذين نعمل فى مجال الدعوة، نشعر بأمور كثيرة، لعل أول ما نشعر به: إننا ثمرة لرجال أدوا ما عليهم لله فى نشر الدعوة.

وكما قال أخونا الندوى (أمس):

أنا فى الهند، من عرفنى الإسلام؟ ومن شرح صدرى به؟ إنهم دعاة.. من هم؟ الله يعلمهم..

أنا من مصر، من الذى أنار لى حقائق هذا الدين وجعلنى ممن يتكلمون ويعيشون له؟ رجال عسكريون، علماء، دعاة، نحن ثمرات جيل مؤمن، ثمرة لجهاد مخلص، قام به رجال قبلنا، أدوا ما عليهم لله، إذ لم يحتكروا نور الإسلام لأنفسهم، بل بسطوا

أشعته على دروب العالمين، وجعلوا الناس تتمكن من الدخول فيه والعمل به، إذا كنا نشعر بهذا الجميل لأناس لا نعرفهم، أو نعرف قليلا منهم ـ

فحق الأجيال القادمة علينا أن نقدم لها الدين الذى وصل إلينا، وأن نقدمه كاملاً غير منقوص، لنرجو به ثواب الله، كما قدم غيرنا هذا الدين إلينا راجيًا ثواب الله.. هذه واحدة..

الشيء الثانى أننا نحن المسلمين نبلغ الآن مليارًا من الأنفس. هناك معركة تدور فى صمت عن إحصاءات المسلمين فى العالم، ربما جعلناهم نصف ذلك أو أكثر قليلاً أو أقل قليلاً ـ لكن المسلمين يبلغون مليارًا من الأنفس، ويشاء الله أن الكم لا يكون له وزنه إن لم يكن معه كيف له حرمته وله مكانته. إن مسجدًا صغيرًا يصل فيه ثلاثمائة مسلم ـ أى عدد الذين حضروا معركة بدر ـ عدد ربما لا يؤبه له.

لكن هذا العدد من المصلين هو الذى كسب معركة الإسلام فى بدر، وحوّل تاريخ البشرية، إن الأيدى المتوضئة التى قادت زمام العالم قديمًا هى التى استطاعت أن تقدم لنا حضارة ضخمة، وأن تصنع الكثير لأن القلة الناشطة لها وزنها، والكثرة العاطلة لا وزن لها، فإذا كان عدد المسلمين الآن مليارًا من الأنفس، فإننا نسأل أنفسنا: كيف يضعف الإسلام ونحن على هذه الكثرة الكاثرة؟

إن الأمر يحتاج إلى تأمل وإلى دراسة، ولنعترف بالواقع، فإن مجافاة الواقع ليست من العقل! المسلمون الآن موزعون على نحو سبعين جنسية أو أكثر، وهذه الجنسيات التى توزعنا عليها مختلفة فى أساليب الحكم، وفى ألوان المجتمع، هناك حكومات مستقلة كما تسمى، وهناك دول المسلمون فيها كثرة ولكن الحكومات فيها لا صلة لها بالإسلام، بل قد تكون صليبية علنا، أو شيوعية علنا، أو علمانية لا لون لها علنا ـ والقاسم المشترك بين جماهير المسلمين ـ أن هناك بيقين انهزاما فى تطبيق الإسلام.

ربما كانت هذه المملكة من توفيق لها أنها حظيت بملك يعتمد على الدين، ويرى شرفه بأن ينتسب إلى الإسلام، لكن أنواع السلطة فى العالم الإسلامى نجح الغزو الثقافى فى إبعادها عن الإسلام، فضرب التشريع الإسلامى ضربة انهار لها، وحكم المسلمون الآن بغير ما أنزل الله. ولما كان القانون أو التشريع هو الحزام الذى يشد تعاليم الإسلام.

فإن هذه التعاليم بقيت بغير رباط يجمعها ويشد عراها، فأخذت تتخلخل وتتراخى وتتساقط، ثم وجدنا من يقول: (التقاليد القديمة لا معنى لها): فغرتنا التقاليد الجديدة، الأخلاق الدينية لا الأخلاق المدنية.

ومن يقول: الأخلاق الدينية أهدأ من الأخلاق المدنية والعبادات هى وسيلة لإقامة الأخلاق فلا ضرورة للعبادات. ثم بدأت العقائد نفسها تترنح إثر ضربات وجهت إليها. وبلغ من أن يقال الآن: التثليث والتوحيد سواء من الناحية المادية والأدبية!

ولهما حق الوجود، ولهما حق الاقتران، ولهما حق الزحف والدخول فى العقول على قدر مشترك! هذه الهزيمة التى نشعر بها يكلف الدعاة الآن بأن يواجهوها!

وأريد أن أقول: أننى لا أكلف داعية بمغامرة! ولنا فى سيد الدعاة رسول الله ﷺ أسوة حسنة، نحن لا نتعجل معركة، نخسر الكثير ونكسب فيها القليل.

إن سيد الدعاة ﷺ ـ بدأ بالتغيير الجذرى عندما بدأ بغزو النفوس، وعندما بدأ بشحن العقول بلغ هذا الشحن مدى أسأل نفسى.. هل وصلنا إليه؟ أقول: لا.

أتأمل فى هذه الآية: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾؟

ما معنى: آذنتكم على سواء؟ أى تركتكم وعلمكم بالحق كعلمى به، أعلمتكم فأنا وأنتم سواء فى معرفة الحقيقة. هذا هو النجاح الحاسم فى تبليغ الدعوة: أن توصل الحق إلى الناس فيعرفوه جيدًا، ثم إذا انصرفوا عنك بعد ذلك فمن هوى غالب أو جحود حاكم، أو عن رغبة فى مشاقة الله ورسوله، أنت بعدها أنصفت نفسك وأنصفت ربك وأنصفت دينك.

لكن كثيرًا من الدعاة الآن ليس لديهم بيان ولا وضوح الرؤية الذى يستطيع به أن يبلغ حقائق الإسلام للناس.. بل بلغ من هوان الأمة الإسلامية أن اليهود الذين سطوا على البيت وطردوا رب البيت منه واقتحموه ـ استطاعوا أن يقولوا للعالم: إنهم أصحاب البيت! وعجز صاحب البيت أن يثبت أنه صاحبه!

بل بلغ الهوان بنا: أن اليهود يقولون: يهودية.. أما العرب فيقولون: لا إسلام.. ولا

نصرانية.. ولا يهودية.. (علمانية) (دولة علمانية)، ومعنى هذا: أننا فرطنا فى إسلام بينما بقى غيرنا فى ظل علمانية أو قوانين مدنية، بقى مستمسكًا بيهوديته أو نصرانية.

وسبب هذا هزيمة المسلمين: أن العرب خانوا الإسلام، وفصلوا قضية فلسطين عن الدين، وجعلوها عربية. فكانت النتيجة أن انفردت اليهودية (وهى عقيدة) والصليبية (وهى عقيدة) بعرب تركوا الإسلام وراءهم ورفضوا أن يجعلوه شعارًا وأن يعيشوا فى ظله. وأى دين باطل إذا التقى بقوم لا دين لهم فالنتيجة واضحة.. إنه سيمرغ وجوههم فى الوحل، ولكن هذه المتناقضات كلها يستطيع الدعاة أن يتغلبوا عليها، فنحن لسنا فى ظروف أسوأ من الظروف التى بدأ فيها سيد الدعاة رسالته. فقد بدأ والظلام من حوله حالك، وكل شبر من أرض الله يتنكر له، ومع الظلمة السائدة، والعداوة البادية ـ فإن صاحب الدعوة العظيم ﷺ استطاع أن يغير الدنيا، وأن يطلع بالإسلام فجرًا على ظلامها، وصبحا ينسخ كل ما فيها من سواد.

نحن لسنا فى ظروف أسوأ من هذه الظروف.

لكننا ينبغى أن نعرف الخطة التى سار عليها. وهذه الخطة تتطلب أمرين: الإخلاص ـ والعلم.

والإخلاص وحده لا يكفى، فرب مخلص قتل صديقة كما قتلت الدبة صاحبها. والعلم وحده لا يكفى، فرب عالم استغل علمه فى تملق السلطات التى تتطلب الرهبة والرغبة، وعاش للدنيا يطلبها! نحن محتاجون إلى الأمرين معا: إلى العلم وإلى الإخلاص.. وتحت هذين العنوانين أمور كثيرة لا نتحدث عنها، لكنى أقول لإخوانى: إن هذه البداية المباركة فى مؤتمر يقوده ناس: أحسن ما نرى فيهم الغيرة على توحيد الله، والرغبة فى تجريد العقيدة من أى بدعة، والعمل الدائب على أن نقتدى بسلفنا الصالح.. هذه البداية فى هذا المكان، فى دار الهجرة تجعلنا نأمل الخير، ونرى أننا هنا نتصارح..

يا إخوانى.. نحن هنا نريد أن نصطلح مع الله، ونتوب إليه ونتحدث عن العوائق أمام الدعوة، وعما تنجح به الدعوة، ثم نؤدى ما علينا فى مصارحة لا مداهنة.. لقد كان صاحب الرسالة قديما يستطيع أن يمر بشيء ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾ لكن الإدهان

ليس من صفات الداعية، الداعية صحيح فى عرض مبادئه، صريح فى توضيح غاياته، وليس لنا من نستحى منه.

نحن فى وجه من يقول بالتثليث ـ فى وجه من يعطل الوجود عن إله يدبر أمره ويشرف على شؤونه فى وجه جاهلية تتبجح بمطاوعة الأهواء وإجابة الشهوات ـ فى وجه هذا كله نقول:

نحن أتباع محمد ﷺ، نوحد ربنا، ونصلح فى هذه الدنيا سيرتنا، لأن أساس النجاة إيمان واضح، وعمل صالح، نحن ننتسب إلى الإسلام ونملأ الدنيا. لقد استطاع أصحاب الدعوات المشوهة أن ينالوا نصرًا كبيرًا لأنهم زوقوا، واستطاعوا فى معاركهم معنا أن يشوهوا ديننا، وكما قال القائل فى وصف هذا الدين:

كاد الليالى وكادته مجالدة وارتد عدوانها من بعد تقتال.

فلنبرز محاسن الإسلام، ولنؤد ما علينا فى استنقاذ أمتنا، وأداء رسالتنا، والله الموفق والمستعان. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله.

٨ـ الإسلام والثقافة العربية
الفكر الإسلامى المعاصر (محاضرات الجمعية الخيرية الإسلامية فى موسم سنة ٩٦، ٩٥، ٩٤) الشرق الأوسط للثقافة والاعلام ط١

تقديم المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجري

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على رسوله الكريم.

مُحَاضِرنا ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ فضيلة الشيخ الإمام الشيخ محمد الغزالى، هو حُجَّة الإسلام فى عصرنا، وهو الرَّجُل الذى تفتحت عقولنا وقلوبنا على مؤلفاته العديدة، والتى تجاوزت الخمسين كتابًا، بخلاف أحاديثه ومحاضراته ومقالاته التى لا تحصى.

ومن جانبى أذكر على وجه الخصوص كتابه (الإسلام والأوضاع الاقتصادية) الصادر سنة ١٩٤٧، والذى صدرت منه بعد ذلك حسب علمى سبع طبعات آخرها سنة ١٩٨٧، وكيف أن هذا الكتاب وأنا طالب بكلية الحقوق، هزنى بشدة وعمق، وأثارنى ووجهنى إلى جانب كان وقتئذ مغمورًا ومجهلاً به وهو الجانب الاقتصادى فى الإسلام، أحاول منذ أواخر الستينات الإحاطة به والتعمق فيه، فإلى أستاذنا الشيخ الغزالى الفضل فيما أصدرته من مؤلفات فى الاقتصاد الإسلامى.

وأستاذنا الإمام الشيخ محمد الغزالى، بالرغم من أنه لا يكاد يختلف اثنان منصفان على أنه واحد من القمم الإسلامية الشامخة التى تعد على أصابع اليد الواحدة فى عالمنا الإسلامى المعاصر، وبالرغم من جهوده الجبارة كداعية وفقيه إسلامى لأكثر من نصف قرن، بل بالرغم من تأثيره الملموس وثقله ووزنه الكبير على امتداد عالمنا الإسلامى الفسيح، تراه متواضعًا للغابة ويلخص رسالته وجهوده المضنية بقوله: (إن كل ما أبغيه هو إنصاف الإسلام من سوء الفهم وسوء الاستغلال).

ولذلك تراه ينعى على الكثرة التى لم تفهم من الإسلام سوى القشور، فاقتصروا على المطالب التعبدية وانشغلوا بالفروع وتصارعوا حول شكليات ومسميات، غافلين عن أهداف الإسلام الكبرى فى إقامة الشورى، وضمان حد الكفاية، لا مجرد حد الكفاف لأقل فرد، وإشاعة المحبة والتعاون بين المسلمين، ليخلصوا لعبادة الله ويسودوا على الأرض ليكونوا بحق كما أراد الله لهم خلفاء فى الأرض.

وأستاذنا دائمًا يؤكد: (إنه من العبث خدمة الإسلام بالنصائح المجردة أو العواطف المفتعلة، بل لا بد قبل ذلك أن نعمل على تخليص أمتنا الإسلامية من ثالوث الفقر والجهل والمرض، فقد أضاعت هذه الأمراض أو الرذائل معنى الإيمان الحى فى نفوسنا).

ويضيف فضيلته: (إن الشعوب العاجزة الكسول، تحط من مكانة الأديان التى تعتنقها، وتهبط بمستوى العقائد التى تنتمى إليها، وإن الأتباع الحمقَى كثيرًا ما يفرضون سفههم على أسمى الحقائق، فبدلاً من أن يرتفعوا معها إلى القمة يهبطون بها إلى السفوح).

ومن هنا يؤكد أستاذنا الجليل بنص عبارته: (إن الأمة الإسلامية كى تكون على مستوى دينها وكى تنجح فى المحافظة عليه، وكى تستطيع إفهامه للآخرين، لا بد أن تكون راسخة القدمين فى شئون الحياة كلها، بل يجب أن تكون سباقة فى شتى الميادين مسموعة الكلمة فى آفاق العلم برًا وبحرًا وجوًا).

وينبهنا فضيلته بأن: (من حق الأمم الكبرى، وهى أمم تحتقر الأميّة العلمية والصناعية، أن تنظر إلى دعاوى المسلمين وأفكارهم وقيمهم، بريبة أو سخرية، ما دام المسلمون نماذج رديئة للتخلف الإنساني).

ويذكرنا فضيلته دائمًا بأن: (قوام الدين الإسلامى هو الديمقراطية السياسية، والعدالة الاجتماعية، وليس فى ملازمة المسجد، أو إطلاق اللحى، أو فرض النقاب.... وأن التدين الصحيح هو عدو الظلم والطغيان، وهو عدو الجهل والفقر، وهو رفض لليأس والاستضعاف).

وختامًا أذكر عن شيخنا شيخ الإسلام فى عصرنا الإمام محمد الغزالى قوله: (إن

النكسة التى أصابتنا فى تاريخنا الطويل، إنما جاءت من فساد عقول العامة، ومن فساد ضمائر القلة الحاكمة).

وقوله: (إن المأساة التى طالما نبهت عليها، هى انشغال العقل الإسلامى بالهامشيات، والذهول عن مشاكل العالم الكبرى فى سياسة الحكم والمال).

وقوله: (إن الصراع العالمى ليس بين الإسلام وغيره من أهواء البشر، وإنما هو صراع بين تطبيقات غبية للإسلام ومسالك بشرية يقظة جريئة).

وقوله: (ما أكثر ما يكاد به الإسلام فى هذا العصر، ولكن ما يكيد به المسلمون أنفسهم أدهى وأمر).

وقوله: (إن مهمتى التنوير لا إلصاق التهم، وغايتى حشد الأدلة لدعوة الحق، فأنا مربٍّ، لا مدَّعٍ عام، وإن لدى من شئون الإسلام والمسلمين ما هو أولى بالاهتمام).

أستاذى الفاضل الجليل:

إننى مهما اقتبست من مؤلفاتك وأحاديثك، فإننى سأظل عاجزًا عن الاغتراف من بحركم الفياض وعلمكم الراسخ وتوجيهاتكم الحقَّة.

فلا أملك فى هذا المقام، إلا أن أتجه إلى الله تعالى ضمن الملايين المقدرين لكم، أن يحفظكم ويرعاكم، لتقدموا للعالم الإسلامى مزيدًا من التنوير والتوجيه، وأن تشهدوا غرس أيديكم بانتصار الإسلام الوشيك على هذا الركام من التخلف الفكرى والمادى، وما ذلك على الله بعزيز.

كلمة فضيلة الإمام الشيخ/ محمد الغزالى

لعل الفتوح الإسلامية كانت أسرع الفتوح فى تاريخ العالم وأبعدها أثرًا، ففى خلال عشرين سنة بعد وفاة صاحب الرسالة الخاتمة، كانت أركان الدول الكبرى تنهار، وكان الاستعمار العالمى يتقلص كما تتقلص الظلمات أمام مطلع النهار..... فقد الرومان أملاكهم فى أفريقيا وآسيا، وتحررت شعوب احتبست قرونًا داخل مصيدة محكمة من البطش.

نعم، تحرر فى الشمال الإفريقى ما يسمى الآن مصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب، وتحرر من آسيا فلسطين وسوريا والأناضول، وحاول الفاتحون تحرير القسطنطينية فعجزوا، ولكنهم حرروا جزر البحر المتوسط تقريبًا.

وكان جناحهم الشرقى فى آسيا قد محا دولة الأكاسرة، ووصل شمالاً إلى جنوب روسيا، وأوغل فى الشرق حتى أخذ أقطارًا من الهند والصين.

إن الدولة الإسلامية الأولى تكونت فى زمن خارق للعادات فى قصره، وأقامت عقيدة لا تزيدها الأيام إلا قدرة على البقاء ومقاومة الأحداث.

ويرجع ذلك فيما أرى إلى أمرين:

الأول: حاجة العالم إلى تعاليم الإسلام، واقتناعه بها، ورضاه عنها عندما بلغته، حتى إن أبناء البلاد المفتوحة سابقوا العرب إلى فقه الإسلام ونشره، وصاروا أئمة للأمصار الكبرى تثق الجماهير بهم وتصدر عنهم.

الثانى: أن أصحاب محمد ﷺ قدموا الرسالة للناس علمًا ذكيًا وثقافة أصيلة، والإسلام من ينبوعه الأول، علم ينير العقول ويمحو الأهواء، لذلك قال الله لنبيه: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

ويكرر هذا المعنى فيقول فى سورة أخرى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾.

إن الإسلام علم واسع الدوائر، وقرآنه الكريم كون مسطور يضارع الكون المنظور فى تفتيق العقول، وتجلية الفطرة، ولولا ما فى آيات القرآن من هدى ونور ما قامت أزهى حضارة فى التاريخ!

إننى أرمق الأفق الذى ينقل القرآن الناس إليه فى كل مجال فاردد قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ ـ تاركين خلالهم القديمة ـ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾.

ثم أشعر بالأسى (للأمية الثقافية) التى لفت جماهيرنا فى أكفانها، وجعلتهم فى هذا العصر آخر الأمم، وأنزلها رتبة.

نعم، هناك أشرطة حية تحفظ القرآن حرفًا حرفًا، ولا تعى منه ما يرفع رأسًا، وهناك عشرات الدول تنتمى إلى الإسلام، تذكرنا بتغلب، وحمير، وصسم، وجديس.

ماذا حدث؟

إن الإسلام الذى سُمى فى وحى الله علمًا، أمسى أهله سواد الأميين فى العالم...

تذكرت الأيام الأولى من عمرى عندما كنت أحفظ القرآن الكريم ـ من سبعين سنة مضت ـ كنا نتعلم (الحساب) فى كتّاب تضمن القواعد الأربع، مترجم عن الإنجليزية ألّفه مستر (تويدى)! قواعد الجمع والطرح والضرب والقسمة نأخذها عن خواجة؟

إن آباءنا وضعوا طائفة من النظريات الهندسية، وبرعوا فى حساب المثلثات والمربعات، فما الذى دهانا؟

إن هذا القرآن يبنى الإيمان على التأمل فى الكون ويقول: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

عناصر الكون ومظاهره هى مصادر الإيمان واليقين، فما يصنع مكفوف لا يرى آية؟ وما تكون معرفته بالله؟

وهل المعرفة المزعومة قادرة على أن تحكم سلوكًا؟ أو تقتحم عقبة؟ أو تدفع إلى مكرمة؟

لقد بدأت بذكر المعرفة الكونية، لأنها من شئون الدنيا التى نستوى فيها مع غيرنا، والتى قيل لنا فيها: (أنتم أعلم بشئون دنياكم)![1].

ابتدع ما شئت! واكتشف ما استطعت! لا قيد ولا حظر.

إن غيرنا سبق سبقًا بعيدًا، وبرز فى كل ميدان، وساند عقائده بما استطاع، فانطلق الباطل فى ساحات الحياة، مدرعًا بالحديد، والتقينا به ونحن نحمل مواريث الوحى، وأيدينا عزلاء وأجسادنا عارية، فلما عدنا كانت هزائمنا مضاعفة، لفراغ اليد والعقل والفؤاد!

والألوف المؤلفة من مسلمى العالم يعيشون أتباعًا مغموطين لأنهم يشترون أجهزتهم المدنية والعسكرية من خصوم العقيدة وكارهى الوحي! وينتظرون من الباعة أن يعلموهم ماذا يصنعون بهذه الأجهزة وكيف يستخدمونها؟

أما ثقافتنا الإسلامية التى استبحرت فى القرون الأولى، فقد رأيت تأليف كتاب فيها سميته (تراثنا الفكرى فى ميزان الشرع والعقل)، والكتاب على وجازيته يلقى ضوءًا على موضوعه قد يحتاج إلى زيادة!

---

(١) (أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ) أو (إِذَا كَانَ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ فَأَنْتُمْ أَعْلَمُ بِهِ، فَإِذَا كَانَ مِنْ أَمْرِ دِينِكُمْ فَإِلَيَّ).
رواه كل من عفان، والأسود بن عامر، وعبد الصمد، ومحمد بن كثير العبدى عن حماد بن سلمة، ورواه حماد من طريقين: عن ثابت، عن أنس بن مالك وعن هشام بن عروة، عن عروة، عن عائشة: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِقَوْمٍ يُلَقِّحُونَ فَقَالَ: (لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلُحَ)، قَالَ: فَخَرَجَ شِيصًا، فَمَرَّ بِهِمْ فَقَالَ: (مَا لِنَخْلِكُمْ؟) قَالُوا: قُلْتَ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: (أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ).
أخرجه مسلم فى «صحيحه» (حديث رقم/ ٢٣٦٣)، وأحمد فى «المسند» (٢٠/ ١٩) (٤١/ ٤٠١)، وابن ماجة فى «السنن» (رقم/ ٢٤٧١)، والبزار فى «البحر الزخار» (١٣/ ٣٥٥) (١٨/ ٩٩)، وأبو يعلى فى «المسند» (٦/ ١٩٨) (٦/ ٢٣٧)، والطحاوى فى «شرح مشكل الآثار» (٤/ ٤٢٤)، وابن حبان فى «صحيحه» (١/ ٢٠١).

إن عندنا مدرسة الفقه والتشريع، ومدرسة التربية والأخلاق، ومدرسة العقائد والمتكلمين، ومدرسة التفسير والحديث، وفنون الأدب من شعر ونثر، وقد تعرضت هذه المدارس للمد والجزر، والغزارة والضحالة، ووضعها الآن يثير الدهشة، فالأدب مثلاً كان فى الجاهلية والإسلام شيئًا له وزن وقيمة، وقد ظل ينحدر حتى فقد وزنه، ثم قيمته، ونحن الآن نقرأ شيئًا اسمه الشعر المنثور يمثل مرحلة من القول أدنى إلى المجون منها إلى الرشد، وفى تسميته أدبًا تجوُّز كبير....!

مع طول العمر، وكثرة التجارب، نستحكم العقل ونهتدى إلى الصواب، وإذا كان ذلك مأنوسًا فى الأفراد، فيجب أن يكون مألوفًا بين الجماعات والأمم!

ونحن المسلمين نحمل رسالتنا من زمن طويل، إننا الآن فى القرن الخامس عشر من تاريخ الإسلام، ذقنا مع ديننا الحلو والمر، والهزيمة والنصر، والامتداد والانكماش. فهل تعلمنا شيئًا مما أصابنا؟ وهل استفدنا من التجارب حكمة تصقل أحكامنا وتضبط خطانا؟

المؤمن لا يلدغ من جحرٍ مرتين، وربما قلَّت استفادة المنافق من الأحداث كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾.

ولست أتساءل الآن عن مدى اعتبارنا من سقوط الخلافة العباسية فى بغداد، أو سقوط الخلافة العثمانية فى الأستانة، أو ضياع الإسلام كله فى الأندلس ثم بدء الانسحاب من أقطار أوربا الأخرى!

مع أن هذا التساؤل مطلوب وتجاهله جريمة.

إنما أتساءل عن المدارس العلمية المختلفة فى الفكر الإسلامى، ماذا حدث لها؟ وأين حطت عصا الترحال؟

ولأبدأ بمدرسة التربية والأخلاق التى اشتبكت فى تاريخنا العلمى بنزعة التصوف وفلسفته.

يجب فض الاشتباك السيئ فى هذا المجال وتنشئة أجيال أزكى نفوسًا من المسلمين المعاصرين لا تفصل بين الإيمان والخُلق، ولا بين العبادة والخلق.

إن الذى شاق الخوارج قديمًا وحديثًا ضعف أخلاقهم وهم يعاملون الناس، واستباحتهم المجنونة للدماء والأموال من أجل فكرة غلبت عليهم أو وجهة ساروا إليها، إنهم لا يتواضعون لله ولا يهضمون أنفسهم لأمر ذى بال!

أعجبنى الإمام ابن القيم وهو يحاور كبير الصوفية فى عصره فيقول متواضعًا:

إذا كنتُ قد عرفتُ شيئًا لم يعرفه الشيخ الكبير، فأنا كالهدهد الذى قال لسليمان: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ والهدهد هو الهدهد، وسليمان هو سليمان!

ومضى الرجل فى كتابه يعارض حينًا ويؤيد حينًا، وكأنه الشافعى الذى قال: (ما جادلتُ أحدًا إلا تمنيت أن يكون الحق إلى جانبه)!

أين هذا الخلق من أشخاص مسعورين، همُّهم الأول، تحقير الخصوم، والنيل منهم، فإذا جادلوا عن رأى لهم، تقمصهم حب الانتصار، وإثبات الشخصية والزهو بين الناس!

إن محنة التربية هائلة فى العالم الإسلامى سواء فى الأخلاق الربانية أو الأخلاق الإنسانية، الإخلاص لله قليل، والصدق مع الناس قليل، والمفروض أن تكون وراء نبينا نتمم مكارم الأخلاق.

لا قيمة لأشكال العبادات إذا لم يكن وراءها مهاد من تقوى القلوب، والدين قبل كل شىء زكاة فى النفس وصفاء فى الروح، وميل إلى العطاء لا الأخذ، وإلى السلام لا الخصام.

ولأمر ما، علمنا نبينا أن أول ثلاثة تسعر بهم النار هم: المراءون بالعلم والجهاد والصدقة، إن المرائى يرى نفسه ولا يرى ربه، إنه مشغول بجاهه ومكانته قبل كل شىء!

وإذا عجز الدين عن كبت الغرائز السوء ومحوها، فإن تطبيقه فى الحياة لن يكون إلا تنفيسًا عن هذه الغرائز ولو أخذ صورة العبادة!

وقد راقبت حركة إسلامية فشلت فى بلوغ غايتها، كانت تضم صالحين كثيرين، ولكن بينهم عصابة، ترى أن تحكم هى بما أنزل الله، وترفض أن يحكم غيرها!

إن حب الرياسة خالطها، وهيمن على خططها وبواعثها، فنشأت عن ذلك فتن هائلة والله وعد بالتمكين، من هدفهم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، قبل أن يكون هدفهم تولى منصب ما.

إن الأخلاق بقسميها (الرباني) و(الإنسانى) هى الإسلام الحق يقول علي بن أبى طالب: (أيها الناس إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: يخرج قوم من أمتى يقرأون من القرآن، ليست قراءتكم إلى قراءتهم بشيء، ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء، ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء، يقرأون القرآن، يحسبون أنه لهم وهو عليهم، لا تجاوز صلاتهم تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية)[1].

والأجهزة الإدارية فى العالم الإسلامى مصابة بمن يعبدون مناصبهم ويستغلونها لمصالحهم، ولا يعرفون أنها أمانات يسألون عنها يوم الحساب.

وعلم القلوب، الذى يسمى الآن علم التصوف، لا يدرى شيئًا عن علل الأمة، بل هو تائه وسط أفكار وفلسفات سقيمة، ثم هو بين العوام، رقص تهتز به الأبدان، وتموت فيه العقول والأفئدة.

واذكر أنى فى صباى قرأت كتابًا يتتبع الأمانة فى مسالك الناس، وأظن المؤلف أمريكيًا، فاستغربت أنه قرّب الفضيلة من الأذهان، وكان عمليًا واضحًا فى إثبات السلوك الشريف ومحو السلوك الخائن، قلت ما أحوجنا إلى مثل هذا التأليف فى ميدان التربية، حتى يكثر الأمناء بيننا!

إن نبينا عليه الصلاة والسلام خلّف لنا ميراثًا ضخمًا يدفع الناس دفعًا فى طريق الكمال، ويصحبهم فى مراحل الطريق بالتوعية والتذكير حتى لا تزِل قدَم أو تعرض ريبة، ما أحوجنا إلى هذا الميراث ونحن نواجه حضارة ذكية، شريرة، مغرورة.

أظن كتب الفقه الإسلامى تبلغ نصف المكتبة الإسلامية، فإن اشتغال المسلمين بالفقه، غلب على ثقافتهم، وتغلغل بين عامتهم وخاصتهم، وإن لاحظنا بحزن أن الاهتمام بالفروع الصغيرة غلب على العبادة والمعاملات.

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه من حديث على بن أبى طالب برقم (١٠٦٦).

أما الفقه الإدارى والاقتصادى والسياسى، فإن البحوث فيه قليلة، ولعل بعضها كان مقلقًا!

وقد كتب تلميذَا أبى حنيفة فى هذه الشئون أبو يوسف ومحن بن الحسن ـ ألّف الأول فى الخراج أو الضرائب، وألّف الثانى فى الشئون الدولية.

والميدان فسيح ليقول الفقه الإسلامى كلمته فى نظم الحكم وقضايا المال وأطوار أخرى جدت فى أنواع المعاملات.

والطريقة التى درسنا بها الفقه فى صبانا الباكر ونحن فى المرحلة الابتدائية بالأزهر جديرة بالتنويه، فقد كنت حنفيّ المذهب كما أراد أبى، وكان زملائى بين شافعية ومالكية، أما الحنابلة فقليلون.

وكنا نتبادل الخلاف الفقهى ونحن نتضاحك! يقول المالكى: الشك ينقض الوضوء، وأقول لا ينقضه، أو يقول: المُفطِر ناسيًا يقضى يومه، وأقول لا يقضيه! ويقول الشافعى: لمس المرأة ينقض الوضوء، وأقول لا ينقضه، أو يقول: ينبغى رفع اليدين قبل الركوع وبعده، وأقول لا يرفع إلا عند تكبيرة الإحرام!

ومع هذا الاختلاف المتبادل، كنا زملاء متحابين، نؤلف المظاهرات ضد الاحتلال الإنكليزى، ونتعاون فى مصالح شتى، وما فكرنا قط يكون هذا الاختلاف، مثار خصام أو عدوان.

ويظهر أن بعض البيئات فى العالم الإسلامى درست فقه الفروع على أسلوب آخر، زرع الجفاء، والفُرقة بين المسلمين.

وأذكر أنى مكثت فى الجزائر بضع سنين أصلى وراء أئمتها، وهم مالكية دون حرج، وفى يوم ما جاءنا حنبلى زائرًا وصلى معنا، وكان يجاورنى فى الصف فرأيته مضطربًا غضبان يوشك أن يعيد صلاته، وأن يأمرنا بإعادة الصلاة!

قلت له: ما بك؟

قال: أرأيت هذا الإمام، يكبر ثم يقول مباشرة: الحمد لله رب العالمين؟

قلت له: الإمام مالك لم يثبت عنده حديث الاستفتاح، ولم يثبت عنده أن يستعيذ

المصلى... وليست البسملة جزءًا من الفاتحة، وله رأيه ولك مذهبك، ألم تقرأ كتاب ابن تيمية (رفع الملام عن الأئمة الأعلام)؟

هذا تنوع وليس اختلاف تضاد، والمرويات الواردة تنسب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام هذا وذاك من الأقوال، فاسكت ولا تحدث بين الناس فتنة!

والواقع أنى أكرهت الرجل على الصمت، وأحسبه لم يصل معنا بعد هذا اليوم.

لقائلٍ أن يقول: ما هؤلاء الأئمة الذين ذكرت أسماءهم وربطتنا بهم، إننا نمضى بعيدًا عنهم وما نحب أن نعرج عليهم!

وأجيب: لكَ ذلك إذا شئتَ، والمهم أن تكون ماهرًا فى القرآن، خبيرًا بالسُنن، ضليعًا فى اللغة، ألمعيًا فى الذكاء، مستغنيًا عن تجارب الآخرين.

إن هؤلاء الأئمة سبقوا فى دراسة الكتاب والسّنة، ولم يجيء أحد منهم بشيء من عند نفسه، وقد عُرفوا بالعلم والتقوى، وخدموا الإسلام جهدهم، ولم يجمعوا الناس حولهم بالعصى أو بالأعطية، إنهم مدارس مجتهدة تخطئ وتصيب، وهم جميعًا مع مالك فى قولته المشهورة: كل امرئ يُؤخذ من قوله ويرد عليه إلا صاحب هذا المقام ـ يعنى رسول الله ﷺ.

وأشهد أنهم قمَمٌ شوامخ فى فقه الإسلام، وفى التجرد لله، وازدراء العاجلة.

وما رأيت أهل علم زهدوا فى تراثهم، أو زعم لأحدهم العصمة، وعلى أى حال فقانون الاجتهاد: أن مَن أصاب له أجران، ومن أخطأ فله أجر واحد.

ورأيى أن باب الاجتهاد مفتوح، ولكن يستحيل أن نأذن لكل إنسان بولوجه، لا بد من رسوخ فى العلم، ورسوخ فى التقوى ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

وميدان الفقه تعمل فيه شعبتان: أصحاب الرأى، وأصحاب الأثر.

وليس معنى الرأى: الهوى، وليس معنى أصحاب الأثر: أن من المسلمين من يترك نصًّا واردًا، وأن الطبائع العقلية للبشر مختلفة، فقد يفهم واحد من النص، ما لا يفهمه غيره.

وتدبر حال الصحابة فى تنفيذ قول الرسول: (مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلِّيَن العصر فى بنى قريظة)[1].

وتدبر حال داود وسليمان حين اختلفا فى عقوبة من ترك قطِيعه يُفسد الحَرثَ: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾.

إن الخلاف واسع بين أهل الرأى وأهل الأثر فى قضايا كثيرة، بعضها فى العبادات، وبعضها فى المعاملات.... لكن ما قيمة هذا الخلاف؟

إنه فى بعض الفروع والتفاصيل، وما يجوز أبدًا أن يفسد وِدًّا أو يوقع خصامًا.

الأساس الذى نحرص عليه هو العقائد والأخلاق، إننى أميل إلى مدرسة الرأى مع احترامى لأحمد بن حنبل وتقديرى لصلابته وتقواه... وأشعر أحيانًا بأن الخلاف ـ فى الفروع والتفاصيل ـ جزء من المجتمع الواحد ففى الولايات المتحدة حزب للديمقراطيين وآخر للجمهوريين، إنهما متفقان فى الولاء لدولتهم والانتصار لها عالميًا، ومع ذلك فالجدال بينهما مستمر فى شئون شتى.

فلماذا يتطير البعض من الخلاف الفقهى عندنا، وينادى بالويل والثبور وعظائم الأمور؟

أفدت من تجار كثيرة، أن درسًا فى الطب أو الفلك أجدى على الإيمان من حوار فلسفى طويل، وذلك نهج القرآن الكريم. فإنه يكشف عن الحق برؤية آيات الله فى الأنفس والآفاق.

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾؟

بعد ساعة من تناولى الطعام أقول لنفسى بدأ العمل فى إخراج الحى من الميت والميت من الحى، كيف؟

---

(١) قَالَ النبيُّ ﷺ يومَ الأحْزَابِ: (لا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ العَصْرَ إلاَّ فى بَنِى قُرَيْظَةَ فأدْرَكَ بَعْضُهُمُ العَصْرَ فى الطَّرِيقِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لا نُصَلِّى حتَّى نَأْتِيَهَا، وقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ نُصَلِّى، لَمْ يُرِدْ مِنَّا ذلكَ، فَذُكِرَ ذلكَ للنبيِّ ﷺ فَلَمْ يُعَنِّفْ واحِدًا منهمْ). أخرجه البخارى فى صحيحه من حديث عبد الله بن عمر برقم (٤١١٩).

إن الطعام ـ وكان مادة جامدة ـ أخذ يتحول داخل جسمى إلى دماء فيها الكرات البيضاء والحمراء وإلى شعْر وأظافر، وإلى عظام ولحوم شتى.

فلحم الكبد، غير لحم الرئتين، غير لحم المخ! وللخلايا خصائص وراثية وطارئة، وللغُدد وظائف تقوم بها، ونحن لا ندرى، والروح الذى يتخلل هذه المادة يجعلها خلقًا آخر، ينبعث من الحى القيوم، ليس لدى وحدى بل فى ألوف مؤلفة من الأحياء.... ثم يطرد هذا البدن ما لا يستفيد منه ليتحول من بطن الأرض شيئًا آخر. قد يصير سنابل حافلة بالحبوب أو نخيلاً مرصعة الصدر بالطلع النضيد أو كرومًا يتدلى منها العنب عناقيد كثيرات الذهب!

أأنا أو أنت وراء هذا التحول؟ أم رب الأرباب؟

لو كان لأوامر الله ـ وراء كل خلق ـ صوت يسمع، لصُمّت الآذان من كثرة الأوامر بالإنشاء والتكوين، ما أجمل الله، وأحلى صُنعه! أحيانًا أردد هذا الغناء:

يا غائبًا لا يغيب ... أنت البعيد القريب!

مهما تغب عن عيونى ... فأنت أنت الحبيب!

إن الإسلام فطرة سليمة، وعقل سوى، وصراط مستقيم، وهو طبيعة العلاقة بين مادة الكون وبارئها الأعلى، ولذلك اتجه الوحى إلى محمد ﷺ بهذه الآية: ﴿قل أغير الله أبغى ربًا وهو رب كل شىء....﴾

وقوله: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

ليس فى العالم إله آخر! أين هو؟ وماذا يصنع؟

إن الشِّرك وهمٌ لمغفل كبير، أو حلمًا لنائم منفوخ البطن مسهد المضجع!

ومع ذلك فالجاهلون بالله كثيرون، ويخيل إليّ أن جريرتهم بقدر ما تعود إلى غبائهم تعود إلى تفريط المسلمين فى خدمة الحق وفتنة الناس عنه والعجز المستغرب عن اقتياد التائهين إليه.

ليس بين المسلمين خلاف فى العقائد، فهم مجمعون على أن الله واحد، حقيق بكل كمال وأن لقاءه حق.

﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾.

وقد تسللت إلى العقائد المقررة أفهام وأوهام من وضع الناس، لا يعرفها القرآن الكريم ولا يقرها... وحسبنا كلام الله.

خذ مثلاً: مبحث الصفات الإلهية: أهى عين الذات أم غير الذات، أم لا عين ولا غير؟

وهذا تساؤل سمج يجب دفنه ومنع اللغط فيه.

خذ مثلاً: أعمال الناس أهى من خلقهم أم من كسبهم وهل هم مخيّرون، أم مجبرون؟ وهذه أسئلة بالغة السخف، والمشتغلون بها هاربون من مستشفيات المجانين، ومن قال لا عقل لى، ولا إرادة فعلاجه العصا!

وفى مباحث العقائد هل البعث للأجساد الأولى أم الأجساد مماثلة؟ وهذا كلام ولدته البطالة ولا قيمة له!

لعل أفضل ما يغرس الإيمان الحق، هو منهج القرآن نفسه، وقد قرأتُ من مؤلفات العصر الحاضر كتاب (العلم يدعو إلى الإيمان)، وكتاب (الله يتجلى فى عصر العلم)، ولو طُعِّم هذا الكتابان ببعض الآيات القرآنية لكانا أفضل من كتب كثيرة عندنا ألفت فى العقائد.

وقد سألنى أحد الناس: هل فى القرآن مجاز؟

فقلت له: كيف تفسّر قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، هل السدود هنا سد أسوان وسد الفرات؟!

إن المجاز موجود فى لغة العرب وفى لغات الناس الأخرى، ومع ذلك فما دخل هذا فى العقائد؟

قال: هناك من ينكر بعض آيات الصفات ويتكلف تأويلها.

قلت: هناك مرويات تتصل بذات الله تعالى لا يليق بالعقل البشرى أن يحاول معرفة كنهها، إن البحث وراء المادة ليس من وظيفة العقل البشرى.

وهناك مرويات يستحيل تركها على ظاهرها ولا بد من تأويلها مثل (.... مرضت فلم تعُدني)[1] و(... كنتُ سَمعَه الذى يسمعُ به ورِجله التى يمشى بها)[2]، ومع ذلك فما معنى اشتغال الدهماء بهذه المرويات وعكوفهم على ترديدها؟

هذه بطالة مقنعة وتسكع فى طريق الحياة لا مساغ له.

إن سلفنا الأول كان سليم الفطرة، خالص النية لزم الجد فى الأمور، فحكم الدنيا بدينه، ولو اهتم بهوامش العقيدة التى افتريناها ما أحرز نصرًا ولا فتح بلدًا.

عندما شرف الله العرب بحمل الرسالة الخاتمة، حذرهم الفُرقة وأوصاهم بالجماعة، وقال لهم كما قال لمن قبلهم: ﴿أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾.

وقد ظلت الثقافة الإسلامية طوال ألف عام أو يزيد، توفر للأمة عناصر الوحدة وتجعلها أمام عدوها جبهة واحدة.

لا الفقه المذهبى، ولا هوامش العقيدة، ولا الأخطاء السياسية الفاحشة، أفلحت فى تقطيع الأمة الإسلامية، وتمكين أعدائها منها حتى ظهرت بدعة القوميات فى العصور الحديثة وانتقلت جرثومتها إلى أرضنا فإذا هى بلاء يهدد الحاضر والمستقبل، وكان ظهور (القومية الطورانية) فى تركيا أول الغدر بأمتنا الكبيرة وأول زلزال يصدع بناء الخلافة المعتلة!

واليهود نقلوا هذه الجرثومة إلى تركيا، انتقامًا من السلطان عبد الحميد الذى رفض باسم الإسلام أن يستوطنوا فلسطين، ومع أنهم أغروه بالمال ـ وكان إليه محتاجًا ـ فقد أَبَى، ومع أن أوروبا كانت تظاهرهم فقد شعر الرجل المؤمن بأن تسلل اليهود إلى فلسطين تمهيد لضرب الإسلام نفسه فى أوطانه كلها.... فماذا يفعل اليهود؟

لجأوا إلى الغزو الثقافى، واستعانوا بقوى خفية وأخرى جلية على إنشاء (جمعية الاتحاد والترقي) ونشروا مبادئها القومية بين ضباط الجيش.

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه من حديث أبى هريرة برقم (٢٥٦٩).
(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه من حديث أبى هريرة برقم (٦٥٠٢).

فقامت ثورة أودت بالخليفة، وكان رد الفعل نشؤ القومية العربية التى ظاهرت الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى حتى انتصروا، وتمخضت هذه الفتن الهائلة عن سقوط الخلافة الإسلامية فى العالم.

وتتابع الانهيار حتى قامت ثورات مشابهة للثورة الكمالية، استغنت بالقومية عن العقيدة، وجعلت الإيمان ـ إلى حين ـ ضيفًا ثقيلاً ينتظر منه الرحيل!

إن جماهير المسلمين لا تتنازل عن دينها، ولا تعدل بجامعته شيئًا، والذى حدث أن الاستعمار العالمى أول ما نزل ببلادنا ألغى الشريعة واستبدل أحكامه الوضعية بأحكامها السماوية! ثم وضع خططًا بعيدة المدى للإجهاز على بقايا الإسلام من أخلاق وعبادات وتقاليد، واستعان على بلوغ أغراضه بنفر من الطامعين والمنحلين وهو يتربص بنا الدوائر وينتظر مع مرور الزمن أن يمحو الإسلام كله من على ظهر الأرض!

والحرب بيننا وبينه سجال، وهى حرب رحبة الميادين، وأسلحتها لا حصر لها... لقد استطاع أبو بكر أن يهزم أعداء الله فى أول قتال مع المرتدين، فهل يستطيع رجالات الإسلام فى القرن الخامس عشر للهجرة أن يستعيدوا شرائع الإسلام التى عطلت؟ وأن يحموا العبادات المهددة بالزوال، وأن يستبقوا المعروف معروفًا والمنكر منكرًا؟

إذا انهزمنا فى هذه المعركة فلن يبقى على ظهر الأرض مؤمن.

شبكات التنوير فى تعاليم الإسلام ترسل أشعتها على جبهات عريضة ومسافات بعيدة، لأن الوحى النازل على محمد جامع مانع، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾.

وعندما يكون الدواء مركبًا من سبعين عنصرًا، فإنه لا يحصل الشفاء الكامل، إذا نقصت منه بضعة عناصر، بل قد يوصف الدواء والحالة هذه ـ بأنه مغشوش، ولعل ذلك ما بيّنه الرسول الكريم فى قوله: (الإيمان بِضعٌ وسبعون شُعبة، أعلاها لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شُعبة من الإيمان)[1].

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه من حديث أبى هريرة برقم (٣٥).

إن هذه الشُّعب تتناول شئون الحياة جميعًا.

فالإسلام ينظم شئون البيت، والشارع، والمدرسة، والديوان، وعلاقات المرء مع نفسه، والآخرين وواجباته فى الحرب والسِّلم، وضوابط المعاملات الاقتصادية الرحبة.

وهو يعتبر الإنسانية رحمة عامة توصل بالتعارف والخُلق، كما توصل الرحم الخاصة بالتزاور والعطاء، وفى الكتاب المبين والسُنن الشارحة ما يوضح جوهر هذه الرسالة العالمية الخاتمة.

والمفروض أن يعرِّف المسلمون رسالتهم كما نزلت إليهم، وأن يبيِّنوا للناس كافة، وأن يكونوا فى حياتهم الداخلية صورة حسنة لها، وإذا وقع قصور فى الفهم أو تقصير فى البلاغ فهم مسئولون عن ذلك فى الدنيا والآخرة.

ولست هنا أسائل نفسى وقومى عما كان منا وما نزل فى هذه الأيام النحسات فإن أيام المد ذهبت، وأعقبها جزر مزعج، وعلى قدر الجبهة التى عمل الإسلام فيها، جاءت ضربات الاستعمار السياسى والثقافى، وعلى قدر السعة فى ثقافتنا الإسلامية كان الغزو العلمى والمدنى الذى تعرضنا له! كان اقتحام أخلاقنا يتم فى وقت واحد مع اقتحام حدودنا.

وإنى لأدرس المسرحيات التى تعرض من خلال وسائل الإعلام المختلفة، فأشعر أنها تبدل ثيابنا الداخلية والخارجية، كما تبدل فى الوقت نفسه أحكامنا على الأمور، وتصورنا للحاضر والمستقبل!

وإن سقوط بغداد وقرطبة أقل فى نظرى من سقوط أحكام العبادات والمعاملات! ورضا العامة والخاصة بتعطيل النصوص، وتحقير المثل الإسلامية أبشع فى نظرى من نهب خيراتنا وتحقير أوضاعنا.

ومن هنا فإن إحياء الثقافة الإسلامية الصحيحة وتكوين جيش شجاع للمحافظة عليها فى الداخل والحديث عنها فى الخارج، أهم ألف مرة من تحقيق الاستقلال السياسى لبلد ما فى إحدى القارات.

ما قيمة هذا الاستقلال إذا فقدنا فيه علاقتنا بكتاب ربنا وسُنة نبينا؟

مسالك أهل الكتاب من قبلنا كانت السبب الأول فى المعركة بين العلم والدين.

وقيام عصر الإحياء فى أوروبا بعيدًا عن الوحى كله!

ويبدو أن القوم لم يتغيروا فقد وقعت أخيرًا معركة فى الكنيست الإسرائيلى بين وزير الخارجية وبعض الحاخامات، سببها أن الوزير قال: (وليس كل ما فعله الملك داود جدير بالإعجاب)!

يشير إلى ما نسب إلى داود فى العهد القديم من اقتراف جريمتى الزنا والقتل، قالوا: زنى بزوجة (أُوريا) الحثى ثم أوصى بقتله فى الميدان حتى لا يعود، ولا يسترد المرأة من عشيقها الملك![1].

لقد غضب الحاخامات من هذا التعريض، وقالت إذاعة لندن أنهم سيحرجون الحكومة كلها فى أول اجتماع.

ونترك بنى إسرائيل لنرمق تاريخ الكنيسة القريب والمعاصر.

لقد جاءت من أوروبا إلى إفريقية، لتبشر بالمسيح حامل الألم عن هذا الورَى ـ كما يقول شوقى ـ فماذا فعلت؟ تركت فى وسط إفريقية عشرة ملايين إصابة بالإيدز، وهى تنشر الدين!

لقد حكمت بالموت على من قال: إن الأرض كرة تدور حول الشمس، أما اقتراف الزنا فحسبُ مَن فعله أن يعترِف ويحيا آمنًا.

إن تزوير الدين على هذا النحو أزرَى به، وزهد فيه، وأعطى الحكم العلمانى ألفَ سبب ليحل محل الدين، ويبتعد عن الوحى كله.

ونحن دعاة المسلمين نلقَى العنَت حين نقدِّم القرآنَ للناس، لأن سيرة المسلمين

(١) وهذا من أكاذيب اليهود على أنبياء الله: [(٢) وكان فى وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك، فرأى من على السطح امرأة تستحم. وكانت المرأة جميلة المنظر جدا (٣) فأرسل داود وسأل عن المرأة، فقال واحد: أليست هذه بثشبع بنت أليعام امرأة أوريا الحثى (٤) فأرسل داود رسلا وأخذها، فدخلت إليه، فاضطجع معها وهى مطهرة من طمثها. ثم رجعت إلى بيتها (٥) وحبلت المرأة، فأرسلت وأخبرت داود وقالت: إنى حبلى] انظر: العهد القديم، سفر صموائيل، الإصحاح الحادى عشر.

مع دينهم لا تشَرِّف، ولأن المُعجبين بالحضارة الحديثة يرونها أقرب إلى الفِطرة والرشد.

ولا بأس أن أحكى ما وقع لى أخيرًا... جاءتنى رسالة من الأمين العام لمؤسسة كبرى، تعمل على دعم الفضائل والقيم بين الناس، عقدت مؤتمرها الأول فى (شيكاغو) وتستعد لعقد مؤتمرها الثانى لمناسبة مرور ٥٠ عامًا على تأسيس هيئة الأمم المتحدة، وقيل لى بعد اختيارى عضوًا:

إن مؤسستنا عالمية تضم رجالاً من كل دين سماوى أو أرضى، بل تضم أعضاء لا يؤمنون بأى دين، المهم أنهم يدعمون الأخلاق الفاضلة، ويحترمون المُثل العليا التى يجب أن تحكم العالم، وأنا رجُل شرقى الأول والأخير، إنى أقول وراء محمد: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾.

أنا أشعر حين آكل بأن الله هو الذى وضع اللقمة فى فمى، وحين أفكر بأن الله هو الذى أسرج مصباح عقلى، أنه يستحيل أن أكفر أو أسوّى بين مؤمن وكافر أو أشترك مع عابد عِجل أو عابد نفسه وحدها فى عمل ما، لرفع مستوى البشر...!

شعرتُ بأن أهل الأديان تلاحقهم تهمة خطيرة، أنهم لا يهتمون بتزكية الروح، وأنهم قد يدفعون المظالم عن أنفسهم، لكنهم لا يدفعونها عن غيرهم!

إن طقوس العبادات أرجح لديهم من حقوق الإنسان، فكتبت رسالة مطولة أشرح فيها دينى، جاء فيها ما يلى:

شعرتُ بالرضا وأنا أقرأ عن إنشاء جهاز عالمى لدعم الأخلاق والتسامى بالبشر، وقلتُ إن الفِطرة الإنسانية لا تزال طيبة، تعشق الكمال، وتسعى إليه، وتقاوم السعار المادى الذى يربط المرء بنفسه ومآربه وشهواته، ومعروف أن العالم تقاربت أقطاره، واختصرت أبعاده، ونشأت فيه لأول مرة من تاريخه المديد هيئة لأممه كلها، أى أن أبناء آدم أمسوا أسرة تستطيع التقارب والتحاور ودراسة ما يثور من مشكلات، والتعاون على حلها، لكنها ستعجز عن بلوغ أهدافها إلا فى ظل الاكتمال الخُلقى، وكبت غرائز الأثرة والكبرياء، فهل نقصر فى توفير الوسائل المنشودة لتحقيق ما نصبوا إليه؟

إن نبى الإسلام يقول: (بعثتُ لأُتمم مكارم الأخلاق)[1].

ويقول لعلي بن أبى طالب: (ألا أدلك على أكرم أخلاق الدنيا والآخرة؟ أن تصل مَن قطعك، وتعطى من حرمك، وتعفو عمن ظلمك).

ويقول لأصحابه: (ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى، قال: إصلاحُ ذاتِ البين، فإن فسادَ ذاتِ البينِ هى الحالِقة، لا أقُول تحلِق الشَّعر ولكن تحلق الدين).

إننا نحن المسلمين يسعدنا تأليف هيئة تساند هيئة الأمم، وتسدِّد خطاها وتحصنها من المحاباة والهوى.

لكننى ـ ولأكنُ صريحًا ـ شعرتُ بحرجٍ شديد عندما علمت أن (البرلمان) الأخلاقى، فتح الباب للمؤمن والكافر، للموحِّد والمشرك، لمن يعتقد خلود الروح ولمن يرى انتهاء الوجود بالموت!

قد تقول: هذه هى الدنيا وهؤلاء أبناؤها، وقد تكونت الأمم المتحدة من مِلل متناقضة، وتجاورت فى مقاعدها لتدريس قضاياها المختلفة، وما تستطيع هيئة أخلاقية إلا أن تفعل ذلك!

ولى على هذه الإجابة تعليق:

إن النظر إلى الإيمان بالله على أنه قضية ثانوية أو قضية لا صلة لها بالأخلاق، أمر مستنكر عندنا نحن المسلمين، أو هو أمر يثير الاشمئزاز، لماذا يخلق الله ويُعبد غيره؟ ولماذا يُعطِى ويُشكَر سِواه؟ هل العقوق رذيلة إلا فى معاملة الله؟!

إننى لو أجزلتُ العطاء لأحد ثم رأيته يجحدنى لاشتد سخطى عليه واحتقارى له، فكيف أرضَى وجود أفراد أو جماعات تطعم من خير الله صباحًا ومساءً ثم تتجرأ عليه وتنكر وجوده وحقوقه؟

أعتقد أن منكرى الألوهية لا ينبغى أن تعترف بهم، وإذا اضطررنا إلى مجالستهم

(١) أخرجه أحمد (٨٩٣٩)، والبخارى فى (الأدب المفرد) (٢٧٣)، والبزار (٨٩٤٩) باختلاف يسير، ابن رجب فى (لطائف المعارف) برقم (١١٠٩٥٧) بلفظه.

فلنرسم لذلك سياسة خاصة توفق بين عقائدنا وحقهم فى الحياة، مَن يدري؟ قد يهتدون إلى الصواب إذا حاسبناهم.

من دواعى سرورنا نحن المسلمين أن نلتقى بأتباع الديانات السماوية التى سبقتنا فى مؤتمر جامع، لتحسين الحسن، وتقبيح القبيح، وتقوية الفضائل، ومحاربة الرذائل، إن لدينا الكثير الذى نود أن نقوله، والتراث الذى تركه لنا محمد ﷺ لم يترك خطوة إلى الكمال إلا دعمها، ولا رغبة فى التسامى إلا زكاها وشجع عليها، إنه تراث ضخم تضمن مئات الصفحات الحافلة بمكارم الأخلاق، ولا أعرف رسولاً سماويًّا ولا فيلسوفًا أرضيًا خلف مثل هذه التركة!

ومن أراد الاطلاع أو الترجمة دللناه على المراجع التى يحتاج إليها.

ثم إننا نحن المسلمين نحب أن نتعرف على الناس، وأن يتعرف علينا الناس.

هكذا علّمنا ربنا.

فإن الله لم يخلق الأرض لنتهارش عليها ونسفك الدماء، بل خلقها لنرتفق خيره ونشكره عليه.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾.

ونحن نعتب على اليهود والنصارى أنهم لم يبادلوا المسلمين المعاملة نفسها!

قرأت أن يهوديًّا فى مدينة الخليل استولى على بيت عربى، ثم قال لرب البيت: هذا البيت ملكى من بضعة آلاف عام وقد عاد إليّ، ولستُ أطلب منك أجرة سكناه طوال هذه القرون، لقد تنازلت عنها، فاذهب إلى أى مكان وأقم به أو اسكن فى العراء إن شئت ولا تعد هنا وإلا....

هل تستقيم علاقة إنسانية مع هذا المنطق؟!

والسياسة الاستعمارية التى سيرت العالم فى العصور الأخيرة كان هذا المنطق يكمن وراءهـا، فإن الجريمة التى ارتكبها الإسلام كما يرى البعض ـ أنه دحر الإمبراطورية الرومانية التى كانت تحتل الأناضول، وشرق البحر المتوسط، ووادى النيل، وشمال إفريقية، وأقطار كثيرة، أخرجها الإسلام منها وردها إلى أهلها الأولين، الذين اعتنقوا الإسلام بداهة.... !

وورثة الرومان ينظرون إلى مستعمراتهم القديمة كأنها أملاكهم الضائعة يجب أن يستعيدوها... وإلى ملايين المسلمين كأنهم عبيدهم الأقدمون.

ولا شك أن قيام هيئة الأمم المتحدة على أسس إنسانية مجردة، فتح صفحة جديدة فى تاريخ العالم، وكفكف من غلواء الاستعمار السابق.

ولكن هل المنتصرون الذين بنوا هذه الهيئة النبيلة برئوا من ثورات الحقد القديم، وحاربوا التعصب والجشع؟

لعل إنشاء جهاز أخلاقى عالمى يساند الخصائص الإنسانية العليا وينشط الجهود المبذولة لدعمها، ويصل بالهيئة إلى ما تريد، ويقى العالم شرور الانقسام والخصام.

عن أبى ذر رضى الله عنه عن النبى ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل قال: (يا عبادى إنى حرَّمتُ الظُّلم على نفسى وجعلته بينكم محرّمًا فلا تظَالموا)[1].

وفى الحديث أيضًا: (اتقوا الظُّلم فإن الظُّلم ظُلماتٌ يوم القيامة)[2].

والواقع أن من له دين يجب أن يكون شريفًا فى رضاه وفى غضبه، فلا يستبيح خصمًا ولا يجور على ضعيف، بل يقف عند الحق ويستريح للعدل، ويعلم أن النزق والجور من صفات السباع لا من خلائق الإنسان.

ويؤسفنى أن الإنسانية فى تاريخها الطويل احتالت على ارتكاب المظالم، ورأت فى اختلاف البشر ـ قوة وضعفًا، وغنى وفقرًا، وإيمانًا وكفرًا ـ ثغرة تنفذ منها إلى اقتراف ما تريد.

وقد رفض القرآن الكريم أن يعترض العدالة شىء ماديًا كان أو أدبيًا.

﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ﴾.

وفى آية أخرى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ ـ كُرهُهُم ـ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾.

لقد وَهِم الناس أن اختلاف الدين يبيح التظالم ويترك المجال رحبًا للمشاعر

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه من حديث أبى ذر الغفارى برقم (٢٥٧٧).
(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه من حديث جابر بن عبد الله برقم (٢٥٧٨).

المنحرفة والأهواء الجامحة، وهذا كذبٌ على رب العالمين وباعث المرسلين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾.

واذكر ثلاثة أحاديث مروية عن محمد عليه الصلاة والسلام ترد هذه الفرية وتبرئ الإسلام من هذه التهمة.

الحديث الأول: (دعوة المظلوم مستجابة، وإن كان فاجرًا ففجوره على نفسه)[1].

الحديث الثانى: (دعوة المظلوم ـ وإن كان كافرًا ـ ليس دونها حجاب)[2].

الحديث الثالث: عن أبى ذر، قلت: يا رسول الله، ما كانت صحف إبراهيم؟ قال: (كانت أمثالاً كلها، أيها الملك المسلط المبتلى المغرور إنى لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض، ولكنى بعثتك لترد عنى دعوة المظلوم فإنى لا أردها، وإن كانت من كافر.....)![3].

ومن دواعى الدهشة أن يموت نبى الإسلام، ودرعه مرهونة عند يهودى فى طعام اشتراه لأهله! ما أثر اختلاف الدين هنا؟

إن اليهودى التائه عاش قرير العين موفور الدم والعِرض والمال فى عاصمة الإسلام!

هل كانت غربته سببًا فى أن يجور عليه أحد؟ لقد حصّن الحكم الإسلامى حقوقه فعاش ومات لا يشكو شيئًا.

إننا نحترم الرأى والرأى الآخر، وإذا كنا ـ نحن المسلمين ـ نشكو شيئًا فمواريث الضغائن التى نعامل بها فى ميادين شتى، ونرجو أن تزول مع استقرار حقوق الإنسان.

وفَّقكم الله، وسدَّد خُطاكم.

---

(١) أخرجه أحمد (٨٧٨١)، والطيالسى (٢٤٥٠)، وابن أبى شيبة فى (المصنف) (٢٩٩٨٧) باختلاف يسير.

(٢) أخرجه أحمد (١٢٥٧١، ١٢٥٧٢) باختلاف يسير، وأبو يعلى كما فى (إتحاف الخيرة المهرة) للبوصيرى (٦/ ٤٦٨)، والطبرانى فى (الدعاء) (١٣٢١) مختصرًا.

(٣) أخرجه الطبرى فى (تاريخه) (٩/ ١٢٠)، وابن حبان (٣٦١)، وأبو نعيم فى (حلية الأولياء) (١/ ١٦٦) واللفظ له.

٩- التربية الإسلامية

المصدر: كتاب درر لكبار المفكرين (من محاضرة الموسم الثقافى لعام ١٩٩٦) بجمعية أصدقاء مرضى روماتيزم القلب للأطفال، مطبعة جامعة القاهرة ١٩٩٩م

وقد استهل الشيخ الغزالى محاضراته الدينية باسم الله قائلاً:

بسم الله الرحمن الرحيم

أظننى عُمِّرتُ فى الأرض طويلاً وشهدت أجيالاً شتى من هذه الأمة.. ربما فى طفولتى وصباى كنت فى العشرينات لكنى كبرت وبدأت أشعر بما حولى فى الثلاثينات.. أى من ستين سنة تقريبًا الذى وقر فى نفسى أن الناس كانوا أفيض من جماهيرنا التى تعيش معنا الآن ونعيش معها لأننى لاحظت أن البيوت تغلق إغلاقًا خفيفًا يرد الباب وإقفال لها ساذج لا يستعصى على أى يد تريد كسره ومع ذلك يكتفى بهذا وقلما تقع حادثة سرقة.. هناك أمانٌ عام.

بل أستطيع أن أقول لكم: ذهبت واعظًا إلى السودان وكنا قد نزلنا فى فيلات مهندسو الرى فى السودان، وكنا نترك حقائبنا مفتوحة والبيوت تقريبًا مفتوحة، ونذهب إلى أعمالنا ونعوذ فنجد كل شىء فى مكانه كما هو، هذا حدث فى عهدى أنا وقد رأيت هذا فى شبابى فى رمضان كانت البيوت تفتح وكان الناس فى فطُورهم قلما يضعون منهجهم على أساس أنهم يفطرون وحدهم.. فطُورهم يشاركهم فيه أحد.

وأذكر أنى ذهبت إلى قرية فى المنيا وأنا واعظٌ دعانا عضو مجلس النواب فرأيت الناس خرجوا جميعًا يفطرون على شاطئ الترعة جميعًا والأكل مبذول للقريب والغريب، والناس يشعرون بأخوة الإسلام وحنو الإيمان ورحمة الأخوة، ويشعرون بأنهم سعداء بهذا الدين.

الآن ارتفع المستوى الكتابى فأُميَّة الكتابة اختفت قليلاً والناس يقرؤون صحف أكثر مما يقرؤون قديمًا ولكن الأخلاق ساءت والكرم النفسى اختفى.

كان قريبًا كان الناس فيما شعرت أحد أمرين: إما غنى يبذل وإما فقير متعفف، وإذا احتاج إلى القليل وجده عند جاره أو عند قريب له إذا لم يجده صبر.

الآن نعيش فى غابة.. فى غابة أبحث عن ثناء الخُلق ورقة الفؤاد والرحمة العامة التى يتعاشر الناس بها والأمان الذى يعيشون فى ظله فأجد ذلك قلَّ.. قلَّ واختفى فى بعض البيئات فهل هذا تقدم؟ هل هذا الذى حدث فى بلدنا تقدم؟

لا أقول فى بلدنا فقط، بل العَالَم العربى الذى كنت أعيش فيه أنا من أربعين سنة كنت أذهب إلى البلاد العربية وكنت أشعر بأنه رجل الشارع يستطيع أن يقول للملك عبد العزيز: يا طويل العمر اسمع منى.. ويسمع منه طويل العمر ويستوقفه فيقف ويسمع منه.

الآن تغيرت الدنيا وتغيَّرت الأحوال، ويوجد الآن شِبه إجماع على تزويق الصورة وإعطائها شكل ملون فيه بهجة أو فيه خداع، لكن الحقيقة الباطنة خربة.. خربة.

والسبب فى هذا كما فهمتُ وكما درستُ وكما لمستُ بأصابعى فقدانُ الإيمان، قد يكون الناس مسلمين، ولكنى أقول لكم الحقيقة أن الأمر أكبر من هذا، الناس انتسابها للإسلام موجود وكل شخص يكتب شهادة الميلاد أنه مسلم، لكن الإيمان الذى يجعل الناس يأمنون على أموالهم وأعراضهم ويحس أحدهم بأنه مع إخوانه يعيشون فى كنف الله وينتظرون رحمته ويذهبون إلى المسجد وهم يطلبون النجدة من رب العالمين فتأتيهم النجدة، ذلك الأمر قد خفَّ ولا أريد أن أقول اختفى.

فالأمة لا يزال فيها خير، إنما السبب فيما أرى أن مصر بالذات مصر بالذات والعَالَم العربى تبعًا لها، إنما مصر بالذات أمَّة لا يمكن أن تقوم لها نهضة على قلَّة الدِّين أو على انعدام الإيمان أو على خفة العلاقات الروحية بين الناس.

المصريون يوم كان الناس يبحثون عن القُوت فى أوربا وآسيا كانوا يتحدثون فيما بينهم عن خلود الروح وعن قضاء فى الآخرة يحاسبون فيه على ما قدَّموا فى الدنيا، فكان الدِّين أساس الاجتماع.

واسمحوا لى أن أقول: أننى لست غاضبًا ولكنى حاقد على العلمانيين فى مصر وعلى كل مَن يدعو إلى التخفف من الإسلام وأعباءه وحقوقه وواجباته وتعاليمه وتقاليده وتراثه، حاقد عليه لأننى أعتبره مخرِّب، وليس مخرِّب لآخرتنا فقط ولكنه مخرِّب لدنيانا، وكما أنه لا يمكن أن تسير السيارة إلا بالبنزين لا يمكن أن تسير أُمَّتنا إلا بالدِّين، فإذا اختفى الدين فلا ننتظر من أمَّتنا خيرًا فمن أين يأتيها الخير؟ فأمتنا هذه بطبيعتها أمَّة تقوم على التدين.

كل توهين للعاطفة الدينية تخريب للحاضر والمستقبل على السواء، لأن مَن جعل العاطفة الدينية تذكو وتستقر فى أعماق الناس ثم تغذى بالمعلومات وتغذى بما ينميها ويقويها.. أما أن توجد أمَّة بلا دِين فهذا مستحيل.

وكل مَن تقرؤون له وهو يريد أن يتوه الناس عن دينهم وعن إيمانهم وعن تراثهم فاعلموا أنه عدو لنا، وأنه قد يكون مرتزقًا من العمل للصهيونية العالمية أو الصليبية العالمية ارتزاق حقيقى يعمل لها أو على الأقل متأثر بتوجهاتها، فهو يخدمها من حيث يدرى ومن حيث لا يدرى.. والعرب أنفسهم أكان للعرب دور فى الحضارة الإنسانية إلَّا بالدِّين.. فجزيرة العرب من أربعة عشر قرنًا ماذا كانت؟

كانت قبائل تعمل حمَّالين للبضائع بين الشرق والغرب.. بين الهند وبين روما والبحر الأبيض وبلاد الشرق الأوسط عمومًا، فمتى أصبحوا شيئًا له قيمة أو له خطر؟! عندما اعتنقوا الإسلام.. عندما اعتنقوا الإسلام أصبحوا عالمًا آخر فقد كانوا عالمًا ثالثًا أو رابعًا.. كانوا عالم أشبه بالهمج فجاء الإسلام فجعلهم العالم الأول.

فنحن بلا إسلام كالمصريين أو عرب بلا دين لا نساوى شيئًا.. لا نساوى شيئًا أبدًا، وكما قلت لكم لقد رأيتُ بعينى فى قريتنا وفى القُرى التى زُرتها وأنا موظف وأنا طالبٌ صغيرٌ وجدت أثر الدين فى نفوس الناس كان طمأنينة وسلامًا وحياة وتقاليد ضابطة تجعل الناس يتحركون ولهم حدود يتحركون فيها، وقد يصرخون ويتشاتمون، ولكن وراء ضوابط تجعلهم يستحون من الانحدار والسَّفه.

لمَّا ضاع الدين بهذا المعنى وجدنا أمَّة أخرى، وهذه الأمَّة لا تستطيع أن تذكو أو

أن تسمو وأن تتربى وأن تكون لها تقاليد شريفة وأن تنتج فى دنياها وفى أخراها ما ينضر وجهها ويسعدها إلَّا إذا عادت للإسلام.

وهنا أنظر إلى أية من الآيات تقول لى ما هو الدِّين بالضبط.

فى هزيمة أُحد.. الأمة منهزمة ضائعة نزلت آية فى سورة آل عمران سورة المواساة بعد الهزيمة الشنيعة ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لماذا أنتم غاضبون هُزِمتهم فى غزوة لكنكم أصحاب دين، وهذا الدين به خيرٌ كبير لكم ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ هذا أول شىء ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ وذلك ثانى، وثالث شىء ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يريد أن يقول لهم: برغم أنكم هُزِمتم فى أُحد وخسرتم خسارة شديدة ولكن كل ذلك لا شىء لا يهم.. ﴿أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فأنتم السبب، وما من هزيمة أصابت المسلمين من أُحد إلى الآن إلا وهُم السببُ فيها.

فقد كنت أتحدث مع زميل لى أمس فقال: كل ما يصيب المسلمين من هزائم وكل ما قد يقع بهم الآن أو سيقع بهم مستقبلاً من الآلام هم مستحقون له، ولعله يبصرهم بأخطائهم ويعيدهم إلى صوابهم ويردَّهم على الحق الذى تاهوا عنه لعلهم ونرجو.

المهم أن لدينا ثلاث عناصر تمثل الرسائل الإسلامية:

أول عنصر فيها: القراءة أو الاطلاع العام أو معرفة المنهج معرفة عامة قراءة ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ بعد القراءة مباشرة لم يأت التخصص العلمى ولكن قال: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ما معنى كلمة يزكيهم؟

أخصُّ كلمة أو أدلُّ كلمة على معنى هذه التزكية: التربية، يزكيهم يربيهم ومعنى تربية النفس تنمية الخصال الطيبة فيها، وكبح القوى الشريرة والغرائز الرديئة فيها، واستئصال ما يمنع التنمية والتزكية والطيبة والخير فى النفس الإنسانية.

وما أشبه النفس الإنسانية بالأرض التى تزرع.

وبعض الناس يتصور التربية بمعنى أنه يكفى أن نضع وزارة التربية ونضع كلمة

تربية بين التعليم وبين وزارة وكأنما أصبحت الأمَّة انتهى تعليمها وتربيتها، لا المسألة تحتاج إلى برامج، والبرامج تحتاج إلى تطبيق، والتطبيق يحتاج إلى دراسة ومراجعة وتأمل فى النتائج ومعرفة الأخطاء وتجنب لهذه لهذه الأخطاء.

فالتزكية هنا كما قال تعالى فى مواضع أخرى من القرآن الكريم.. والقرآن يفسِّر بعضه بعضًا يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ وأن مَن زكَّى نفسه وفيضها وكملها وحسم الشرور منها فإنه يكون قد أرضَى ربه وقد طابت نفسه.. قد طابت نفسه.

حتى كلمة طاب فى اللغة العربية كلمة تعنى النضج تقول: طاب الطعام أى ذهبت عنه ذهومته وأصبح صالحًا لأن يؤكل أى أنه طاب، ويقال الرَّجل طيب على هذا الأساس.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فمعنى طيبين أى نضجت نفوسهم وصلحت غرائزهم وذهبت شرورهم وبقى خيرهم.

وهذا هو معنى الطيبة.

أما الطيبة الآن فمعناها الغفلة وعدم الفهم والدراية، لكن لا.. لا.. الطيبة هذه ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فطاب المكان وطاب الزمان وطاب الزرع وطاب الطعام، كل هذا إذا بلغ نضجه واستوى، ولكى تطيب النفس لا بد أن تتزكى، وزكاتها بترك الرذائل.

تجد هذا المعنى بتوضيح أكثر فى سورة طه.. السَّحرة عندما قهرهم فرعون بعد أن انهزموا وأكلت عصا موسى سِحرهم قال لهم فرعون: ماذا فعلتم بسِحركم فسوف أنتقِم منكم، فقالوا: لقد فعلنا ما نقدِر عليه أقضِ ما أنت قاضٍ ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ۝٧٢ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝٧٣ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝٧٤ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ۝٧٥ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ مَن تَزَكَّىٰ﴾.

فالتزكية خُلقٌ يتم فى النَّفس على مراحل وعلى أزمنة متتابعة، وليست التربية أن يقول المدرس فى الفصل: كُن صادقًا، أو يقول الواعظ فى المسجد للناس: كونوا أتقياء فيكونوا أتقياء، لا المسألة تحتاج إلى مباشرة الإصلاح فى النفس البشرية ولذلك لا تتم التربية من تلقاء نفسها أبدًا هناك فارق بين النبت الذى ينبت شيطانيًا فهو لا قيمة له أما النبت الذى تزرعه بيدك تحصل منه حصادًا تنتفع به فإنك لكى تجنى ثماره فأنت تقوم على خدمته مِن ريٍّ وتعهد ورعاية حتى يطيب وتأخذ ثمره، وكذلك تربية الإنسان لا تتم تربيته بدون ما سلف ذِكره فالطفل يحتاج إلى رعاية فتتطلع على أحواله وأخلاقه.. كلماته.. مسالكه.. وتقوم بتقويمه فى أماكن اعوجاجه.

هذه هى التزكية أو التربية.

ولذلك فنفس كلمة الخُلق فى الإسلام آتية من العادة.. جماعة هود يقولوا لنبيهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ وكلمة خُلق تعنى.. عادة تعريف الخُلق هو المَلكة النفسية ملَكة نفسية تتكون فى النفس بالتعهد لا يمكن للخُلق أن يتكون شيطانيًا أبدًا.. أين إذًا وظيفة الآباء وأين وظيفة المدرسين؟ فهل وظيفة الأب تنحصر فى إنجاب الأولاد وتركهم بدون تربية؟ فإنه بذلك ينتج للأمَّة ضررًا.

والمدرس الذى يدخل الفصل ولا صلة له بالطلبة سِوى إلقاء الدرس ثم يخرج هل صنع شيئًا؟ لم يصنع شيئًا.

فلا بُد أن يتعهد النبت الذى أمامه هذا ويستطلع كل واحد منهم ففيهم العبقرى لكنه مدفون فى التربية فيزيل التراب من حوله وينمى مواهبه والمعوج يحاول أن يقوِّمه.

وأنا أذكر وأنا فى السنة الأولى الابتدائية الشيخ يقول: إعرب يا ولد (رأيت الله أعظم شىء) فضِمن من رفع يده من التلاميذ رفعتُ يدى وقلتُ: الله منصوبٌ على التعظيم ولم أقل مفعولٌ به منصوب على التعظيم، فبكى الرجل والله بكَى المدرِّس، فانظروا كم كان تأثر المدرس من كلمة فيها صراحة أو استقامة، وأنا قد تعلمت منه هذا الكلام ولكن ماذا أبكاه؟

ولكن الآن تنظر إلى المدرس وللطلبة فلا ترى تلك الروحانية التى تعرف الناس

بالله وتجعلهم يشعروا بأن العلم له مكانة وأنه لا بد من تحصيل شىء ينفع الإنسان، لا.. لا يوجد وطلاب تدخل وطلاب يتخرجوا وأعداد كثيرة ولا خير فى هذا.. فالأمور لا تحسم بهذه الطريقة.

ثلاثة أشياء لا بد منهم للأمة.. أولاً البرنامج الذى يتعلمونه ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَـٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ الأمة تعرف رسالتها.

فمن مصائب العصر الحديث أو الحضارة الحديثة ومن نتاجها المُر أن الأُمم كلها تريد رفع مستوى المعيشة، والله رفعُ مستوى المعيشة مطلوبٌ فسيدنا على يقول: لو كان الفقر رجلاً لقتلته.

ونحن لا نريد الفقر ولكن نحتاج لرفع مستوى المعيشة.. أن يكون هناك هدف، والهدف هو أن تصنع إنسانًا كبيرًا.. إنسانٌ يعرف ربه ويوم أن يعرف ربه ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ فالفدان الذى ينتج عشرة إردب قمح يمكن أن ينتج عشرين، هل أنت الذى تصنع السنابل؟ هل أنت الذى تضع الفيتامينات والسكريات فى الحبة؟

هذا صُنع الله، وكما يضع لكَ إردب فإنه قادر على أن يصنع لك اثنين، لكن على شرط أن تكون صلتك به حسنة لكن تقطع صلتك به وتفكر به ولا تذهب إلى المسجد لتراه وتؤدى حق الله عليك، ثم بعد ذلك تريد أن ترفع مستوى المعيشة أرنى إذًا كيف ترفع مستوى المعيشة؟ شد حيلك اكدح طُول اليوم واركض فى الدنيا ركض الوحش فى الغابة، ولن تجد إلا ما قدَّره الله لك. التربية هدفنا وهى تحتاج إلى جهد، فالشاعر يقول:

قلبى إلـى مـا ضـرنـى داع ... يـطـيـل آلامـــى وأوجـــاعـــي
كيف انتصافى مـن عـدوى ... إذا كـان عـدوى بين أضلاعى

فالنفسُ أمَّارة بالسُّوء.. النفسُ أمَّارة بالسُّوء.. فكيف أتغلَّب عليها وهى ليست فى مكان بعيد ولكنها بين أضلاعى؟

فلكى أغلبها أحتاجُ إلى قوة أخرى تجيء مِن خارج النَّفس تقولُ لى: هناك الله الذى يرزقك، والذى يكلفك، والذى يرقبك، والذى يحاسبك عندما تعود إليه.

اختفاء هذا المعنى من التربية معناه خرابُ الأمَّة ولا تنتظر منها إلَّا قومٌ مهزومين ويحملون أعلى الشهادات ولكن نفوسهم خربة، لأنه لم يتربَّى، وأنا أريد تربية لا أريد علمًا فقط.

إشحن العقل بالعلم واجعل الأنانية التى ولد بها تبقى فى نفسه نامية باقية.. ماذا يحدث إنك تذهب له وهو طبيب فيطلب أجرًا كذا وكذا ولكنه لا يهتم بالكشف عليك لأنه يريد مالاً فقط.

نحن لا نريد هذا، نحن نريد تربية تعود بنا إلى عهود الأولين من آبائنا من السلف الصالح، وحتى ليس من السلف ولكن من أجدادنا الأقربين، فوالله الأقفال المعقدة والأشياء الكثيرة التى ابتكروها للحراسة لم تكن موجودة أيامنا الأولى أبدًا.. كان الباب يُردُّ وانتهى ومع ذلك لا تجد لصًّا يسرق وإذا سرق يسرق شيئًا هيِّنًا.

فأحدُ العرب فى عصر النبيِّ أمسك لصًّا فى حديقته وقد أكلَ حتى شبع وملأ جيوبه من ثمرات الحديقة فضَربه ضربًا موجعًا وأخذه للنبى ﷺ، فماذا قال النبى ﷺ للعربى: ما علَّمتَ إذ كان جاهلاً ولا أطعَمتَ إذ كان جائعًا، ثم قال للص: إذا كنتَ جوعانًا أدخل فكل لكن لا تملئ جيوبك.. وانتهى الأمر بذلك، فالتربية النفسية ليست سهلة.

لأمرٍ ما ربُّنا أرسَل لنا قصة أصحاب الجنة فى سورة (ن والقلم وما يسطرون): ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ ما هو السبب فى أن الله تعالى جناها قبل أن يجنيها أصحابها ومنع عنهم خيرها؟ لأنهم حقدوا على الفقراء وقالوا: لا نعطيهم شيئًا.

وأنا والله عاصَرتُ عصرًا كان فيه الفقراء يأخذون من القمح فى الأجران وهو ينقى، وهؤلاء الفقراء يأخذون العُشْر المطلوب أو من نصف العُشر المطلوب فى هدوء وهو لا يعتبر حق أصحاب القمح، ولكنه حق الله ولكنه يعطيه حق الله هذه التربية.

هذه هى التربية النفسية كما ذكرها الإسلام وهى تأتى بالتكليف لأن الإنسان مطبوع على الأنانية يحب نفسه، ونحن نريد أن نعلِّمه أن يحب غيره. الإنسان فى طبيعته العَجَلة ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ ونحن نريد أن نعلمه الأناة.. الإنسان خُلِق غضُوبًا شرسًا ونحن نريد أن نعلمه الحلم ولا يتأتى ذلك إلا بالتأنى.. بالتكيف، والحديث يقول: (مَن تبصَّر بصَّره الله، ومَن يستغن يُغنِيه الله، مَن يستعفِف يعفَّه الله، إنما العِلم بالتعلُّم إنما الحِلم بالتحلُّم)[1] وهذه هى الأخلاق.

أنا لأن تعلَّمتُ من حياتى ومِن مخالطتى للناس ألَّا أنظر إلى ما يحملونه من شهادات دراسية، وإنما أنظر إلى الأخلاق التى اكتسبوها إذا كانت أخلاقًا رقيقة عالية، أدركت أن ذلك الشخص اختاره الله ليكون من أحبابه وأوليائه، أما إذا كانت مرذولة وكان الإنسان أنانيًا فوالله حتى لو كان وزيرًا.. مَلِكًا لا أمل فيه.

نحن تعلمنا من معلِّمينا أنهم يجعلوا صِلتهم بالله أعظم من أى شىء فى هذه الدنيا، فلقد كان المَلِك يطلب من العَالِم أن يطلب منه أى شىء وأنا أعطيه لك، فيقول: لا، العالم يقول: لماذا أطلب منك أنا أطلب من الله.

وهناك واحد من الصالحين طلب منه المَلِك فى المسجد (أطلب)، فقال له: أطلب مِن حوائج الدنيا أم مِن حوائج الآخرة؟ فقال له: من حوائج الدنيا، فقال له الصالح: ما أطلبه فى المسجد إلَّا من رب المسجد أطلب من الله ولا أطلب منك.

وأنا أريد الناس أن تعود تقواها الأولى... تقواها القديمة.

التعليم الآن إذا كان حشوًا للذهن بالمعلومات فهذا الحشو لا ينتج شيئًا، إنما الذى يعنينى حشو النفس بالفضائل حشو النفس بالأخلاق، وتلك لا تتكون كما قلت فجأة فهى كالصناعة أو الزراعة تتكوَّن على مر الأيام وبالتعهد المستمر، وقد اعتبرها

---

(١) أخرجه أحمد (١١٠٩١) واللفظ له، وابن حبان (٣٣٩٩)، والطبرانى فى (المعجم الأوسط) (٩٠٤٦) بلفظ: (مَن يَتصبَّرْ يُصبِّره اللهُ، ومَن يَستَغْنِ يُغْنِه اللهُ، ومَن يَستَعفِفْ يُعِفَّه اللهُ، وما أَجِدُ لكم رِزقًا أَوسَعَ منَ الصَّبرِ).
وأخرجه ابن الجوزى فى (العلل المتناهية) من حديث أبى هريرة (١/ ١٨٥) بلفظ: (إنَّما العلمُ بالتَّعلُّم والحِلمُ بالتَّحلُّم ومن يبتغى الخيرَ يُعطَهُ ومن يتَّقِ الشَّرَّ يوقَهُ) وقال: فيه إسماعيل بن مجالد، قال: السعدى ليس محمودا وقال الدارقطنى وقد روى من حديث أبى الدرداء موقوفا وهو المحفوظ.

الإسلام جزءًا من رسالته، لا يتلو عليهم آياته ويزكيهم ثم بعد ذلك يعلمهم الكتاب والحكمة.

والله الأمة الإسلامية بعد أن تتزكى خُلقيًا عيب أن تكون متخلفة عالميًا عن غيرها، عيب لأن الله رب الكون رب العالمين، وقد خلق أمة الإسلام فيه لتكون أمة دنيئة أو ذَنَب.. لا هناك آية فى سورة إبراهيم تقول: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾.

وقد قمت بعدد كلمة (لكم) فى الآية وجدتها تكررت خمس مرات.. يقول (البحر لكم).. ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾ لمن؟. لنا نحن المسلمين فنظرتُ هل البحر لنا.. البحر للمسلمين.. البحر يموج بالغواصات والسفن ما صنعت غواصة فى بلد إسلامى البحر مليء بالسفن والبوارج ما صنعت بارجة فى بلد إسلامى، حاملة طائرات ما صنعت فى بلد إسلامى، إذًا لكم هذه لِمَن؟ للخواجَات ما هى لكم.

لو كنا أهلاً للخطاب يبقى لكم.. ولكننا لسنا أهلاً للخطاب فكيف يبقى لكم.. كيف يبقى لكم؟

ابن خلدون يقول: لما فتح العرب شمال أفريقيا.. مصر وليبيا وتونس والجزائر ومراكش العرب وجدوا أنفسهم ملكوا جنوب البحر المتوسط وكانوا قد فتحوا الشام قبل ذلك فأصبحوا ملاكًا لشرق البحر المتوسط فلا يبقى إلا شمال البحر وفيه دول أوربا، وكانوا وجدوا الأسطول الرومانى كان يجول ويصول فى البحر، فأدرك المسلمون أن هذا لا يصلح وأنه لا يمكن أن يكونوا سادة فى هذا الوضع، فبدءوا يتخذون موانئ الإسكندرية وبيروت وغزة وتلك البلاد أماكن لصُنع السفن.

يقول ابن خلدون: وظل المسلمون يصنعون السفن حتى إن الأسطول الرومانى كان يتجنب لقاء الأسطول العربى لأنه ضرى عليه كما يضرى الأسد على فريسته، فلما وقعت معركة ذات الصوارى التى فتحت فيها قبرص انتصر العرب، وما كان

العرب يومًا ما رجال بحر، ولا كانوا يومًا ربابنة سفن، ولا كانوا يومًا صُنَّاع سُفن، بل كانوا رُعاة، لكن رفع الإسلام مستواهم فجعلهم صنفًا آخر من الخَلق لماذا؟

لأنهم فهموا الإسلام فهمًا جيدًا، وأتقنوا فهمهم للإسلام، فنفعوا وانتفعوا، ورفعوا أنفسهم وارتفع الإسلام بهم فى العالمين.

أما المسلمين الآن هُم العَالَم الثالث ولا يمكن أن يكونوا غير العَالَم الثالث، والغريب أنهم لما رأوا أنهم العَالَم الثالث والأوروبيين هم العَالَم الأول أرادوا أن يتعلموا من أوربا ويأخذوا حضارتهم، وهذا كلام فارغ لا خير فيه ولا قيمة له.

فالحضارة لا تأتى بمثل هذه الطريقة، الحضارة تأتى بأن أبدأ فأرى أين تخلَّفت فأجدنى قد تخلَّفت من الناحية العلمية فى الأبجديات ومن الناحية الخُلقية.. الإسلام غير موجود عندى، والإسلام عبادات وأخلاق.

ثم تأتى النكبة الكبرى فى هذه الأيام أن يظهر علينا أقوام علمانيون أم شيوعيون يقولوا: نترك الدين ونتبع النظم العلمانية، فهناك غيركم من ترك الدين واتبع النظم العلمانية، فإسرائيل موجودة بجانبكم تركت التوراة وتركت التلمود.

يوم أن مات (تشرشل) ذهب رئيس وزراء إسرائيل يعزى فى لندن ويتبع الجنازة وكانت الجنازة يوم سبت وكان منزل تشرشل يبعد عن المقابر حوالى ١٠ كم فكل المشيعين ركبوا السيارات إلا رئيس وزراء إسرائيل ورئيس الجمهورية قالوا ممنوع إشعال النار فى هذا اليوم يوم السبت، ومشوا على أقدامهم العشرة كيلومترات احترامًا لدينهم.

ولو أحدًا من الشيوعيين أو العلمانيين لركبوا السيارات، لكن لا.. اهتموا بدِينهم.

كنتُ أكاد أبكى وأنا أرى المحادثات أيام مباحثات ما بعد حرب ٧٣ بين مصر وإسرائيل، كانت تتم وقت صلاة الجمعة، هُم لم يَفُتهُم شىء، ولكن نحن فاتنا صلاة الجمعة ولا نبكى على تركها، لكن هُم يوم السبت لا بُد من تقديس السبت.

فالذين يريدون منا أن نترك ديننا، يريدون لنا الخراب دينًا ودنيا، يريدون لنا الضياع، ولذلك أُنبِّهكم مِن كل صاحب قلم يدعونا فيه إلى البُعد عن الإسلام، هذا لصٌّ قاطع

طريق رجل يعمل لحساب الصهيونية العالمية أو الصليبية العالمية، فلتحذروا على دينكم وعلى أنفسكم من هؤلاء الناس.

نحن لا نسمع إلا لداعية الإسلام، نحن لا نلتفت إلا إلى تراثنا الدينى، نحن لا نبنى إلَّا على قواعدنا، نحن لا نمهد إلا على تراثنا، هذا هو الذى يمكن أن نفعله وأن نؤدى حق الله علينا فيه، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم.

١٠ ـ كلمة الغزالى فى ملتقى السنة

ملتقى السنة النبوية الشريفة ج٤ تلمسان ٦ ـ ١٣ شوال ١٤٠٢ هجرية ٢٧ يوليو ـ ٣ أغسطس ١٩٨٢ ص ٤٦٣ وما بعدها

كلمة فضيلة الشيخ محمد الغزالى باسم الوفود المشاركة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله الذى بنعمته تتم الصَّالحات، اللهم ما أمسَى بنا مِن نعمةٍ أو بأحدٍ من خَلقِك فمِنكَ وحدَك لا شريكَ لكَ، فلكَ الحمدُ ولكَ الشكرُ.

عندما جاءتنى الدعوة إلى حضور ملتقى الفكر الإسلامى بالجزائر، الملتقى السادس عشر، شعرتُ بكثير من الرضَى لأمور منها: أننى أحببت أن ألتقى بالمسلمين المبعثرين فى المشارق والمغارب، لأنى أشعر بأن فى تصفح وجوههم عبادة، وهل الإيمان إلَّا حُبٌّ وبغضٌ.

إن الإنسان عندما يلقى أخا العقيدة بعد أمد طويل أو قصير يشعر بابتسامة مضيئة ترتسم على فمه، وتصغ أسارير وجهه، إنما نتأسى بنبينا الذى كان قلبه ينبوعًا فوارًا بأحر عواطف المحبة نحو أخوة العقيدة على امتداد الزمان والمكان، رآهم أو لم يرهم.

وفى هذا الملتقى الذى يجمع المسلمين من كل ناحية أشعر بحقيقة قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾.

وأشعر بأن الوحدة التى تكونت من صبغة الله جل جلاله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ إن هذه الوحدة هزمَت كل مؤامرات التمزيق وسياسات التفريق التى وضعها الاستعمار العالمى لتضليل أُمَّتنا، وجعلها تنسى رسالتها أو تزيغ

عن هدفها، هذا ما كنت أشعر به، عندما جاءتنى الرسالة التى تذكرنى بالملتقى الذى أحببته.

وشيء آخر: إن الجزائر بالذات لها وضع فريد، فإن أبناءها أدركوا ما قاله شوقى:

وما نيل المطالب بالتمنى ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

فاشتبكوا مع أسوأ استعمار عرفه العالم، فرنسا بنت الكنيسة البكر، اشتبكوا معها حتى ظفروا بشخصيتهم، وتاريخهم كاملين.

جميل أن تنتصر، ولكن أجمل من ذلك أن تظل أهلاً للنصر، وأن تستبقى أسباب النصر، وأن تحتشد فى كيانها كل الطاقات التى بدأت الحركة بها، فالأيام تمر بها وهى تتجدد ولا تتبدد، ولذلك فإن أسباب النصر الكامنة فى ثورة الجزائر معروفة، فإن الإسلام كان وقود الثورة، والمليون ونصف مليون من الشهداء الذين عبَر عليهم جيل الجزائر الحالى طريقهم إلى مستقبله لا يمكن أن تضيع تضحياتهم ولا دماؤهم سُدى، ومِن ثَم فإن بقاء الجزائر عربية مسلمة، تحمل الشعلة وتنير الطريق، لا لنفسها فقط بل لجاراتها الإفريقيات، هذا شيء أحرص على رؤية معالمه، وأشعر براحة نفسية وأنا أرى قادة الجزائر وهم يخطون بثبات نحو هذه الغاية.

هنا، أذكر أن الصفحات القليلة التى تضمنت قضايا الملتقى الأخير فى السُّنة الشريفة، قرأتها كإنسان مشتغل بالبحوث العلمية، ثم قلت لإخوانى: يبدو أن ملتقى الفكر الإسلامى فى الجزائر سيتحول على مر الأيام إلى مصدر من مصادر الثقافة الإسلامية المعاصرة، وإلى حركة تحريرية للمعرفة الدينية، يشارك فيها كثير ممن يوثق بدينهم وأمانتهم العلمية وكفايتهم؛ وذلك لأمرين:

الأمر الأول: أن الذين رسموا خطة البحث وفُّوا الموضوع حقَّه، فما وجدت شيئًا أقترحه، ومع ذلك فأنا أعرف مِن خُلق المشرفين هنا أنهم ما يستكبرون على نُصح، وأنه لو وجد ما يضاف لرحبوا بالمقترح ولأحسنوا استقبال مقدمه، وهم مسرورون بهذا التعاون، هذا سبب ترحيبى، كما قلتُ بالاشتراك فى الملتقى.

ثم شيء ثان: إننا عندما كتبنا، ما أحسست بأن هناك رقابة ستحذف سطرًا مما كتبت، ما أحسست أن أحدًا سيعترض طريقى وأنا أتكلم، لم يكن لأحدٍ سلطان عليَّ

إلا ضميرى، فكان الذين بحثوا مخلصين لِما كتبوا، وأعتقد أنهم أدُّوا ما عليهم تأدية حرة كريمة. ومِن ثَم فإن الملتقى -كما قلت- أهلٌ لأن يكون مصدرًا من مصادر الثقافة الإسلامية المعاصرة.

وهنا لا بد أن أشير إلى شىء من ماضينا، إن الوحدة الصحيحة للعالم الإسلامى لا يصنعها السياسة، وإنما يصنعها العلماء، ويصنعها رجال الفكر، ومعروف عالميًا أن كل اتجاه عسكرى -مثل اتجاه التتار- وأى حركة عالمية تعتمد على القوة وحدها يمكن أن تشعل حريقًا فى قش له دخان كثير ويشتعل ثم ينطفئ على عَجَلٍ، لكن عندما تكون الثقافة أساس الانطلاق، والعلم هو الذى يمول الحركة ويحركها، فإن الأمل كبير فى أن هذه الحركة تكون دائمة، وناجحة، ومستمرة.

لاحظت بأسف ونحن طلاب ندرس الحروب الصليبية، وجدت خطأ كأنه متعمد فى صياغة المعلومات التى تقدم للطلاب، كتبنا بفخر أننا سجنا لويس التاسع فى المنصورة وحررناه بفدية كبيرة، على كل حال هذا كلام حسن، وانتهى الأمر إلى هنا، لكن ما مصير لويس التاسع بعد هذا؟

لم يقل لنا أنه قاد حركة صليبية أخرى هجم بها على المغرب العربى ولقى مصرعه فى تونس، لم يقل هذا، لماذا سكتنا عن هذه الخاتمة لرجلٍ كان سجينًا عندنا ثم ترك؟ لأننا اهتممنا بأنفسنا.

إن الفجوة بين المشرق العربى والمغرب العربى يجب أن تسد، وينبغى أن لا يكون لها أثر، والأساس العلمى هنا هو الذى يملأ الفجوة ويمحوها.

وليس أملاً أو ليس ادعاء فى ظنى أن الجزائر بالملتقيات الست عشرة التى أقامتها هنا كأنها قالت لنا: سأسد هذه الفجوة، وسأصل ما انقطع من هذه الحبال، وستكون الثقافة الإسلامية التى يشارك فى تقديمها علماء المسلمين من أقطار الشرق والغرب كلها، هم الذين يصبغون يقظة الإسلام، ويوجهون صحوته، ويشرفون على الأجيال الناشئة، ويرسمون لها الخُطا الذى تضع أقدامها وهى مستريحة إلى أنها على صراط مستقيم.

إن هذه الملتقيات مع نشاط وزارة الشؤون الدينية، ومع تعاون المسؤولين،

وينبغى أن أنوه به أن الرجال الرسميين، رجال الحزب، ورجال الدولة فى تلمسان ما تركونا لحظة كانوا صباحًا ومساء يتابعوننا، لا لأنهم مكلفون بهذا، بل لقد كانت على ملامح وجوههم المعانى التى تتردد فى هذا المؤتمر، كانوا يفرحون بالصواب، ويضيقون بالنزاع، ويتربصون بالقضايا النهاية التى ترضى والتى يستريح إليها الدارس المنصف المحب.

إننى باسم هذه الوفود التى قَدِمت من أمريكا، ومن أوروبا، ومن إفريقيا، ومن آسيا، إننى باسم هذه الوفود أقول: كان لا بد من تجميع المسلمين فى مثل هذا الملتقى، إن الذى حرق المسجد الأقصى رجلٌ قادم من استراليا، والذى ضرب المسلمين بالرصاص السَّنة الأخيرة رجلٌ قادم من أمريكا، إن الأمكنة تلاشت والأزمنة طويت، وتيارات الفكر العالمى تلاقت حولنا ضدنا، فيجب أن تتلاقى التيارات الإسلامية فى هذا الملتقى لتخدم دينها، وترعى حاضرها، وتخطط لمستقبلها، والأساس كما قلت فى ملتقى علمى تعمل فيه بصائر الأحرار وضمائرهم دون أن يكون هناك قيد من ذى سلطان مهما كان شأنه.

إننى باسم إخوانى أعضاء الملتقى أشكر وزارة الشؤون الدينية، أشكر رجال الحزب والدولة، أشكر أهل تلمسان، أشكر كل من شارك بعواطفه، ومشاعره، وهو قرير العين، بأن الملتقى فى ساحته، أشكرهم جميعًا، وأعتقد أننى أنفس بهذا عن رغبة عميقة، فى قلب كل مسلم جاء هذا البلد واستراح إلى سير الأمور فيه، والله ولى التوفيق.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

١١ ـ تعليق الأستاذ الشيخ محمد الغزالى
على قصيدة الأستاذة مها غريب

ملتقى السنة النبوية الشريفة ج٤ تلمسان ٦ ـ ١٣ شوال ١٤٠٢ هجرية ٢٧ يوليو ـ ٣ أغسطس ١٩٨٢ ص ٤٥٤ وما بعدها

(لقد ضاق بالصمت هذا الصوت فانفجرا)

قصيدة للأستاذة: مها غريب

من قلب الأحداث أقطف هذه الحقائق، وفى صميم السُّنة أفتح نافذة الأمل، وبين أيدى علمائنا الأجلاء ألقى بهذه القصيدة:

أعتى المدافع ما استعصى وما استترا
وأفتك الداء ما استعدى وما انتشرا
وأعظم الفضل إيمان يعاضده
علم حوى جوهر الإحسان واختصرا
فيا تبارك فضل الله فى مئلا
تدارسوا الدين واستوصوا بما أمرا
ويا تبارك مسعى إخوة جمعوا
فى الله جمعهم واستنفروا نفرا
قد عاهدوا الله أن يحيوا شعائره
وقد وفوه وها هم للهُدى سُفَرا
كأنهم وجلال العلم يغمرهم

كواكب زارها الإصباح فانبهرا
حيّاكم يا دعاة الحق ما انكشفت
بكم ليال وما دين بكم عمرا
فمثلكم من وعى الأعداءُ صولتهم
ومثلكم من دعا للنصر فانتصرا
أعيذكم أن تروا فى صرختى عنتًا
قد ضاق بالصمت هذا الصوت فانجرا
عفوًا إذا اشتط فى مدح ونازعني
جمر الإباء وما فى الخاطر انهمرا
فإنّ لى عندكم يا إخوتى وطرًا
هيهات أبغى سوى فى مثلكم وطرا
قد ضجّت الأرض من طول القتا بها
والحق بالصمت والبطلان قد بترا
فى كل منعطف غاب ومأسدة
تناسل الحقد فى الإخوان واختمرا
فالكل يلعق أشواكًا تمزّقه
وتشرب الأرض من أوصاله نهرا
هذا النزيف يكاد اليوم يقتلنا
فهل دواء لديكم يدرأ الخطرا
وهل جهاد يوارى كرب عزتنا
ويصرع الذل والخلف الذى شجرا
ويُبرئ الأمة العرباء من شلل

أعمى بصائرها واستتبع البصرا
بنو اليهود مساويهم مجلّية
فكيف نأمَن مَن بالله قد مكرا
أما لأحمد من يحمى رسالته
يحيى عليًّا لنا، أو خالدًا، عمرا
وأين أمتنا ترغى بحكمتها
خير الممالك ما استعلى وما كبرا
هل عافت المجد إذا عافت مواثقه
أم باع فيها هوان المبتغى وشرا
أم لمن توجّه إلى الرحمن وجهتها
ولا استقامت فضاع المجد واندثرا
أقولها وشفايا الجرح واكفة
ولجّة الظلم تطوى السهل والوعرا
تُدنِّسُ المسجد الأقصى على عمد
وتُحرق الدار والأشجار والزهرا
وتحصد المجد من أجداث عزّتنا
فلا نثور! لبئس العيش منتظرا
أقولها وحبيب الله يشهدها
وقد أقمنا لهذا الدين مؤتمرا
عسى المقالة تُمّسى بعض ملحمة
من النضال وتعلى الصارم الذكرا
بئس السلام سلام الذل تنسجه

يد اليهود ومن والى ومن غدرا
فالله قال لنا يا قوم لا تهِنُوا
ولا يحل بعضكم للسلم ما قدرا
ليس السلام من الإسلام إن وطئت
شريعة الله أو نيطت بمن كفرا
آه، وأرفعها شكوى مجنَّحة
إلى السماء وقلبى يشرب الصبرا
أشكو إلى الله بعد الصمت موجدتي
والجرح ينزف إذ عن صمته صفرا
فهل لنا عندكم يا إخوتى وهج
يذكى إباء الحمى هذا الذى غدرا
وفيكم الصامت المنؤود من شجن
وفيكم المشتكى ممن به غدرا
ماذا لو أدرك الإسلام مقدسه
ماذا لو أنّ ذبيح الصمت قد جهرا
ماذا وأصرخُ واذِلّاه فى وطن
يرى ولكنه للحق ليس يرى
عيونه فى غطاء عن مسالبه
كان الثريا، وصار اليوم بعض فرا
هى المجازر كالإعصار تسعفنا
فلا تكاد نوارى أونكاد نُرى
تآكل القوم حتى لا كيان لهم

كالميت يدفن لا مساً ولا خبرا
ويلى على أمة قد هان سادتها
وزُجَّ أفرادها فى حتفهم زمرا
قال الرسول لنا لا يذهبن بكم
تنازع أو شقاق تذهبوا شذرا
أو يقتلن أخ عمدًا أخا برئيًا
فذاك جُرْمٌ حرامٌ ساء مُدَّخرا
لكن جهلنا ولم نأخذ بسُنّته
وقد جُزينا وما منا من اعتبرا
أجل وحقك يا من تحت سنته
هذه الجموع تهاجت تجتلى الدررا
لم نلتزم سنّةً صرنا بها أمما
ولم نقاتل عدوا ظالمًا فجرا
ولا وحقّك ما عدنا ذوى همم
وخير هذا الورى عزًّا ومتفخرا
عدنا إلى جهلنا نحدو أبا لهب
وكنت قدوتنا أعظم بها أثرا
أجل بطرنا بدين الله إذ نصبت
لنا الحضارة صرحًا يبهر النظرا
حتى عبدنا عجولاً تكتسى ذهبًا
فكيف لا نحصد الخذلان والخورا
لقد نسينا إله العالمين وهل

يجنى الفلاح دَعِيٌّ بالهدى سخرا
من ذا الذى يدّعى من دون خالقه
نصرًا ويبقى على الأعداء مقتدرا
قد كان فى سالف الأزمان من فعلوا
فجاءهم حاصب يهمى اللظى مطرا
قارون أهلكه مال وعجرفة
وفتنته ألقمت طاغوته حجرا
وصاحب الجنتين الصيد من عنب
ومن نخيل طغى واغتر فاندحرا
وقوم فرعون إذ فى البحر قد غرقوا
إذ ما استعزوا وكانت ميتة نكرا
وقوم عاد، ونوح، والذين عتوا
عن أمر ربهم هل أوقفوا القدرا
فكيف لا يبتلينا الله فى زمن
قد كذَّب الناس فيه الآى والسورا
ما إن يغيّر ربّ العرش حالتنا
حتى نغيِّر ما فى أنفسنا اعتكرا
هى الحقيقة لكن مرُّها عسل
لمن تكفر فى دنياه وادّكرا
فرحمة الله لا تحصى لها سعة
إن شار عاقب أو شاء الرضى غفرا
عذرًا إذا شفّ صدرى عن كوامنه

ما رام مرثية بل شاءها عبرا
يا إخوتى عفوكم ما جئت لائمة
فكلنا وازر من قومه وزرا
وكلنا غاصب للحق يزهقه
بطلان صهيون لكن من وعيى الخطرا
ومن يرى شعلة الإسلام تطفئها
أفواه أعدائه حقدًا وما ثأرا
بيروت تجمع قتلاها وتسألنا
بالله أن ننتخى نحيى لها ذكرا
والقدس تسأل أين العرب تمنعني
أنام عنى تاريخى أم احتضرا
أين الرجال أما للحق منتصف
من الطغاة إذا ديس الحمى زأرا
أمّا فلسطين فأسأل كفّ غاصبها
كم أسكنت من بنيها النار والحُفرا
قضية حملت وهنًا على وهنٍ
جذورها فى دمانا أصبحت شجرا
لم تبق نفسًا لنا إلا مجرّحة
شاب الصغار ولما تطرح الثمرا
يا ثلث قرن أما من عصبة أنف
تعيد للعرب أيامًا لهم غررا
ما بال ليلهم غابت كواكبه

وطيف عزّتهم قد غاب واستترا
تردّوا الذلّ والإذلال من زمن
كما تردت عناكيب الردى غبرا
وما رأينا سوى الأعداء تأكلنا
نيرانهم أو صديقًا يضمر الضررا
قد كان حقًا علينا خوض معركة
نكن بها فخر من بالحرب قد فخرا
أن نطلب الموت نعط الخلد مطرحة
كذا رحاب العلى كانت لنا سررا
يا ساكتًا عبثت أيدى الهوان به
وصابرًا لو أتاه العزم ما صبرا
هل أنت ناج من الأعداء إذ وثبوا
أو سالم من حريق قادم صدرا
لم التوانى ودار الخلد مشرعة
للحاملين على من جار أو قهرا
للواهبين دماهم أرض مكرمة
والساهرين على المعروف ما بدرا
هو الجهاد سبيل العزّ فامض له
خير الجهاد شهيد بالدم ادّثرا
إن تذكروا الله يذكركم بنعمته
أو تشكروه يُجز بالشكر من شكرا
أو تنصروه فينصركم على نوب

مهما تعاظم فيها الهول أو كبرا
فاستمسكوا بحال الله واعتصموا
ولا تماروا ولكن أوقدوا الحذرا
هبّوا ولا تيأسوا إن كنتم غيرا
لن يطفئ الشمس ليل عانق القمرا
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

تعليق الشيخ محمد الغزالى

بسم الله الرحمن الرحيم

يخيل إليَّ أن الله جلَّ اسمه، وزّع المواهب والخصائص الرفيعة على الشعوب قسمة عادلة، ولكن الفارق بين شعب وشعب، وأمة وأمة، أن هناك أُممًا ترعى المعادن العقلية النفيسة فيها وتتعصّب لها وتقدمها، وأن هناك أُممًا أخرى تئدُ العبقريات وتهيل عليها التراب ولا تبالى بها.

ربما كان تقدم الأمريكيين فى العصر الحاضر أنهم يشترون العقول الكبيرة ويهيئون لها من أسباب النضارة والصدارة ما يغريها بالبقاء بين ظهرانى أمّة ما كانوا منها وما ينبغى أن يكونوا لها، لكن هذا الذى حدث، أسأل نفسى لقد سمعت هذا الشعر وأنا غيور على كل موهبة رفيعة فى أمتنا، وعلى كل معدن عقلى نفيس من أبنائنا وبناتنا، شعرت بأن الشعر وأنا رجل أذن الأدب ـ سبك المعانى والألفاظ فى القمة، القدرة العاطفية والتصويرية أيضًا فى القمة، طول النفس والغَيرة الظاهرة على التاريخ الإسلامى فى القمة، ما الذى جعل هذه العبقرية تتوارى وتختفي؟

إننا أمة لا تحسن رعاية أبنائها وبناتها، إننا أمة تدفن المواهب الذكية فيها، وكأنها تتقرب إلى الله بهذا الوئد المحقور المنكور.

أنا لا أعرف الشاعرة لكنى استغربت وأنا أسمع شعرًا جيدًا، وأنا أعرف ميدان الفن الأدبى فى العالم العربى خالِ الآن من بعد موت شوقى ومحرَّم وغيرهم، وأنه ممكن أن تكون لدينا شاعرات لا تقل قُدوة عن الخنساء وغيرها، لكن شعبًا مخدرًا ينظر إلى الملكات الكبيرة ببلاهة ولا يحاول أن يغذيها ولا أن ينميها.

وأحيانًا أشعر بغصَّة أو بكآبة ثقيلة عندما أقول فى نفسى: لعل الشاعرة توارت فلم تظهر، لأن مغفلاً سيقول لها: صوت المرأة عورة، وبالتالى لا يجوز أن تلقى قصيدة،

وتموت عبقرية من العبقريات الأدبية التى يمكن أن تخدم ديننا بفتوى كاذبة لا أصل لها.

يا إخوانى، إدرسُوا بدقة أسباب تخلف أمتنا، فإن هناك كثيرًا من الأوهام جسَّمناها أصنامًا وعبدناها، ولا صلة لها ما أنزل الله بها من سلطان، وإذا بقينا بهذه العقلية التى تسيطر علينا فنخسر الكثير جدًا من أبنائنا وبناتنا.

إننى أرجو أن تتاح الفرصة للشاعرة التى استمعنا إليها أن تمضى فى إنتاجها الأدبى وأن تنتفع الجزائر باسمها.

هذه البنت ربما خلَّدَت اسم الجزائر فى الميدان الفنى والشِّعر العالمى الأدبى الدينى إذا أمكن أن تؤدى واجبها وأن تُعَان على ذلك.

١٢ـ الإسلام والدولة المدنية
مناظرة مصر بين الدولة الدينية والمدنية

ط١ص١٣، ٤٠ الدار المصرية للنشر والاعلام ١٩٩٢
أشهر مناظرات القرن العشرين ج١ ص ٢٧ مكتبة وهبة

الشيخ الغزالى

الغزو الفكرى عوضا عن العسكرى

بسم الله الرحمن الرحيم

لاحظتُ أن مائة سنة تقريبًا مرَّت على أُمَّتنا وهى تكافح الاستعمار العسكرى الذى غزا أراضيها وعسكر فيها وأذاقها الهوان، لكن عندما أفلح أباؤنا واستطعنا معهم فى أعقابهم أن نجلى هذا الاستعمار العسكرى، فوجئنا أن الاستعمار العسكرى قد ولد معه استعمارًا تربويًا، واستعمارًا تشريعيًا، وصنوفًا أخرى من الاستعمار جعلت شخصيتنا مشوهة، وجعلتنا نبتعد عن تراثنا ابتعادًا كبيرًا، ولذلك فلا يكمل لنا استقلال ولا تتضح شخصيتنا إلَّا إذا عُدنا إلى تراثنا كما كنا قبل أن تجيئنا دواهى الاستعمار الغريب على أراضينا وتراثنا.

شريعة الأهواء

إذا قرأ شعب مسلم كتابه فسيجد فيه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ إنه مكلف بالصيام ويصوم فعلاً.. ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ﴾ لا.. لقد ألغى الاستعمار هذه الآية وقال: لا قِصاص، وإنما كان القِصاص فى ديانات سبقت.

ونرى من يريد أن يجهز على هذا التراث السماوى، وألَّا تحكمنا شريعة الله فى الدماء والأموال والأعراض، وإنما تحكمنا أهواء الناس الذين رفعوا لنا هذه القواعد وارتضوا بها.

قرأت اليوم أن خمسة وعشرين ألفًا قُتِلوا فى الولايات المتحدة هذا العام... وطبعًا لما يقتل أحدٌ من القتلة لأن الإعدام عقوبة مرفوضة لديهم.

وهذا هو الفرق بين الديمقراطية الإسلامية والديمقراطية الغربية... فالديمقراطية الإسلامية ترى أن الشورى حقٌّ ولكن، ولكن فى موضع الاجتهاد وراء المصلحة العامة، أما حيث يوجد نص سماوى يقول: القاتل يقتل، فلا أستطيع أن أقول: أن الشورى هنا لها مكان.

لا اجتهاد مع النص

يقول الشَّرع: اليهودية والنصرانية والإسلام تقول جميعها: إن الزنا حرام، الشذوذ الجنسى حرام، ومع ذلك فإن الشورى الغربية جعلت مجلس العموم البريطانى ومجلس اللوردات البريطانى يتفقون معًا على أن هذا يجوز.

كيف أحكِّم فى دينى أمثال هؤلاء الشاذين فى تصرفاتهم وفى أحكامهم وفى أحوالهم؟

إننى لا أستطيع إلَّا أن أقول: نحارب الغزو الثقافى... نحارب الاستعمار التشريعى، نحارب الاستعمار التربوى كما حُورب الاستعمار العسكرى حتى تجلو عن بلادنا هذه الأفكار الدخيلة التى جاءت مع القبعات الغازية، ويعود الإسلام لأهله ويكون الدين كله لله.

أما أن يقع ما يقع ثم يقال: لا نريد حُكمًا سماويًّا أو حُكمًا دينيًّا، فهذا نوع من العبث.

إننى أشعر أن هناك خلطًا للأوراق بين الذين يتحدثون عن الدين ويقولون: لا نريد حكومة دينية.

ما معنى لا نريد حكومة دينية؟

الأديان كثيرة، حكومة بوذية، حكومة هندوكية، حكومة صليبية، حكومة إسرائيلية، حكومة إسلامية.. ما الذى تريده بهذه الكلمة الغامضة المبهمة؟

ما الذى تريده بخلط الأوراق؟

إن البوذيين يريدون أن يحكمهم بوذى بشريعة بـوذا، والهنادكة كذلك، والإسرائيليون بجوارنا يقولون فى صمت وفى ضجة: نحن إسرائيليون نعطل أعمالنا يوم السبت استجابة لحُكم التوراة، فهل حُكم التوراة يبقى والحكومة الدينية تكرم هناك... فإذا طالبنا بحكومة إسلامية تساند الحق العربى المهيض والأمة الضائعة يقال: لا.. لا للحكومة الإسلامية وحدها.

والغريب أن جريدة لوموند، وهى جريدة تدعى أنها تتكلم باسم الثورة الفرنسية وباسم حقوق الإنسان تقول: إن الديمقراطية المقبلة فى الجزائر ديمقراطية عمياء.. لماذا؟! تريدون الشعب أم تريدون غيره؟

الشعب يريد أن يحكم بدينه، وأن يعيش بتربيته وثقافته، وأن يستمد من ينابيعه التى تفجرت فى أرضه.

وكما قلنا: أن الحكم على إرادات الشعوب بالإعدام ـ لأنها تريد الإسلام ـ لا هو ديمقراطية ولا هو شورى، ولا هو دين، ولا هو دنيا، إنى استغرب... ما هذا الحقد الغريب على الإسلام؟ ما هذا الحقد الغريب على الله ورسوله؟ ما هذا الحقد الغريب على التراث كله؟

إننا نريد أن يعرف الناس أننا إسلاميون.

مبادئ نظام الحكم فى الإسلام

أننا إذا أقمنا حكومة إسلامية: نصف نصوص (وحى من الله) ونصف عقل يبحث عن المصلحة، ويمشى بالقياس والاستحسان والعقل... فإذا كنا نريد البُعد عن حُكم الله، وحُكم العقل ما الذى نسميه فى هذا التشكيل البعيد عن الله وعن العقل... حُكم ماذا؟ أى حُكم هذا؟

إننا لا نريد العبث بالألفاظ ولا اللعب بالأقوال، إننا نريد أن نقول: الإسلام قام منذ أربعة عشر قرنًا أو يزيد، واستطاع أن يؤسس دولة عظمى، وبعد أن تعبت هذه الأمة فى مسارها الطويل وأدركها من دواهى الاستعمار ما صرفها عن تراثها.

إننا نريد، ونريد الأجيال الجديدة أن تعود إلى إسلامها، ولا ينبغى أن تُمنَع أبدًا أن تذاد عن هذا الطريق.

وكل طعن فى هذه الإرادة أو فى هذه الرغبة إنما يكون افتراءً على الناس، وعصفًا بحقوق الإنسان وكرامات الشعوب، هذه الكلمة موجزة نفتتح بها، ثم نستمع ونرد، ونتجادل إن شاء الله.

تعقيب الشيخ محمد الغزالى

الأقباط الذين يعيشون بيننا أسعد أقلية فى العالم... (باسم الإسلام الذى وضع فى صدر الدستور الحالى)... أغنياء وأقوياء.. وخرج من هنا رئيس وزراء العالم.. الحريات الإسلامية نتمنى أن تسود العالم.

تعقيب الشيخ محمد الغزالى

بسم الله الرحمن الرحيم

نريد أن نحتكم إلى العقل كما يحاول غيرى أن يحتكم إليه، استمتعت لأول مرة فى حياتى للأستاذ خلف الله وهو يقول: إن الملوك يبلِّغُون عن الله وأن الأنبياء يبلِّغُون عن الله، وتدارك وقال: الملُوك أحيانًا يبلِّغُون عن الله، ولعله استشهد لهذا بقصة بنى إسرائيل عندما طلبوا أن يكون لهم مَلِك يُقَاتِلون وراءه فى سبيل الله، فقال لهم نبيهم: إن الله جعل لكم طالوت مَلِكًا، ثم تدارك وصحَّح ﴿بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾، ﴿اجعل لنا مَلِكًا﴾ ثم تدارك وصحح ﴿بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾.

أريد أن أقول: الأنبياء وحدَهم هم الذين يبلِّغون عن الله، الأنبياء وحدهم وليس هناك من يمثل بكلامه أو بسيرته أو بمسلكه الخاص أو العام الإسلام إلا هؤلاء الأنبياء حديثًا لا يسر ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ وتحدث عن ملك آخر: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾.

فالقول بأن الملوك شركاء باسم الحق الإلهى فى التبليغ عن الله، هذا كلام ما قاله أحدٌ فى الأولين والآخرين للأسف..!

الشيء الثانى: النبى عندنا كان رئيس دولة، وكان قائد جيش، وكان واضع خطط، وكان قاضيًا، وقام بكل ما يمكن أن يكون من صفات الحاكم.

يقول الدكتور خلف: إنه مبلِّغ عن الله فقط... وهذا غير صحيح، لأن الله يقول له: ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾.

معنى هذا الكلام واضح فى أن النبى مكلف بأن يقاتل، ومعنى أن يقاتل رئيس

دولة، يقاتل؟ أى يجمع الجيوش وله السلطة التى يكوِّن بها الجُند وإلَّا ما قام بقتال.

يقول الله: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾.

لقد نفَى الإيمان عمَّن لا يحكِّم رسول الله ولم يستمع إليه.

والقضية قيلت فى مسألة زراعية ومسألة مرور نهر على بعض الأراضى أى مسألة مدنية بحتة.

إن صاحب الرسالة ظل ٢٣ سنة يعمل.. كان داعية فعلاً فى مكة، ولكنه فى مكة كان يكوِّن الجُند، ويكوِّن الرِّجال ويَعُد النفوس، فلما ذهب إلى المدينة أقام الدولة، ثم بدأ يقود بنفسه الجيوش ويقضى بنفسه بين الناس، فماذا تكون شئون الدولة أوماذا تكون الحكومة إلا هذا التصرف؟

شىء آخر: أن الخلفاء الذين جاءوا بعد رسول الله ﷺ إنما جاءوا تنفيذًا، لأن الإسلام يأمر بإقامة الحُكم، وقد كانوا باختيار شعبى حُر، لأن الإسلام لم يجيء فيه نص على استخلاف أحد بعد رسول الله ﷺ، وإنما ترك هذا للناس، وترك للناس أن يختاروا حاكمهم.

أول حاكم يتحدث عن وظيفته يقول: (وُلِّيتُ عليكم ولست بخيركم، إن رأيتم خيرًا فأعينونى، وإن رأيتم شرًّا فقوِّمونى، أطيعونى ما أطعتُ الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم).

يقول: (القوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه، والضعيف فيكم قوى حتى آخذ الحق له).

هذه معالم دولة الخلافة الراشدة فى جميع رجالها.

صحيح أننى قلت أن التطبيق الإسلامى كان مائة فى المائة أيام دولة الخلافة لكنه هبط عن هذا المستوى، ففى دول أخرى جاءت بعد ذلك.

مَن مِن هذه الدول جرؤ على أن يحكِّم غير الله؟

كان القضاه يحكُمون بالقرآن الكريم وبالسُّنة المطهرة، وكان رئيس الدولة وإن كان مغتصبًا إلَّا أنه يبرر وجوده فى منصبه بأنه يحكم بما أنزل الله وبأنه يمثل الإسلام ويجاهد الدولة الغازية، وقد حدث فعلاً ذلك أيام دولة الأمويين والعباسيين، يقول المتنبى فى سيف الدولة:

ولست مليكًا قاهرًا لمِليكه

ولكنه الإسلام للشرك هازم

سيف الدولة يمثل الإسلام، فسحب الصفة الإسلامية عن ألف سنة من التاريخ الإسلامى هذا مستحيل.

إن هذا التاريخ يمكن أن يكون نسبيًّا.

واستطيع أن أضرب مثلاً: هل سقطت الثورة الفرنسية سقوطًا للحضيض واختفت عندما تحولت إلى إمبراطورية يقودها نابليون بونابرت؟

لقد تحولت الشورى الإسلامية إلى مُلك أموى، ولكن الثورة الفرنسية بقيت إلى الآن، أما الإمبراطورية التى أقامها نابليون فقد اختفت وانتهى أمرها.

ننظر إلى إنجلترا: إن نظامها ملكى ورضيت الدولة الإنجليزية بأن يحكمها مَلِك يرث التاج كما يرث الأمويون، لماذا؟

لأن هذا الوارث استطاع أن يترك البلاد تدين بما تدين به وتحكم بما تراه، فليست هذه الملكية الإنجليزية عبئًا على الحرية ولا على الحكم الشورى أو حقوق الإنسان كما وردت تعاليم الأمم التى توارثتها، إذا كان هناك خطأ حدث فى الحكم فلتقع الأخطاء، ونحن نخطئ لكن ما صلة التطبيق بالمبدأ الأصلي؟

المبدأ الأصلى قام واحترم نفسه وما نجد فى تاريخنا ينضر وجه العرب إلا ما كان أيام العباسيين من حضارة شرَّقت وغرَّبت، واستطاعت أن تحتضن الفِكر العالمى وتصوِّب أخطاءه، وأن تجرده مما علِق به، وأن تجعله فقهًا للناس يستمعون إليه ويعملون به، بل إن حضارة الغرب ما استقامت على طريقها ولا خرجت من ظلماتها إلَّا يوم أخذت المواريث التى تركها الأمويون والعباسيون والأتراك وانتفع بها هؤلاء.

أخذوا الأبجديات منَّا وكوَّنوا كلمات منها... هذا شيءٌ يجب أن يعرف، ولا ينبغى التلاعب بالألفاظ.

شىء آخر: ليس أحد فى الجامعة العربية... الجامعة العربية؟

الجامعة العربية فيها ملوك بها المسيحى والمسلم الملوك والرؤساء... من قال أن هؤلاء يمثِّلون الإسلام كما تمثِّله الخلافة الراشدة؟

هؤلاء الناس لهم وعليهم، ونحن نناقشهم، ونحن نحاول أن نردهم إلى الصواب، وأن نجعل الأمة الإسلامية تقاد بمواريثها الأولى.

وأضرب مثلاً أكون فيه غير حسَّاس ولا مداهن، بل أريد أن أكون صريحًا: الأقباط الذين يعيشون بيننا أسعد أقلية فى العَالَم، وقد نالوا كل ما يريدون من حظوظ الدنيا والآخرة فى ظل الحُكم الإسلامى، وباسم الإسلام الذى وُضِع فى صدر الدستور الحالى استطاع الأقباط أن يكونوا من الأقوياء ومن الأغنياء، وأن ينتقلوا من هنا ليكون منهم رئيس وزراء العالم، أهناك أقلية إسلامية فى الأرض تعيش فى ظل الكيان الصهيونى أو الكيان الصليبى تجد مثل هذه المعاملة؟

إن هذه المعاملة إنما هى من مواريث الإسلام... إنما هى مما فهمناه من ديننا ومن كتابنا ومن سُنة نبيِّنا، جعلنا المواطنة هى ذمتنا والوفاء لها جعلناه الخُلق العالى، فالقول أو المتاجرة بالقلَّة المسيحية هنا لا تجوز، وكما قال الأستاذ عمارة: ماذا عليك...؟

أنت لا تملك قانون المواريث، ماذا عليك لو انتفعت بقانون المواريث الإسلامي؟

أنت تقول: دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله، ماذا عليك أن يكون ما لقيصر هنا هو ما يقرره الإسلام فى قوانين كثيرة ليس بها ما يضايقك عند الأخذ بها ولا هى ضد ما عندك من تعاليم... إنك تغضب عندما تهان شرائعك أو شعائرك، أمَا وقد كُفِل كل ذلك لكَ فلا معنى أن يقال: أن الحكومة الإسلامية سوف تكون ضد طائفة أو مع طائفة... باسم الإسلام عِشنا، وباسمه كانت هذه الحريات التى نتمنى أن تسود العَالَم، والله ولى التوفيق.

١٣ ـ نحن مهزومون فى هذا العصر؟

من كتاب (الإسلاميون وحوارات أجل المستقبل) مكتبة التراث الإسلامى ط١ ١٩٩٢، عمرو عبد السميع ص ٨ وما بعدها

* أكره حكم العسكر ولا أرى عندهم ما تنشده أمة من الكمال والحرية.
* العالم العربى ليس فيه ديمقراطية ولكن فيه حكومة الأمر الواقع.
* المتطرفون استسهلوا الخروج على القانون العام، والذين يستغلون هذه الأخطاء منهم زادوا فى الانتقام لأنفسهم!
* أطلب من الأحزاب الدينية فى العالم العربى كما اشتغلت بطلب الحكم أن تشتغل قبل ذلك بتحويل القواعد الشعبية إلى قواعد (متربية) !
* أرحب بنشأة حزب للأقباط.
* ورقة كمال أبو المجد يمكن أن تكون برنامجًا لحزب إسلامى مع احتياجها لمزيد من التفصيل.

(أهمية الحوار مع الداعية الإسلامى الشيخ محمد الغزالى تنبع من أن الرجل يعكس خطًا إسلاميًا فكريًا تمامًا عن هوس ما يطرح من بعض الفصائل المتطرفة الآن، ويختلف تمامًا عن ملامح الصورة النمطية التى يود أعداء الإسلامى إلصاقها به.

وهو فى هذا الحوار يتعرض لقضايا الساعة الفكرية والسياسية طارحًا عناصر رأيه ورؤيته المعتدلين، مؤكدًا ـ فى كل لحظة ـ أن ما يطرحه هو الخط الذى تتبناه الأغلبية الصامتة من المسلمين فى عالمنا العربى).

الكلام والحركة..... والقانون:

* عبرت فضيلتك ـ عن موقف إسلامى مستقل لفترة طويلة، ومن هذا الموقع كيف ترى الحركة الإسلامية فى العالم العربى فى اللحظة الراهنة، وبخاصة وهى تتجه فى كثير من الأحيان إلى الصدام مع الحكومات فى العديد من الدول؟

ـ كنت وما زلت مستقل التفكير، ومع أننى تتلمذت على أستاذى حسن البنا، المرشد العام للإخوان المسلمين، فإننى وأنا داخل تيار الجماعة كنت أحتفظ برأيى وأبذل جهدى فى أن أكون مرضيًا لعقلى وضميرى قبل أى شىء.

الإسلاميون لهم حقوق كثيرة فى أن يتحركوا، وقد تظهر أحقيتهم هذه عندما تكون الشعوب محرومة من حقها الطبيعى فى الديمقراطية وفى العدالة الاجتماعية وفى التقدم الحضارى.

بعض الحكومات العربية أو أغلبها يمكن القول عنها بأنها من بقية التخلف القديم، وهى تضن على الشعب بما يضمن حقوق الإنسان ويضمن حرية الإرادة البشرية الراقية.

ولذلك من حق الإسلاميين أن يتكلموا ويتحركوا ولا ينكر عليهم هذا الحق إلا متعصب لا وعى له.

* أى شكل من أشكال الكلام والحركة يا مولانا؟

الكلام والحركة اللذان يضمنان لكل مواطن فى العالم الحر.

لماذا يكون للمواطن فى أمريكا حق الكلام والحركة ما دامت داخل السياج القانون العام، من دون أن يكون للمواطن فى عالمنا الإسلامى نفس الحق.

وهنا لا بد أن نقول من دون شك، أن بعض الإسلاميين لا يحسن أداء هذه الوظيفة، وربما تطرفوا، واستيسروا واستسهلوا الخروج على القانون العام.

هذا ـ بالطبع ـ خطأ، والذين يستغلون هذه الأخطاء منهم زادوا فى الانتقام لأنفسهم.

وأضرب لك مثلاً، بقصة الجزائر، فإن الجزائريين المسلمين لجأوا إلى الانتخابات وهى الصورة الوحيدة التى يعرفها العالم الحر للتعبير عن الرأى فلما وصلوا إلى النتيجة التى كرهها الآخرون، عوملوا أسوأ معاملة.

وأنا لا أتصور أن جبهة الإنقاذ مصيبة فى كل شىء، ولكننى أرى أن ما ينسب إليها من أخطاء يزول عندما ننظر إلى الطريقة التى يعاملون بها.

ضد تفكير.... ضد جبهة

* لكن فضيلتك يا مولانا كان لك موقف نقدى مبكر تجاه أسلوب الجبهة الإسلامية للإنقاذ فى الجزائر، قبل أن يتصاعد الصدام الذى أدى إلى حلها، فكيف تقيّم الوضع الراهن هناك، وهل ترى آفاقًا لمصالحة بين الحكومة الجديدة وجبهة الإنقاذ؟

ـ عندما نقدت الأوضاع الدينية، أو التطور الدينى للإصلاح فى الجزائر، لم أكن أقصد جبهة الإنقاذ، فهى لم تكن تكونت بعد، إنما كنت أعالج الفكر الإسلامى ـ مطلقًا ـ الذى قد يتصور أن الديمقراطية ردئية، أو الذى يتصور أن المرأة لا بد من حبسها فى البيت، أو مثل هذه التصورات.

وبالتالى كان عملى ليس ضد جبهة الإنقاذ، وكنت أود أن تترك ـ إذا كانت لها أخطاء ـ لتجنى مرارة أخطائها، وكما جاءت عن طريق التصويت الحر تنسحب من المجتمع بطريق التصويت الحر أيضًا.

لكن الذى حدث غير هذا.

عوملت الجزائر بالانقلاب العسكرى، وأنا أكره حكم العسكر ولا أرى عندهم ما تنشده أمة من الكمال والحرية.

* فإذا كان حكم العسكر قد منع جبهة الإنقاذ فى الجزائر من الوصول إلى الحكم طبقًا لما باحت به صناديق الانتخاب، فإن حكم العسكر، بل الانقلاب العسكرى قد دفع بفصيل إسلامى آخر اسمه الجبهة القومية الإسلامية إلى الحكم فى السودان... أفلا نوحد المعايير التى نحكم بها على حركة الإسلاميين فى العالم العربي؟

ـ نعم هذا حدث فى السودان، ولكن هناك ملاحظة لا بد أن ننبه إليها، وهى أن هذا الفصيل العسكرى دخل فى معركة عسكرية مع الانفصاليين فى الجنوب، واستطاع أن يقلم أظافرهم.

وقد كانت البلاد فغى حالة منكرة أمام الزحف الجنوبى، المؤيد بالشيوعية من الحبشة، وبالاستعمار الصليبى من جهات أخرى.

وقد عجزت الأحزاب الحرة عن مواجهة هذا الوضع، ولاحظت عجزها بنفسى، فقد كنت فى الجزائر، ووجدت عددًا من السودانيين الذين أعرفهم جاءوا إلى الجزائر من الخرطوم، لشراء أسلحة، ولما سألتهم عن السبب، أجابوا: نخشى أن يقتحم جون قرنق الخرطوم.

فإذا كان التعصب الدينى عند قرنق وأتباعه سببًا فى تحول الجبهة الإسلامية وأنصارها فى الجيش عن حكم الشورى الصحيح، إلى الحكم العسكرى لكى يواجهوا حكمًا عسكريًا آخر قادمًا من الجنوب بنزعة دينية سيئة، فمعنى هذا أنه يمكن لنا أن نلتمس لهم العذر، ولكنه عذر مؤقت، ولا يجب أن نقبل أن تحكم السودان من دون انتخابات حرة!

مفهوم إسلامى ومفهوم ديمقراطى

* من جانب آخر، فإن هذا العذر المؤقت الذى يتعلق بقضية كما ذكرت فضيلتك ـ استثنائية ـ وهى قضية المواجهة مع قوى شيوعية وصليبية، فإنه يطرح ـ من جديد ـ قضية الديمقراطية والشورى، ومدى تمسك الفصائل الإسلامية الجديدة بها.

وفى هذا الإطار يثير موقف الحركات الإسلامية فى العالم العربى من قضية الديمقراطية جدلاً واسعًا.

فهل ترون انسجامًا بين المفهوم الإسلامى للحكم، والمفهوم الديمقراطى الذى يقوم على تداول السلطة وتعدد الأحزاب والحريات العامة... وهل يقبل الإسلاميون بوجود قوى مناقضة لهم فى التوجهات إذا وصلوا للحكم؟

ـ أعترف بأن عددًا من الإسلاميين ليس ناضج الوعى فى فهم قضية الشورى، وأنه قد ينظر إلى الديمقراطية نظرة غير واعية وغير دقيقة، ولذلك يخاصمها، فالديمقراطية فى تصوره هى حرية المعصية.

هذا كلام غريب... وكلام باطل.

الديمقراطية فى مفهومها الأعلى هى إطلاق الحدود أمام المواهب البشرية فى أن تستوى وتنضج وتؤدى وظيفتها فى خدمة الأمة، والقول بأن الديمقراطية هى حق المعصية ـ فقط ـ هو كلام سخيف، والفهم الإسلامى الذى يتقوقع داخل هذه الدائرة، غير مقبول ولا نؤيده بل نحاربه.

* بعض القوى الإسلامية الجديدة كالجبهة القومية الإسلامية فى السودان، تتبنى أفكارًا شعوبية وجماهيرية، فتنشئ تنظيمات واحدة على غرار اللجان العشبية الليبية والاتحاد الاشتراكى السابق فى مصر، وتنشئ علاقات وثيقة مع القوميين واليساريين فى العالم العربى بما يجافى قضية الديمقراطية التى أفرطوا فى الحديث عنها... فما تفسيركم لهذا التناقض؟

ـ من يقلد نموذج الاتحاد الاشتراكى عليه أن يعلم أن هذا التنظيم الذى كان يدعى أنه قضى على اللجاج السياسى وأصبح ممثلاً تقدميًا عالميًا، سلب مصر حرية كانت أوسع ـ على الرغم من القيود ـ فى أيام فاروق وفؤاد.

ومع ذلك فإن العالم العربى تموج ساحته بتيارات لا آخر لها، ولكنها تيارات محبوسة، ولا أستطيع أن أقول أن فى العالم العربى ديمقراطية.

* ماذا إذن فى العالم العربي؟

ـ العالم العربى فيه حكومة الأمر الواقع، ولذلك عندما أطالب بالشورى الإسلامية، وأنا رجل من حملة الفكر الإسلامى، فأنا ـ فى الواقع ـ أطلب شورى تمكن رجل الشارع من أن يعيش فى إطار العصر الحديث.

لقد اعترض أحد الأعراب على الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وهو يطلب السمع والطاعة قائلاً: لا سمع ولا طاعة، فلما سأله عمر عن السبب، قال: أنت تلبس ثوبًا طويلاً وقد وزعت علينا ثيابًا ما كستنا... فمن أين جاءك هذا الثوب الطويل؟

فقال عمر ـ فى هذا: (قُم يا عبد الله بن عمر ورد، فيقول عبد الله بن عمر: أبى طوال ـ أى رجل طويل ـ فأعطيته ثوبى، فقال الأعرابى: إذن نسمع ونطيع[1].

(١) (وروى أن عمر جاءته برود من اليمن ففرقها على الناس بردًا بردًا ثم صعد المنبر يخطب وعليه حلة منها فقال: اسمعوا رحمكم الله! فقام إليه رجل من القوم فقال: والله لا نسمع، والله لا نسمع، فقال: ولم

والخليفة الإسلامى ـ أيضًا ـ يقول: (القوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه، والضعيف منكم قوى عندى حتى آخذ الحق له)[1].

هذا هو الفكر الديمقراطى الإسلامى، وهو ما أراه متحققًا فى بلد كإنجلترا، فالحرية هناك بالغة الدقة، وواسعة الآفاق، ومع ذلك فهى لا تعنى الفوضى، فيعرف كل إنسان ما له وما عليه، فالحاكم يدرك أنه مواطن عادى، ولذا عندما يخرج من الحكومة إلى الطريق العام يمشى فى الطريق ولا يخاف أحدًا، ويجلس على مقهى ولا يخاف أحدًا، أما عندما فالحاكم لا يخرج من منصبه إلا بالموت أو القتل، وإذا خرج فإنه لا يستطيع أن يسير بين الناس لأنه يدرك سوء ما قدم.

العالم العربى محتاج إلى جرعات كبيرة من الحرية، كما تحتاج الصحراء إلى فيضانات من المياه لتخصبها.

نعم نحتاج إلى فيضانات من الحرية، لأن هناك -بيننا- أعداء للحرية ممن يجهلونها وممن يسيئون استغلالها.

أنا أدرك أن عددًا من المثقفين لا يجد فى الحرية سوى أنها ترجمة عن الإلحاد، فإذا تقدم الدين ليتكلم، قيل له: أنت متخلف ورجعى عد إلى الخلف! !

الحرية ليست هكذا.

يا عبد الله! قال لأنك يا عمر تفضلت علينا بالدنيا، فرقت علينا بردًا برًا وخرجت تخطب فى حلة منها، فقال. أين عبد الله بن عمر؟ فقال: ها أنا يا أمير المؤمنين، فقال لمنم أحد هذين البردين اللذين عليّ؟ قال لى، فقال للرجل: عجلت يا عبد الله، غنى كنت غسلت ثوبى الخلق فاستعرت ثوب عبد الله، قال: قل الآن نسمع ونطيع، خرجه الملاء فى سيرته).

انظر: (الرياض النضرة) ١ / ١٨٣ دون سند، اعلام الموقعين لابن القيم ٢ / ١٨٠ طبعة دار الجيل وروى البيهقى فى الشعب (١٠٢٥١) وابن عساكر فى تاريخ دمشق (٢١-٤٢٧) من طريق عفان، ثنا جعفر بن سليمان، ثنا ثابت البنانى، قال: كتب عمر بن الخطاب إلى سلمان: «أن زرنى»، قال: فخرج سلمان إليه، فلما بلغ عمر قدومه قال لأصحابه: «هذا سلمان قد قدم فانطلقوا نتلقاه» قال: فلقيه عمر فالتزمه وساءله، ثم رجعا إلى المدينة سلمان وعمر فقال له عمر: «يا أخى، أبلغك عنى شىء تكرهه لما أخبرتنى به؟» قال: لولا أنك عزمت ما أخبرتك، بلغنى عنك شىء كرهته، بلغنى أنك تجمع على مائدتك السمن واللحم، وبلغنى أن لك حلتين: حلة تلبسها فى أهلك، وحلة تخرج فيها، فقال: «هل غير هذا؟» فقال: لا، كفيت هذا ـ أظنه قال: «لا أعود إليه أبدا». قال جعفر: (الحلة: إزار ورداء) وفيه انقطاع.

(١) البداية والنهاية لابن كثير من حديث أنس بن مالك (٦/ ٣٠٥) وإسناده صحيح.

الحرية أن تقول ما عندك، وأقول ما عندى، وأن أعطى لمن يخالفنى فى العقيدة الحق فى أن يقول ما عنده، لأن القرآن قال لخصومه: (هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين).

من حق من يخالفنا أن يعرض ما عنده من خرافة، ومن حقنا أن نرد عليه ردًا كاملاً.

فإذا جاء بعض المثقفين ورأى أن الحرية هى للخطأ فقط، فإننى أقول له إن الحرية هى للخطأ والصواب معًا، ومن حقى وأنا مصيب أن أتحدث وأن أعرض أدلتى، وأنا أقبل الهزيمة فى ميدان الجدل العقلى، ولكننى أرفضها عندما يكون الأمر أمر إكراه على مذهب أو تبعية لشخص.

علمانى كفور

* هذا الطرح شديد الاستنارة، الذى تطرحه فضيلتك للحرية والشورى والديمقراطية وعلاقتها بالفكر الإسلامى، ليس التيار السائد ـ الآن ـ على ساحة الواقع... فنحن نرى تيارين متناقضين عريضين، أحدهما يطالب بحرية التمثيل بمعنى حرية تكوين حزب أو جماعة، وفى ذات الوقت يطالب الثانى بإنكار حق الآخرين فى الاختلاف وممارسة التعدد إلى الآخر؟

ـ فى عالمنا العربى، وهنا فى مصر طرفان متناقضان، الأول: علمانى كفور، لا يطيق كلمة عن الدين أو عن الأخلاق، وبعضهم غالى فى هذا التيار حتى قتل مثل فرج فودة الذى تطرف فى شتم المتدينين ونسبتهم إلى الغوغائية وأنهم صرعى جنس.... هذا نوع من الناس.

النوع الآخر، هو ثمرة لهذا الفكر العلمانى الضيق، وهو يقول: لا يجب أن نعطى الحرية لهؤلاء ولا بد من محاربتهم حتى الموت.

ولكن هناك الفريق المعتدل، الذى لا هو كافر بالإسلام، ولا هو متحجر فى فهم الإسلام، هناك الجمهور الكبير، ومن حق هذا الجمهور أن يتحرك وأن يتكلم.

* مطالبة هذا الفصيل الإسلامى فى مصر بمنبر سياسى إسلامى، هل هى فى نظر فضيلتك استجابة لاحتياج الديمقراطية الاجتماعية الذى تفرضه أعباء الحياة

واعتبارات التفاوت الصارخ بين الناس، أم أنه استجابة لاحتياج الديمقراطية بمعناها السياسى القائم على سيادة التعدد السياسى والفكري؟

ـ طبيعة الحياة هى الاختلاف، ويقول سبحانه وتعالى: (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك).

ولكن يجب أن نفهم الديمقراطية الإسلامية أو الشورى الإسلامية والحريات العامة على أساس أن الدين ليس جدلاً فى المطلق، ولكن الدين ـ قبل كل شىء ـ تربية لأخلاق.

الأخلاق نوعان فى الإسلام: نوع ربانى، ونوع إنسانى.

وأقصد بالأخلاق الربانية تلك التى تحددها العلاقة بين الإنسان وربه، مثل أن يكون شديد التوكل على الله، شديد الإحساس برقابته، وهو يخافه ويرجوه، ينفذ الطاعات المطلوبة منه بأمانة... وهكذا.

هذه أخلاق كتب فيها المتصوفون كثيرًا، وبعضهم كتب مخرفًا، وبعضهم كتب مجيدًا، وتلتقى هذه التيارات كلها فى تراثنا المليء، وتستطيع أن تجد فيها ما هو حق وما هو باطل.

أما النوع الآخر من الأخلاق (الإنسانى ـ العام) فهو يحتاج إلى تربية، فمن العبث أن نتصور أن التلميذ يكون صادقًا إذا قال له الأستاذ: كن صادقًا، أو أن أقول فى المنبر للناس: كونوا صادقين فيكونوا صادقين.

لا بد للمربى أن يكون طويل البال حتى يضع الغرس ثم يرويه بما ينميه، ثم يحميه من الحشرات.

لا قيمة لأى فكر دينى إذا لم يدرك أن الدين تربية، وأن مهمته الأولى هى صقل النفس الإنسانية وتهذيب طباعها.

وأن يظهر حزب دينى يطلب الحكم وليس عنده هذا الفهم فمعناه أنه حزب كذاب فى انتمائه إلى الإسلام، أو فى انتمائه لأى دين.

الدين ـ قبل كل شىء ـ علاقة بين الله وبين الناس، أساسها ألا يكون الإنسان

صريع أهوائه، وعبد شهواته، بل يكون مهذبًا، ويكون إنسانًا نقيًا، وكل تدين يسطح هذه الأفكار أو يجعلها بعيدة عن منهاجه هو تدين كاذب، والذين يشعرون بالتدين ـ من هذا النوع ـ إنما يفترون على الله الكذب ولا قيمة لهم، ولذلك أنا أطلب من الأحزاب الدينية فى العالم العربى كما اشتغلت بطلب الحكم أن تشتغل قبل ذلك بتحويل القواعد الشعبية إلى قواعد (متربية) !

قواعد فيها أخلاق وفيها شرف، فالذين يكون فاشلاً يوم يكون حكمًا فقط، لأنه يكون ما أدى واجبه الأساسى.

ويقول الله تعالى: ﴿ونفس وما سواها. فألهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها﴾.

إذن أفلح من تربى وصقل نفسه، وكان إنسانًا نقيًا تقيًا، أما أن يكون أميرًا للمؤمنين بينما قد حرم التقوى وسلامة الضمير وشرف الأخلاق فإنه يكون كاذبًا على الله وعلى الناس.

المهم.... الغاية لا الوسيلة

* بعض الإسلاميين وبخاصة من جماعة الإخوان، يرفضون بعض أفكار حسن الترابى وراشد الغنوشى فكيف تقيمون هذا الخلاف، بينما الآخران يحملان الآن لواء الدعوة السياسية الإسلامية الجديدة فى العالم العربي؟

ـ أنا لا أحرم أحدًا حق الانتماء إلى الإسلام وتعاليمه، إذا كان يخالف شخصًا، وإن كنت أعتقد أن الخلاف بين الإخوان وبين هذه الفصائل الإسلامية، يدور حول الوسائل غالبًا.

الترابى والغنوشى صديقان لى، وأنا أعتبرهما من حملة الإصلاح الإسلامى، وأنا لا أهتم بالخلاف فى الوسائل، فالغايات هى التى تعنينى، وكلاهما يأخذ القاعدة الإسلامية (من استهدى فأصاب فله أجران، ومن استهدى فأخطأ فله أجر).

أنا لا ألوم هذا ولا ذاك، فلكل منهما وجهة نظره وطريقة تصوره للأمور.

وأنا أعطى هذا لغيرى من غير الإسلاميين فكيف أضن به على الإسلاميين.

* على ضوء كل ما ذكرت ما هو تقييمك لتجربة الحكم فى السودان من جوانبها المختلفة فى ظل هذا سيطرة الجبهة القومية؟

ـ كل ما يعنينى ألا يسقط السودان فى براثن بعض المتعصبين من الجنوب أو بعض الشيوعيين من أمثال منصور خالد.

وانكسار شوكة هؤلاء على صخرة الإسلاميين أعطاهم ـ فى نظرى ـ صلاحية البقاء، ومنحهم فرصة للبقاء فى الحكم، ولعلهم بعد ذلك يعودون إلى القواعد الأصلية للشورى الإسلامية.

* فى تصور فضيلتك ما هى الأسباب التى تدفع الشيوعيين العرب للبقاء والازدهار فى مجتمعاتهم السياسية على الرغم من أن الشيوعية انتهت من كل الدنيا؟

ـ أنا سيئ الظن بالشيوعيين العرب، لأنهم ليسوا أصحاب آراء.

لقد كتبت كتابى (من هنا نعلم) ردًا على كتاب خالد محمد خالد (من هنا نبدأ)، وقتما كان خالد ميالاً للشيوعية.

إلا أن الأستاذ خالد محمد خالد كان ميالاً لها بعقله وليس بشهواته، وأنا أحترم من يخطئ بعقله لأنه ما دام صاحب عقل فسيصل إلى الصواب يومًا، ولكننى أحتقر من يخطئ لأنه صاحب هوى ورغبة، فمثل هذا لا جدوى معه ولن تزيده الأيام إلا ضلالاً.

أكثر الشيوعيين العرب ـ عندى ـ لو عاشوا فى روسيا أو الصين زمن الشيوعية لقتلوا، لأنهم لا يعتبرون شيوعيين أصحاب مبادئ محترمة، بل يعتبرون انتهازيين أصحاب رغبة وتطلع للشهوات، فالشيوعيون العرب لا قيمة لهم عندى.

* فضيلتك اختلفت مع جماعة الإخوان فى مصر منذ فترة طويلة، فما هو تقييمك لوضعها الراهن من حيث موقفها تجاه قضية التطرف التى تفرض نفسها على الساحة المصرية فى هذه الآونة؟

ـ هم بعيدون عن التطرف، والدولة بأجهزتها المختلفة لا تنسب لأحدهم أنه قاتل، أو أطلق الرصاص.

لا سياسة فى الدين..... كيف؟

* ليس هذا مقصدى... فبياناتهم الأخيرة تجاه أحداث الفتنة الطائفية فى الصعيد، أو اغتيال فرج فودة، كانت مختلفة عن بياناتهم الأولى التى كانوا يحرصون فيها بقوة على تمييز أنفسهم عن المتطرفين، وبحيث ظهرت نغمة تبريرية فى هذه البيانات الأخيرة؟

ـ ليست تبريرات، فقد رفضوا قتل فرج فودة، ولكنهم أوضحوا السبب فى قتله وهو أنه كان متطرفًا شديد الجماح، وأنا ـ شخصيًا ـ ممن يحاربون فكره.

كان يقول لا سياسة فى الدين، فما هو المقصود؟

حين نقول: أن الله حرم الخمر ثم فرضًا ـ تفتح الحكومة الحانات فهذا لا يجوز، أو نقول: أن الزنى حرام، فتقول السلطات ـ فرضًا ـ ليس حرامًا ما دام بالاختيار الحر، فهذا كلام لا يمكن قبوله.

أنا رجل مسلم أعتبر أن الخمر حرام وأن الزنى حرام، فكيف تطلب منى أن أترك ما أعتقد وإلا أصبحت متخلفًا فى نظرك تشتمنى وتبهدلنى.

من حق الإخوان وغيرهم أن يرفضوا هذه الأفكار، وليس معنى هذا أننى ضد المناقشة الحرة أو الأخذ والرد، فقد قبلت أن أذهب إليه فى سوق الكتاب الدولى العام الفائت وأناقش أفكاره وآخذ وأرد.

الإسلام..... حياة كاملة

* فى هذه المناظرة كان جدلاً طويلاً بينكم وبين المرحوم فجر فودة حول الحكومة الدينية والحكومة المدنية، فأين ترون موقع هذه القضية فى الجدل الإسلامى الدائر الآن؟

ـ العنوان غلط..... فلا يوجد فى الإسلام شىء اسمه (الدين) فحسب، فالإسلام حياة كاملة، والحكومة فيه مدنية بطبعها، لأنه ليست لها قداسة أو كهنوت.

ليس عندنا حكومة دينية بالمعنى الذى عرف فى أوروبا التى احتل رجال الدين سلطات مطلقة.

* ربما جاء هذا اللبس بين الدولة الدينية والدولة المدنية من مرجعية آيات الله فى إيران؟

ـ الحُكم فى إيران له وعليه.

ومما له أن هذا الحُكم دخل حربًا لمدة عشر سنين تقريبًا وخرج منها ولم يستدن قرشًا، فإيران ليست مدينة لأحد، وهذا فى نظرى عمل كبير، كما استطاع الحكم الإسلامى أن يهزم الاستبداد السياسى للشاه وأن ينال منه، واستطاع أن يصل حكم الفقيه، أى اختيار أفقه الناس ليكون حاكمه، وهذا فى نظرى كسب كبير كان أقرب إلى الناحية المدنية منه إلى الناحية الدينية، ولكن الدعاية ضد إيران التى شارك فيها الحكام العرب أوروبا ظلمت إيران إلى حد كبير.

التاريخ القديم يتدخل

* يستشعر كثير من المراقبين أن هناك مواجهة بين الغرب والإسلام... فى تصورك ما هى حدود هذه المواجهة ودوافعها؟

ـ التاريخ القديم له دخل كبير فى هذا.

وقد كنت أستمع إلى راديو لندن صباح اليوم فأفاد فى تقرير له من البوسنة والهرسك أن المسلمين كانوا يفرون من قرية بعد أن ضربت من الجبال، وخلف المسلمين كان المهاجمون يصيحون: (أين ربكم الآن؟).

ومعنى هذا أن الحقد الدينى على الإسلام، والتصور الدينى للمسلمين فى الألوهية لا يزال مثيرًا للحقد والغضب عند هؤلاء الصليبيين.

أوروبا ـ إلى الآن ـ لا تزال تفكر بروح صليبية، فعندما دخل المارشال اللنبى إلى بيت المقدس قال: (اليوم انتهت الحروب الصليبية)، وعندما دخل قائد القوات الفرنسية التى استعمرت سورية إلى دمشق، ركل بقدمه قبر صلاح الدين قائلاً: (ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين).

أليست هذه روحًا صليبية؟

الأوروبيون لا يفهمون الدين على أنه تربية بمقدار ما يفهمونه على أنه رباط جامع مليء بالحقد على هؤلاء المسلمين.

نحن مهزومون فى هذا العصر، ونحن أساس هزائمنا، لأننا لا نجتهد فى منع أسباب الضعف، والاستفادة من أعدائنا كما استفادوا هم منا.

كان الأوروبيون حتى القرن ١٥م -كما يبدو فى كتاب فيليب حتى عن تاريخ العرب- متخلفين إلى حد كبير عن المسلمين، ويقول هذا الكتاب (كانت شوارع قرطبة تضاء وتمتد الإضاءة إلى ميلين أو ثلاثة خارج البلد، فى الوقت الذى كان المرء يخرج من بيته فى باريس فتغوص قدماه فى الأوحال).

وما بلغت باريس مبلغ قرطبة إلا بعد قرنين من الزمان.

أوروبا انتفعت بنا وبتراثنا من بعد القرن ١٥م، بينما بدأنا نحن فى الهبوط.

يجب أن ندرس أسباب هبوطنا، لأن من ضمنها أسبابًا تتصل بالحكم وبالسياسة وأسبابًا تتصل بالثقافة العامة، وأسبابًا تتصل بشؤون الدنيا التى قيل فيها: أنتم أعلم بشؤون دنياكم.

شغب طائفى..... وليس فتنة

* كيف تنظر إلى نشاط الجماعات الدينية المتطرفة فى مصر، وتزايد التوتر الطائفى فى الفترة الماضية؟

ـ إلى الآن لا أستطيع أن أقول أن هناك فتنة طائفية فى مصر، ولكن هناك شغب طائفى يمر على هامش المجتمع المصرى، ولا تزال الأمة الإسلامية فى مصر حريصة على أن تعيش حياة معتدلة ومتوازنة مع الأقباط.

هناك أخطاء مشتركة.... نعم.

فهناك غباء من بعض المتطرفين، وكذلك بعض الأقباط يطلبون أحيانًا ما لا ينبغى أن يطلبوه، كأنهم يريدون أن يفرضوا وصاية على الأمة الإسلامية.

الأقباط ٥. ٥ فى المائة من تعداد مصر، وقد دار بينى وبين البابا شنودة -وهو رجل

ذكى جدًا ـ حوار ذات مرة، حين قال إنهم مظلومون فى تحديد عدد الكنائس التى من حقهم أن يبنوها، فقلت له: فلنبتعد عن المنافسات ولنحدد مساحة مائة كيلو متر مربع مثلاً لبناء المعابد، منها نسبة ٥ . ٥ فى المائة لبناء الكنائس طبقًا للتعداد، ولم يرد الباب أو يعقب فهو رجل ذكى جدًا.

يجب ألَّا نفتح باب المنافسات حول بناء المعابد وإلا صارت مصر مثل لبنان مليئة ببيوت الدين وليس فيها دين!

الدين ليس مبانى، الدين بناء نفسى، وليس بناء طوب، وعلى أية حال فالأقباط هم أسعد أقلية فى ظل الحكم الإسلامى.

* فى هذا الإطار ألا ترى أن مطالبة التيار الإسلامى بحزب سياسى قد تدفع الفصيل الآخر وهو الأقباط إلى طلب مماثل؟

ـ ليس هناك مانع فى أن يكون للأقباط حزب.

* ألا يؤدى هذا إلى تحويل الجدل فى مصر من جدل سياسى إلى ديني؟

ـ هذا ما يجب منعه.

فإذا كان المقصود بالتحزب هنا التعصب وتحريش الناس بعضهم ببعض باسم الدين فإن هذا لا يجوز.

مصالح الأقباط يجب أن تراعى، بحيث يعيش القبطى معى بنفس الحقوق والواجبات، ولكن هناك شيئًا حساسًا ينبغى معالجته بكل دقة وهو أن القانون لا بد أن يكون إسلاميًا، أى يحرم ما حرم الله.

فلا يمكن أن نترك الأمر ليحدث ما فعله رئيس كانتربرى حين انضم إلى مطلب أحد الأحزاب السياسية فى بريطانيا للمطالبة بإباحة اللواط وبحيث أقر مجلس العموم هذا بموافقة الكنيسة.

أنا لا أستطيع أن أقبل شيئًا حرمه الله، ما حرم لا بد أن يحرم.

لا يمكن أن يباح الخمر -مثلاً- إلا للمسيحيين أنفسهم.

الإسلام يشرح ويطبق من كتبه الأصيلة ومن فقهه الأصيل.

لقد تبرعت بمبلغ من مالى الخاص إلى ضحايا أحداث ديروط من المسلمين والأقباط، فجاء إلى منزلى أحد المتطرفين يلبس سروالاً باكستانيًا ـ على طريقتهم ـ ليحتج، فرفضت استقباله وطردته، هذا مالى وتبرعت به لله فما دخله؟ كان كطفل غبى وعنيد، يريد أن يسيطر على أبويه!

صاحب الحق لا يخشى النور:

* ما تصور فضيلتك لأساليب الحد من الشغب الطائفى فى مصر، وما هو تقييمك للتعديلات التى أدخلت ـ أخيرًا ـ على بعض القوانين بهدف مواجهة الإرهاب؟

ـ لم أدقق النظر فى التعديلات التى أدخلت على القانون فى مصر، لأننى لا أخاف تطبيق القانون ولو كان جائرًا.

ما يحدث ضد القانون هو ما أخافه.

فهل يوجد فى بنود أى قانون أن يعذب المتهم، أنا أعرف أناسًا عذبوا بالكهرباء وبالاعتداء الجنسى فى فترة الستينات وليس هناك قانون يقر هذا.

نعم أنا لا أخاف القانون، ولكننى أخاف مما يجرى فى الظلام، وهو ما تفعله أقلية مجرمة ملكت السلطة.

وبالطبع أنا أحترم الحريات، إلا أننى لم أهتم بقانون الإرهاب، لأن ما يعانى منه الناس هو ما يتم بعيدًا عن القانون، أيًا كان القانون جائرًا أو موغلاً فى التضييق على الحريات.

لقد اعتقلت بغير قانون عدة مرات، أولاها لمدة سنة أيام الملك فؤاد، ثم فترة أخرى أيام الملك فاروق، ثم فترة ثالثة أيام جمال عبد الناصر.

فى هذه المرات تم إهمال القانون، وعوقبت بما يشاء القوى، وبهذا المعنى فأنا لا أخاف القوانين ولكن كل ما أطلبه أن أعيدها إلى طبيعتها الأصلية فى المحافظة على حريات الناس.

أما أساليب مواجهة الشغب الطائفى فهى المزيد من الحريات وتبادل وجهات النظر والمزيد من المؤتمرات الفكرية.

يجب ألا أخاف من النور ما دمت صاحب حق، وأنا أريد أن ألقى الناس مصارحة بما عندى، وما دمت صاحب حق فمِم أخاف؟

الشغب يتصاعد حين يكون هناك حجر على الحريات فحسب.

* فى هذا الإطار ينادى البعض بحوار مع الجماعات المتطرفة فى مصر، هل تجدون أساسًا جديًا لهذا الحوار؟

ـ أنا أؤدى واجبى فى إقناع الآخرين بما عندى.

ربما كمان بعض الناس خاضعًا لفكرة استولت عليه لا يدرى مأتاها من أين، وبالتالى تكون مهمتى أن أذهب إليه ليس لأروعه بجهنم، أو أروعه بالعقاب فى السجون هنا، ولكننى أذهب لكى أناقش عقله، فإن كان عقله خامدًا أيقظته، وإذا كان معوجًا قوّمته، فالمناقشة لا بد منها، وأنا لا أعتقد ـ أبدًا ـ أن هناك فى حياة الناس ناحية ينبغى أن تعامل بالعنف إلا إذا كان قصاصًا أو حدًّا من حدود الله.

* فى خلال حوارات فضيلتك معهم، ماذا وجدت من قوام عام لتفكيرهم؟

ـ القدر المشترك بينهم هو قصور الفكر.

لديهم عناد نفس، أو لون من المرض النفسى، الواحد منهم صغير يريد أن يكبر ولا يجد وسيلة لأن يكبر سوى بالتعصب لما يعتقد، وهذا شىء موجود فى التاريخ الإنسانى كله، بل وفى التاريخ الإسلامى، وبالضبط كمثل ما قال قاتل علي بن أبى طالب: (لا تصلح الحياة إلا بقتل هذا) كأن علي بن أبى طالب حارس للضلال كله فى الأرض، فلا تصلح الدنيا إلا بقتله.

هذا فكر عجيب.

ومع ذلك إن كانت هناك ضرورة لتقليم أظافر التطرف، فلتقلم أظافر المتطرفين، من دون أن أعطى أحدًا من الناس الحق فى أن يقلم أظافرهم بسلاح الإرهاب الذى يعنفهم عليه.

* هل كنت فضيلتك تصل إلى نتيجة من الحوار معهم؟

ـ والله إن لم أكن سأصل إلى نتيجة فعلى الأقل سأفسد الأسلحة التى بأيديهم،

وسيشعرون أنهم فى تصرفهم مخطئون، أو غير مفهومين على الأقل، مما يجعل جرائمهم أقل فى المساحة وفى الوقوع.

* فى تقديركم لماذا أصاب كل من التيار الإسلامى ونظام ثورة يوليو الآخر بعاهة مستديمة؟

ـ جمال عبد الناصر كان مستبدًّا، وقد أتى عن طريق مؤامرات الظلام التى حاكها مع الضباط الأحرار، ولذا كان يخشى من الإخوان الذين يعملون فى الخفاء، أن يدبروا مؤامرة ضده، وتنجح كما نجحت مؤامراته هو ضد النظام الملكى.

* أما وقد ذهب جمال عبد الناصر، فما هى ملامح هذه المعركة الأزلية الآن بين التيار الإسلامى ومن يسمون أنفسهم بالناصريين سواء كانوا حزبًا شرعيًا أو جماعة حركية أو جزءًا من بدن السلطة؟

ـ جمال عبد الناصر لم يذهب، ولو حوكم بما فعل لقال العرب كلهم عنه أنه سبب المحنة التى يعيشونها الآن، لأنه سبب ضياع سيناء والجولان والضفة والقطاع والقدس فى ست ساعات ولا أقول ستة أيام.

لقد كان حاكمًا مذهولاً لا يدرى ما يفعل، وهو الذى أوقع الأمة فى هذه المحنة الهائلة التى تعانى منها إلى الآن ولا تستطيع الخروج منها.

وكون بعض الناس ـ أيًا كانت تسميتهم ـ يريدون إحياء هذه الفترة من الحكم وإعادتها، فهذا دليل على أن الأمة العربية تعيش بلا وعى وبلا ضمير، سواء كان الإحياء فى شكل حزب فى مصر، أو نظام فى العراق أو سورية.

* ماذا كانت نتيجة الحوار الذى كانت قد بدأت فصوله بين بعض الفصائل الإسلامية والأقباط فى مصر؟

ـ المهم أن يدوم الحوار ويستمر، بحيث كلما نشأ شىء لا يترك فى الظلام لينمو بل يكشف عنه فورًا ليتم القضاء عليه.

* طرح الدكتور أحمد كمال أبو المجد منذ عام تقريبًا ورقة اعتبرها بعض المراقبين برنامجًا لحزب إسلامى، فهل ترى أن هذه الورقة غطت بنود برنامج لحزب إسلامى بشكل دقيق؟

ـ قرأت هذه الورقة، وأرى أنها تمثل كثيرًا مما أفكر فيه، فالرجل صاحب وعى راشد وتصور سليم للقضايا الإسلامية والقضايا الإنسانية على الإجمال، وكونها تحتاج إلى تفصيل أكثر فهذه مسئولية المفكرين الإسلاميين الآخرين، وكأن هذه الورقة كانت ورقة عمل سريعة لبيان ما يمكن أن يمتد إليه الحوار فى إطار احترام مواريثنا وشخصيتنا.

* هل ظهور حزب بهذا البرنامج كفيل بأن يستوعب تلك الأغلبية الصامتة الميالة للفكر الإسلامي؟

ـ أعتقد هذا، فالأغلبية الصامتة هى التى تمثل الإسلام الصحيح فى الغالب بمواريثها الطيبة، ورغبتها فى أن تعيش حياة معتدلة، وبفهمها البديهى للفضائل والرذائل وبأين تقف سلطات الحاكم، وأين تقف حقوق الجماهير.

* وفى رسالة لحكام أُمَّتنا الإسلامية ماذا تقول فضيلتك؟

ـ أقول: أيها الحاكم...

تستطيع أن تجمع بين المعاصرة والسلفية بحكمتك، التراث والمعاصرة يلتقيان عند الحاكم المعتدل الذى يريد أن يبنى أمته على قواعدها.

نحن ـ أيها الحاكم ـ لا نستطيع أن نطرح الإسلام جانبًا، ونحن نرى دولة إسرائيل تقوم إلى جوارنا على أساس دينى.

ولا يفل الحديد إلا الحديد، وإذا كانوا يحملون التوراة فلنحمل القرآن.

أيها الحاكم

أرجو أن تقيم الأمة الإسلامية على دينها وألا تباعد بينها وبين تراثها مع ضمنية أخرى ـ لا بد منها ـ وهى التطبيق المعاصر الحسن الراشد.

١٤ـ حوار بين الشيخ محمد الغزالى وصهره الأستاذ إحسان عبد القدوس

من الكتاب التذكارى عن إحسان عبد القدوس صـ ٢٣٤، ٢٣٥ بالهيئة العامة المصرية للكتاب

جرى بينى وبين الأستاذ إحسان عبد القدوس ـ رحمه الله ـ حوار جدير بالتسجيل، وإن مضت عليه بضع سنين

قال: أنا أعرف أن رحمة الله واسعة، وقد سمعت حديثًا قدسيًا جاء فيه: «إن رحمتى سبقت غضبى، أو غلبت غضبى»[1]. وفى القرآن الكريم: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾. فإن يكن الأمر كذلك، فلماذا خلقت جهنم؟ وإذا وجدت فلماذا تُخلَّد؟

قلت له: فى كل سباق بين الناس لا بد من مكافآت للمحسنين، وعقوبات للمسيئين، وليس من الحكمة أن يسوَّى بين الفريقين، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

والله تعالى كما وصف نفسه بالرحمة وصف نفسه بالعدالة، ولا بد من تحقيق الوصفين فى الدنيا والآخرة، والناس تنضبط شؤونهم بين الرغبة والرهبة، بين الرجاء والخوف.

وفى الآيات الكريمة: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾. وغضب الله مُقلِق، كما أن رحمته مُطمِعة، وفى الحديث: «لو

(١) ولفظ الحديث: (إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتابًا قَبْلَ أنْ يَخْلُقَ الخَلْقَ: إنَّ رَحْمَتى سَبَقَتْ غَضَبِى، فَهو مَكْتُوبٌ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ). أخرجه البخارى برقم (٧٥٥٤) من حديث أبى هريرة

يعلم المؤمن ما عند اللَّه من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند اللَّه من الرحمة ما قنط من جنته أحد»[1].

قال الأستاذ إحسان: كلامك يفيد أن الأوصاف الإلهية متساوية، وما ذكرته من قبل يفيد أن الرحمة العليا تغلب، وأنا أميل إلى الرأى الأول.

قلت له: لا تناقض؛ هناك مجال واسع للرحمة المنشودة، وأولى الناس بها من يعترف بصاحبها، أما من ينكر وجوده، أو يعرفه على نحوٍ فاسدٍ، أو يعرفه على طريقة إبليس فى الكبرياء والتمرد، فلا نصيب له فى هذه الرحمة.

نحن فى دنيانا لا نرحم من يقترف جريمة الخيانة العظمى، وإن كانت له حسنات معدودة، والجاحدون للالوهية، المتمردون على الوحى لا أمل لهم، وفى الحديث القدسى يقول الله: «يا ابنَ آدمَ، إنَّك ما دعوتَنى ورجوتَنى غفرتُ لكَ على ما كانَ منكَ ولا أُبالِى، يا ابنَ آدمَ، لوْ بلغتْ ذنوبُك عنانَ السماءِ ثمَّ استغفرتَنى غفرتُ لكَ ولا أُبالِى، يا ابنَ آدمَ، لوْ أنَّك أتيتَنى بقُرَابِ الأرضِ خطايا ثمَّ لقيتَنى لا تشركْ بى شيئًا لأتيتُك بقرابِها مغفرةً».

والحق أننا مغمورون برحمات الله ظاهرًا وباطنًا، وما يفقد هذه الرحمة إلا هالك لا يساوى شيئا، ولا تنهض له عند نفسه حجة.

قال الأستاذ إحسان: مبدا العقوبة لا يمكن استبعاده فى العلاقات الخاصة والعامة، وأنا رجلٌ حقوقى لا أهيم فى أودية الخيال، ولكن تصورى للكمال الإلهى، ورجحان الرحمة العليا، يجعلانى أستبعد الخلود فى جهنم على أعمال خاطئة تمت فى زمن محدود.

قلت له: الخلود فى جهنم قد يعنى الزمان الطويل، كما أن الأشغال الشاقة المؤبدة تعنى مدة معينة، وهناك اتفاق على أن بعض الملوثين يبقون فى جهنم مدة يتهذبون فيها ثم يخرجون، ومع أن جمهرة المسلمين ترى أن الملاحدة والمستكبرين على الله يبقون فى جهنم أبد الدهر، فإن هناك علماء من الاكابر يرون أن جهنم ستفنى يوما بمن

(١) أخرجه مسلم (٢٧٥٥) باختلاف يسير، والترمذى (٣٥٤٢) واللفظ له، وأحمد (٨٤١٥) مطولًا (محقق)

فيها، ومن هؤلاء العلماء: ابن القيم، والشيخ رشيد رضا، والشيخ محمود شلتوت، وغيرهم، ويمكن الاطلاع على الموضوع كله فى تفسير المنار.

أما أنا فأختصر القضية، ولا أطيق المُضيّ إلى نهايتها، واقفًا عند قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾.

قال الأستاذ إحسان: أيوجد رأى إسلامى بأن النار ستخمد يومًا؟ قلت له: نعم، وآخر من كتب فى هذا شيخ الأزهر الأسبق الشيخ محمود شلتوت فى كتابه «العقيدة والشريعة».

قال: ما أوسع الثقافة الإسلامية وأشبعها للعقل. قلت له: إن الإسلام دين العباقرة والمفكرين.

رحم الله الأستاذ إحسان عبد القدوس وأكرم نزله، بقدر ما أمَّل فى رحمته، وفوق ما أمَّل، مما يفيئه عليه ذو الجلال والإكرام.